نظـرات
في التربية الإيمانية

حقوق الطبع محفوظة

طبعة مزيدة ومنقحة

الطبعة الأولى

١٤٣١ هجري - ٢٠١٠ ميلادي

الطبعة الثانية

١٤٤٤ هجري - ٢٠٢٣ ميلادي

رقم الإيداع: ٢٤٧٣٧ / ٢٠٠٩م

الترقيم الدولي: I.S.B.N

٩٧٨-٩٧٧-٤٤١-٧٦٦-٩

نظـرات
في التربية الإيمانية

مجدي الهلالي

بسم الله الرحمن الرحيم

المقَـدّمَة

رب يسِّر وأعِن يا كريم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسـلام على المبعوث رحمة للعالمين، سـيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فهب أنك -أخي القـارئ- قد عُدت إلى منزلك في يـوم من الأيام، فوجدت رجلاً في انتظارك وبصحبته زوجته وأولاده، ومعه رسـالة من أحد أصدقائك الذين لا يمكنك أن ترد لهم طلبًا، يُخبرك فيها بأن حامل رسـالته أخٌ لك في الله، قد تعَرَّض لمحن وابتلاءات كثيرة، وهو الآن بلا مال ولا مأوى، وعليك أن تستضيفه وعائلته في منزلك، وأن تقتسم معه مالك، وطعامك، فضلاً عن مسكنك، وليس لهذه الاستضافة مدة معلومة، فقد تمتد شهورًا أو سنين...

فماذا تتوقع أن يكون رد فعلك تجاه هذا الأمر؟!

هل ستكون سعيدًا بهذه الرسالة وما تحتويه؟ أم سيضيق صدرك ويشتدّ غمك، فالراتب لا يكفي إلا بالكَاد، والمسكن يضيق بأفراد الأسرة، فكيف سيكون الحال لو تم اقتسام الراتب والمسكن بينك وبين أخيك؟

وحتى إن كنت موسرًا؛ فمن يتحمل أن يتعايش مع أُناس لا يعرفهم ولا يعرف طباعهم وأسلوب حياتهم؟

لا أكتُمك القول -أخي- بأنني قد تخيلت نفسي في هذا الموقف، فتوقعت مقدار الحرج الذي سيُصيبني، ومدى الضيق الذي قد يتولد في صدري، والذي قد يزيد بطول مدة الاستضافة، ومن المتوقع أن تدور أمنيتي وقتها حول إمكانية كون هذا الرجل قد أخطأ في العنوان، وأن المقصود شخص آخر غيري، وقد أُسارع بالاتصال بمن كتب الرسالة محاولًا التملص من هذا العمل، وأتعلل بظروف كثيرة تَحُول بيني وبين استضافة هذه الأسرة، وإن وافقت على استضافتها فستكون موقوتة بمدة محددة، وسأجتهد في أن تكون هذه المدة قصيرة قدر الإمكان...

هذا الموقف -الذي نتمنى ألَّا نتعرض له- قد تَعرَّض له الأنصار في صدر الدعوة، فلقد خرج المهاجرون فارِّين بدينهم من مكة تاركين فيها ديارهم وأموالهم، وتوجهوا إلى يثرب تنفيذًا لأمر الله ورسوله ﷺ.. هاجروا إليها دون أن يكون لهم فيها مأوى، ولم يكن معهم من الأموال ما يُمكِّنهم من الإنفاق على أنفسهم، أو اقتناء مساكن تؤويهم، وفي المقابل كان أهل المكان من الأنصار فقراء، فضلًا عن أنهم لم يكن بينهم وبين المهاجرين سابق صلة أو معرفة، ومع ذلك كان عليهم أن يستضيفوا إخوانهم المهاجرين استضافة كاملة.. فماذا كان تصرفهم تجاه هذا الأمر؟!

تُجيبنا كتب السيرة بأنهم كانوا في سعادة غامرة بتلك الاستضافة إلى حد تَسابقهم وتَنافسهم فيما بينهم للفوز بكل مهاجريّ يصل إلى المدينة.. هذا التسابق والتنافس الذي كان على أشُده جعلهم يلجئون إلى إجراء القرعة لتحديد الفائز باستضافة الوافد الجديد.. نعم، لقد حدث هذا، حتى قيل: ما نزل مهاجري على أنصاري إلا بقرعة.

ولعلك -أخي القارئ- تعجب من هذا التصرف الذي نعجز نحن عن القيام به، ولعلك كذلك تتساءل معي: ما الذي جعلهم يصلون إلى هذا المستوى، وهذا

السلوك الذي يفوق طاقات احتمال البشر؟

يُجيب القرآن عن تساؤلاتنا، ويُبيِّـــن لنا السبب الذي دفع هؤلاء الأنصار لهذا الإيثار العظيم مع فقرهم وشدة حاجتهم، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر: ٩].

فالآية الكريمة تصف هؤلاء بأنهم تَبوَّءوا الدار: أي اســـتوطنوا يثرب قبل مجيء المهاجرين، وتقول عنهم الآية كذلك بأنهم استوطنوا الإيمان..

ولكن كيف يُســـتوطن الإيمان؟! أليس من المعلـــوم أن الإيمان هو الذي يدخل القلب؟!

.. نعم هو كذلك، ولكن من شـــدة تمكُّن الإيمان منهم، فكأنهم هم الذين دخلوا فيه واستوطنوه، والدليل على ذلك هو هذا الفعل العجيب: الإيثار مع الحاجة..

> **الأمر إذن واضح؛ إنْ أردنا ســـلوكًا صحيحًا، واستقامة جادة، وأخلاقًا حســـنة، فعلينا بالإيمان، فكلما ازداد الإيمان انصلح القلب، فتحســـنت الأفعال.**

ولكي يصبح الإيمان راســـخًا في القلب ومهيمنًا عليه لا بد من ممارســـة أسباب زيادته، وتعاهد شجرته حتى تنمو في القلب وتزهر وتثمر ثمارًا طيبة بصورة دائمة.

أو بعبارة أخرى:

نحتاج ممارسة «التربية الإيمانية» مع أنفسنا، ومع كل من نتولى أمر تربيته إن أردنا الإصلاح الحقيقي لأنفسنا وأمتنا.

فإن قلت: وكيف لنا أن نفعل ذلك؟!

كانت الإجابة بأن هذه الصفحات التي بين يديك -أخي- تُعطيك صورة عامة عن هذا الأمر، فهي بمثابة مبادئ وإشارات حول التربية الإيمانية من حيث: ثمارُها، وأهدافُها، وحقيقتُهـا، وجناحاها (أعمال القلوب، وأعمال الجوارح)، وإن شـئت قلت: الإيمان، والعمل الصالح.

نسـأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يتقبل منا بفضلـه وكرمه كل خير أفاض بـه علينا في هذه الصفحات، وأن يغفر لنا زلَّاتنـا، وألَّا يحرمنا -بجُوده- الأجر إن أصبنا أو أخطأنا: ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢].

• • •

الفصل الأول

ضرورة التكامل التربوي عند المسلم

ومكانة التربية الإيمانية منه

ضرورة التكامل التربوي عند المسلم ومكانة التربية الإيمانية منه [١]

المكونات الأربعة

خلق الله عَزَّوَجَلَّ الإنسان بتكوين يشمل أربعة جوانب رئيسة هي: العقل، والقلب، والنفس، والجسد.

وعندما يبدأ الإنسان رحلته على الأرض منذ نزوله من بطن أمه، فإنما يبدأها بهذه المكونات الأربعة وهي غير مكتملة النمو، فقد جعلها -سبحانه- تبدأ صغيرة محدودة الإمكانات، وأودع فيها خاصية النماء: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [النحل: ٧٨].

هذه الجوانب الأربعة تحتاج إلى دوام تعاهد وإمداد يترك فيها أثره الدائم في اتجاه تحقيق الهدف من وجود الإنسان على الأرض، ألا وهو: تحقيق العبودية الصحيحة لله عَزَّوَجَلَّ.

---

(١) يتم -بعون الله- عرض موضوع التكامل التربوي في هذا الفصل باختصار شديد كمدخل للتربية الإيمانية، فإن أردت -أخي القارئ- التعرف عليه بشيء من التفصيل فلك -إن شئت- أن تقرأ لكاتب هذه السطور كتاب «التوازن التربوي وأهميته لكل مسلم» والكتاب -بفضل الله- يوجد على موقع الإيمان أولًا: www.alemanawalan.com

ولكـــي يظهر الأثر الإيجابي الدائم في كل من هـــذه الجوانب كان من الضروري سلوك طريق التربية.

فالتربية كما يقول الإمام البيضاوي: هي تبليغ الشيء إلى كماله شـــيئًا فشـــيئًا[١]، ويمكن تعريفها كذلك بأنها الأداة التي تقوم بإحداث تغيير أو أثر دائم في الشيء.

لذلك فإن من أهم أهداف التربية الإسلامية الصحيحة هو: إحداث أثر إيجابي دائم في المكونات الأربعة للإنسان، ينتج عنه تغيير حقيقي في ذاته ليشـــمل: المفاهيم والتصورات في العقل، وإصـــلاح الإيمان في القلب، وتزكية النفـــس وترويضها على لزوم الصـــدق والإخلاص والتواضع ونكران الذات.

ويشـــمل كذلك ضبط حركة المرء والتعود على بذل الجهد في ســـبيل الله عَزَّوَجَلَّ؛ لتكون ثمرة هذا التغيير -في هذه المحاور- تنشـــئة المســـلم الصالـــح المصلح الذي تتأسس عليه الأسرة المسلمة، فالمجتمع المسلم...

ضوابط التربية

هناك عـــدة أمور ينبغي مراعاتها عند الحديث عن «التربية». وضرورتها في تغيير الفرد والأمة.

أولًا: أن يتم تبنِّيها كثابت رئيس ومتفرد للتغيير الحقيقي، فلئن كان تغيير وضع الفرد أو الأمة من السيئ للأحسن مرتبطًا بتغيير ما بالنفس كما قال تعالى: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ**﴾ [الرعد: ١١].

(١) «أصول التربية الإسلامية وأساليبها المختلفة» لعبد الرحمن النحلاوي (ص: ١٢) - دار الفكر.

فإن حدوث هذا التغيير يستلزم سلوك طريق «التربية»... تأمل معي ما قاله إمام الدعـــاة في العصر الحديث، وهو يحكـــي عن تجربته في الدعوة حتـــى أيقن بضرورة التوجه نحو التربية لتغيير الفرد والأمة على منهج الإسلام، فيقول:

طالعت كثيرًا، وجربت كثيرًا، وخالطت أوساطًا كثيرة، وشهدت حوادث عدة، فخرجت من هذه الســـياحة القصيرة بعقيدة ثابتة لا تتزلزل، هي أن الســـعادة التي ينشـــدها الناس جميعًا إنما تفيض عليهم من نفوسهم وقلوبهم، ولا تأتيهم من خارج هذه القلوب أبدًا، وأن الشقاء الذي يحيط بهم ويهربون منه إنما يصيبهم بهذه النفوس والقلوب كذلك، وإن القرآن يؤيد هذا المعنى، ويوضح ذلك قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

.. اعتقدتُ هذا، واعتقدتُ إلى جانبه أنه ليس هناك نُظُم ولا تعاليم تكفل سعادة هذه النفـــوس البشرية، وتهدي النـــاس إلى الطرق العملية الواضحة لهذه الســـعادة كتعاليم الإسلام الحنيف الفطرية الواضحة العملية..

لهذا وقَفْتُ نفسي منذ نشـــأت على غاية واحدة، هي إرشـــاد الناس إلى الإسلام حقيقة وعملًا..

ظلَّت هذه الخواطر حديثًا نفسانيًّا، ومناجاةً روحية، أتحدث بها في نفسي لنفسي، وقد أُفْضِي بها إلى كثير ممن حولي، وقد تظهر في شكل دعوة فردية، أو خطابة وعظية، أو درس في المســـاجد إذا ســـنحت فرصة التدريس، أو حـــثٍّ لبعض الأصدقاء من العلماء على بذل الهمة ومضاعفة المجهود في إنقاذ الناس وإرشادهم إلى ما في الإسلام من خير.

ثم كانت في مصر وغيرها من بلدان العالم الإسلامي حوادث عدة ألهبت نفسي، وأهاجت كوامن الشـــجن في قلبي، ولفتت نظري إلى وجوب الجد والعمل، وسلوك طريق التكوين بعد التنبيه، والتأسيس بعد التدريس[١].

وفي موضع آخر يقول رحمه الله:

إن الخطـــب والأقوال والمكاتبـــات والدروس والمحاضرات وتشـــخيص الداء ووصـــف الدواء.. كل ذلك وحده لا يُجدي نفعًا، ولا يُحقق غاية، ولا يصل بالداعين إلى هدف من الأهداف؛ ولكن للدعوات وسائل لا بد من الأخذ بها والعمل لها.

والوسائل العامة للدعوات لا تتغير ولا تتبدل ولا تعدو هذه الأمور الثلاثة:

١- الإيمان العميق.

٢- التكوين الدقيق.

٣- العمل المتواصل[٢].

ثانيًا: أن تســـتمر التربية ولا تنقطع أو تتوقف عند فـــترة معينة؛ لأن الأمر الذي استوجبها دائم لا ينقطع ولا يتوقف حتى الموت: ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴾ [الحجر: ٩٩].

.. تأمل قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ [النساء: ١٣٦].

يقول محمد قطب معلقًا على هذه الآية: أي حافظوا على إيمانكم، استمروا فيه، لا

(١) مجموع الرسائل (ص: ١١٦) باختصار.

(٢) رسالة بين الأمس واليوم (ص: ١٠٨).

تغفلوا عـــن المحافظة عليه.. لا تفتُروا عن معاهدتـــه ورعايته وتغذيته وتقويته والحرص عليه[١].

ومما يؤكد هذا المعنى قول رســـول الله ﷺ: «**إِنَّ الْإِيمَانَ لَيَخْلَقُ فِي جَوْفِ أَحَدِكُمْ كَمَا يَخْلَقُ الثَّوْبُ، فَسَلُوا اللهَ أَنْ يُجَدِّدَ الْإِيمَانَ فِي قُلُوبِكُمْ**»[٢].

فمهما تقدم عمر المرء، ومهما ارتقى في سلم المسئولية، فلا بد له من الاستمرار في التربية حتى يستمر قيامه بحقوق العبودية لله عَزَّوَجَلَّ.

«إن القلب البشري سريع التقلُّب، سريع النســـيان، وهو يَشِفُّ ويُشرق فيفيض بالنور.. فإذا طال عليه الأمل بلا تذكير ولا تذكُّر، تبلَّد وقَسَـــا، وانطمست إشراقته، وأظلم وأعتم، فلا بد من تذكير هذا القلب.. ولا بد من اليقظة الدائمة كي لا يصيبه التبلد والقساوة»[٣].

وأما النفس فهي كالأســـير الذي يُحاول مقاومة الأسر، فـــإن أَسَرْتَه فلا بد من اليقظة الدائمة معه حتى لا يفلت منك ويأسرك ويجعلك طوع أمره.

والعقـــل أيضًا يحتاج باســـتمرار إلى تزويده بالعلم النافع حتى تتســـع مداركه، وتُفتح نوافذه، فتزداد معرفته بربه، وما يُقربه إليه: ﴿**وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا**﴾ [طه: ١١٤].

---

(١) مكانة التربية في العمل الإسلامي لمحمد قطب، (ص: ٢٦) - دار الشروق.

(٢) رواه الطبراني عن عَبْد اللَّه بْن عَمْرو بْن الْعَاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مرفوعًا (١٤/ ٦٩ برقم: ١٤٦٦٨)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ٥٢) إسناده حسن. وأخرجه الحاكم (١/ ٤٥، رقم: ٥)، وقال: رواته مصريون ثقات، ووافقه الذهبي، وقال المناوي في فيض القدير (٢/ ٣٢٣): قال العراقي في أماليه: حديث حسن.

(٣) في ظلال القرآن (٦/ ٣٤٨٩).

ثالثًا: ومن الضوابط الحاكمة للعملية التربوية كذلك ضرورة أن تشـــمل التربية الجوانب الأربعة للشخصية، فأي إهمال لجانب منها يؤدي إلى عدم ظهور ثمرة التربية الصحيحة.

فعندما يحصل اهتـــمام بتحصيل العلم، دون الاهتمام بزيادة الإيمان، فســـتكون النتيجة المتوقعة: شـــخصًا كثير التنظير، حافظًا للنصـــوص، كثير الحديث عن القيم والمبادئ، والمعاني العظيمة، لكنـــك قد تجد في المقابل واقعًا يختلف عن الأقوال، فهو يتحدث عن العدل والمســـاواة، بينما لا يتعامل مع الآخرين بهذه القيم، وبخاصة مع من يرأسهم..

يتحدث عن الزهد في الدنيا وأهمية العمل للآخرة، في حين تجده يحرص على جمع المال، وينفق منه بحساب شديد، ويدقق في كل شيء مهما كان صغيرًا.

.. كل هذا وغيره بســـبب عدم الاهتمام بالإيمان بنفـــس درجة الاهتمام بالعلم، فالذي يُقرب المسافة بين القول والفعل، ويُترجم العلم إلى سلوك هو: «**الطاقة والقوة الروحية المتولدة من الإيمان**».

أما عندما يتم الاهتمام بالإيمان دون العلم فستجد أمامك شخصًا جاهلًا، يتشدد فيما لا ينبغي التشدد فيه، ويترخص فيما لا ينبغي الترخص فيه.. ستجد شخصًا ضيق الأُفق لا يستطيع أن يتعامل مع فقه الواقع ومستجدات العصر.

وفي حالة الاهتـــمام بالعلم والإيمان مع عدم الانتباه للنفـــس، وإهمال تزكيتها، فسيكون النتاج: شخصًا كثير العبادة، كثير المعلومات، سبَّاقًا لفعل الخير وبذل الجهد، لكنه متورم الذات، يرى نفســـه بعدسة مكبِّرة، ويرى غيره بعكس ذلك؛ لأن عبادته وأوراده وبَذْله -في الغالب- ستغذي إيمانه بنفســـه وبقدراته، وأنه أفضل من غيره،

فيتمكن منه -بمرور الأيام واستمرار الإنجازات والنجاحات- داء العُجْب، ومن ورائه الغرور والكبر والعياذ بالله، فيُعرِّض نفسه لمقت ربه وحبوط عمله.

ومع ضرورة الاهتمام بالتربية المعرفية والإيمانية والنفسية (تزكية النفس) تأتي كذلك أهمية التعود على بذل الجهد في سبيل الله، وفي دعوة الناس إليه، فلو لم يتحرك المسلم، ويُعلّم الناس ما تعَلّمه، ويأخذ بأيديهم لتغيير ما بأنفسهم -بإذن الله- فإنه سيصاب بالفتور والخمول والكسل، ولن يدرك أسرار الكثير من المعاني التي يتعلمها، وقبل ذلك فإن الواجب الشرعي والواقع الأليم الذي تحياه أمتنا يُحتِّمان عليه فعل ذلك.

وفي المقابل، فإن الحركة وبذل الجهد في سبيل الله إن لم يكن وراءها زاد متجدد، فإن عواقب وخيمة ستلحق بصاحبها، ويكفيك في بيان هذه الخطورة قول رسول الله ﷺ: «**مَثَلُ الَّذِي يُعلِّمُ النَّاسَ الْخَيْرَ وَيَنْسَى نَفْسَهُ، مَثَلُ الْفَتِيلَةِ، تُضِيءُ لِلنَّاسِ وَتَحْرِقُ نَفْسَهَا**»[(١)].

فلا بد من الأمرين معًا: لا بد من الزاد، ولا بد من التحرك بهذا الزاد[(٢)].

بأي الجوانب نبدأ[(٣)]؟

بعد أن تعرفنا -باختصار- على الاحتياجات التربوية الأساسية لكل مسلم وأهمية كل جانب منها؛ يبقى السؤال: بأي الجوانب نبدأ؟

(١) الأحاديث والمثاني لابن أبي عاصم (برقم: ٢٣١٤-٤/ ٢٩٣) ط: دار الراية، وراجع مجمع الزوائد طبعة دار المنهاج (٢/ ٣١٢ برقم: ٨٨٠).

(٢) هذه الفقرة من كتاب «التوازن التربوي وأهميته لكل مسلم»، من (ص: ٧٨ - ٨١)، باختصار.

(٣) المصدر السابق.

بلا شك أن العلم هو البداية:

﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [محمد: ١٩]، فالعلم أساس العمل، ومع ذلك فليس المطلوب علمًا نظريًّا، يُعمق الفجوة بين القول والفعل، بل نريده علمًا نافعًا راسخًا، يزيد القلب خشية وإيمانًا.

لذلك فعلينا الاجتهاد بتحصيل أصل العلوم وأنفعها، ألا وهو:

«العلم بالله عَزَّوَجَلَّ»، والاجتهاد في تحويل هذه المعرفة إلى إيمان.

ولأن التربية الإيمانية بمفهومها الصحيح الشامل -كما سيأتي بيانه- تُركز على معرفة الله عَزَّوَجَلَّ، وتُركز كذلك على ترجمة هذه المعرفة إلى معانٍ يرسخ مدلولها في القلب -أي أنها قد جمعت بين الخيرين- كان من المناسب البدء بجانب «التربية الإيمانية».

من فوائد البدء بالتربية الإيمانية[1].

هناك حلقة مفقودة بين الأقوال والأفعال؛ والسبب الرئيس في ذلك هو ضعف الإيمان، فعندما يُهيمن الإيمان الحي على القلب، فإنه يُولِّد في قلب صاحبه طاقة عظيمة، وقوة روحية هائلة تدفعه للقيام بالأفعال التي تناسب المواقف المختلفة من سرَّاء أو ضرَّاء..

لذلك فلو تجاوزنا البدء بالتربية الإيمانية فإن الفجوة ستزداد بين الواجب والواقع، وبين العلم والعمل.

(١) المصدر السابق.

فعلى سبيل المثال:

لو بدأنا بالتربية النفسية (تزكية النفس) فإننا قد نقتنع أن بداخلنا أصنامًا ينبغي أن تُزال، وأننا مصابون بداء العُجْب، واستعظام النفس، ولكننا لن نستطيع مقاومة هذا المرض، والوقوف له بالمرصاد، لضعف القوة الروحية اللازمة لذلك.

والأمر ذاته لو بدأنا بالتركيز على التربية الحركية وبذل الجهد في سبيل الله، فسيتحول الأمر بمرور الوقت إلى أداء شكلي روتيني بلا روح، وسيزحف إلى من يفعل ذلك الشعور بالفتور والوحشة وضيق الصدر، وسيفقد تأثيره على الآخرين شيئًا فشيئًا.

من هنا تظهر الحاجة إلى البدء بالتربية الإيمانية بمفهومها الصحيح والذي يعمل باستمرار على توليد القوة الروحية، وتنمية الدافع الذاتي، وتقوية الوازع الداخلي، وبث الروح في الأقوال والأفعال؛ ومن ثَمَّ يسهل على المرء بعد ذلك القيام بالأعمال المطلوبة لتحقيق أهداف التربية النفسية (تزكية النفس) والحركية.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ [المؤمنون: ٥٧-٦١].

فالآيات تُعطي دلالات واضحة على أن أصحاب القلوب المؤمنة الخاشعة لربها هم أكثر الناس مسارعة للخيرات وأسبقهم إليها.

• • •

الفصل الثاني

ثمـــــارُ الإيمـــــان

من ثمار الإيمان في جيل الصحابة

يقول تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾ [إبراهيم: ٢٤،٢٥].

فالإيمان كالشـــجرة الطيبة المباركة[١] التي إذا ما أحســـنَّا غرسها في القلب فإنها تُثمـــر -بإذن الله- ثمارًا يانعة وطيبة في كل الاتجاهـــات والأوقات، والأمثلة العملية التي تؤكد هذه الحقيقة من الكثرة بمكان، وسنذكر -بعون الله وفضله- في الصفحات القادمـــة بعض تلك الثمار، مع مزجها بنماذج تطبيقية من حياة الصحابة -رضوان الله عليهم- باعتبار أنهم أفضل أجيال الأمة بالإجماع.

لماذا الحديث عن جيل الصحابة؟!

عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: من كان مُســـتنًّا فليستن بمن قد مات، أولئك أصحاب محمد ﷺ، كانوا خير هذه الأمة، أبرَّها قلوبًا، وأعمقها علمًا، وأقلها تكلُّفًا.. قوم اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ، ونقْل دينه، فتشـــبَّهوا بأخلاقهم وطرائقهم، فهم أصحاب محمد ﷺ كانوا على الهدى المستقيم والله رب الكعبة[٢].

---

(١) قَالَ مُجَاهِدٌ وَعِكْرِمَةُ: «الشَّجَرَةُ النَّخْلَةُ، فَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى: أَصْلُ الْكَلِمَةِ فِي قَلْبِ الْمُؤْمِنِ- وَهُوَ الْإِيمَانُ- شَبَّهَهُ بِالنَّخْلَةِ فِي الْمَنْبَتِ، وَشَبَّهَ ارْتِفَاعَ عَمَلِهِ فِي السَّمَاءِ بِارْتِفَاعِ فُرُوعِ النَّخْلَةِ» تفسير القرطبي: (٩/ ٣٥٩).

(٢) حلية الأولياء لأبي نُعيم الأصبهاني (١/ ٣٠٥)، دار الكتاب العربي - بيروت، وفي شرح السنة للبغوي عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (١/ ٢١٤) ط: المكتب الإسلامي.

ويقول أبو الحسن الندوي في مقدمته لكتاب «حياة الصحابة»:

«إن السيرة النبوية وسير الصحابة وتاريخهم من أقوى مصادر القوة الإيمانية والعاطفة الدينية، التي لا تزال هذه الأمة تقتبس منها شعلة الإيمان، وتشتعل بها مجامر القلوب، التي يسرع انطفاؤها وخمودها في مهب الرياح والعواصف المادية، والتي إذا انطفأت فقدت هذه الأمة قوتها وميزتها وتأثيرها، وأصبحت جثة هامدة تحملها الحياة على أكتافها.

إنها تاريخ رجال جاءتهم دعوة الإسلام فآمنوا بها وصدقتها قلوبهم.. وضعوا أيديهم في يد الرسول ﷺ وهانت عليهم نفوسهم وأموالهم وعشيرتهم، واستطابوا المرارات والمكاره في سبيل الدعوة إلى الله، وأفضى يقينها إلى قلوبهم، وسيطر على نفوسهم وعقولهم، وصدرت عنهم عجائب الإيمان بالغيب، والحب لله والرسول، والرحمة على المؤمنين والشدة على الكافرين، وإيثار الآخرة على الدنيا، والحرص على دعوة الناس، وإخراج خلق الله من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن جَور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سَعَتها، والاستهانة بزخارف الدنيا وحُطامها، والشوق إلى لقاء الله، والحنين إلى الجنة، وعُلو الهمة، وبُعد النظر في نشر رِفد الإسلام وخيراته في العالم، وانتشارهم لأجل ذلك في مشارق الأرض ومغاربها، ونسوا في ذلك لذَّاتهم، وهجروا راحاتهم، وغادروا أوطانهم، وبذلوا مُهَجَهم وحرّ أموالهم حتى أقبلت القلوب إلى الله، وهبَّت ريح الإيمان قوية عاصفة، طيبة مباركة، وقامت دولة التوحيد والإيمان والعبادة والتقوى، وانتشرت الهداية في العالم، ودخل الناس في دين الله أفواجًا»[1].

• • •

(١) حياة الصحابة للكاندهلوي (١/ ١٥) بتصرف يسير.

الثمار العشر

إن الهدف الأساسي من التحدث عن ثمار الإيمان ومدى ظُهورها في جيل الصحابة -رضوان الله عليهم- هو استثارة مشاعر الاحتياج نحو التربية الإيمانية، وتقوية العزيمة لسلوك طريقها بإذن الله.

ولقد تم اختيار عشر ثمار ليتم الحديث عنها -بعون الله- وهي بإجمال:

أولًا: الـمُبادرة والـمُسارعة لفعل الخير.

ثانيًا: تقوية الوازع الداخلي.

ثالثًا: الزهد في الدنيا.

رابعًا: التأييد الإلهي.

خامسًا: إيقاظ القوى الخفية.

سادسًا: الرغبة في الله.

سابعًا: اختفاء الظواهر السلبية.

ثامنًا: التأثير الإيجابي في الناس.

تاسعًا: اتخاذ القرارات الصعبة.

عاشرًا: الشعور بالسكينة والطمأنينة.

والجدير بالذكر أن هذه الثمار العشر ما هي إلا قطوف يسيرة من شجرة الإيمان المباركة، ولقد تم اختيارها كأمثلة متنوعة، فمنها ما يتعلق بعلاقة المؤمن بربه، ومنها ما ينعكس على علاقته بدنياه وآخرته، ومنها ما يظهر آثاره على تعاملاته مع الآخرين.

وإليك -أخي القارئ- بعضًا من التفاصيل حول هذه الثمار العشر.

• • •

أولًا: المبادرة والمسارعة لفعل الخير

من أهم ثمار الإيمان الحي أنك تجد صاحبه مبادرًا ومسارعًا لفعل الخير، يتحـــرك في الحياة وكأنه قد رُفعت له راية من بعيد، فهو يســـعى جاهدًا للوصول إليها مهـــما كلفه ذلك من بذل وتعب وتضحيـــة.. تراه دومًا يبحـــث عن أي باب يقربه من رضا ربـــه والتعرض لرحمته؛ ليندفع إليه مرددًا بلسان حاله: وعجلت إليك رب لترضى.

ولقـــد قرر القرآن هذه الحقيقـــة في قوله تعـــالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ [المؤمنون: ٥٧-٦١].

فالآيات تُعطي دلالات واضحة على أن أصحاب القلوب المؤمنة الخاشعة لربها هم أكثر الناس مسارعة للخيرات وأسبقهم إليها.

وإليك -أخي القارئ- بعض الأمثلة من حياة الصحابة -رضوان الله عليهم- والتي تؤكد هذا المعنى:

■ خرج جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ذات ســـنة إلى بلاد الروم غازيًا في سبيل الله، وكان الجيـــش بقيادة مالك بن عبد الله الخثعمي، وكان مالك يطوف على جنوده وهم منطلقون ليقف على أحوالهم، ويشُـــد من أزرهم، ويُولِي كبارهم ما يســـتحقونه من عنايـــة ورعاية، فمر بجابر بن عبد الله، فوجده ماشـــيًا ومعه بَغل له يمســـك بزمامه ويقـــوده، فقال له: ما بك يا أبا عبـــد الله، لم لا تركب، وقد يسَّر الله لك ظهرًا يحملك

عليه؟! فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مَنِ اغْبَرَّتْ قَدَمَاهُ فِي سَبِيلِ اللهِ حَرَّمَهُ اللهُ عَلَى النَّارِ**»(١).

فتركه مالك ومضى حتى غدَا في مقدمة الجيش، ثم التفت إليه، وناداه بأعلى صوته، وقال: يا أبا عبد الله، ما لك لا تركب بغلك، وهي في حوزتك؟! فعرف جابر قصده، وأجابه بصوت عالٍ وقال: لقد سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**مَنِ اغْبَرَّتْ قَدَمَاهُ فِي سَبِيلِ اللهِ حَرَّمَهُ اللهُ عَلَى النَّارِ**»، فتواثب الناس عن دوابهم وكلٌّ منهم يريد أن يفوز بهذا الأجر، فما رُئِي جيش أكثر مشاة من ذلك الجيش(٢).

■ وروى النسائي عن أبي سعيد بن المُعَلَّى أنه قال: كنا نغدو إلى المسجد على عهد رسول الله ﷺ فمررنا يومًا ورسول الله ﷺ قاعد على المنبر، فقلت: لقد حدث أمر، فقرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿ **قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ** ﴾ [البقرة: ١٤٤]، حتى فرغ من الآية، فقلت لصاحبي: تعال نركع ركعتين قبل أن ينزل رسول الله ﷺ، فنكون أول من صلى (في اتجاه الكعبة)، فتوارينا فصليناهما، ثم نزل رسول الله ﷺ وصلى بالناس الظهر يومئذٍ(٣).

---

(١) البخاري (برقم: ٢٨١١) في الجهاد باب: من اغبرت قدماه في سبيل الله (برقم: ٩٠٧) في الجمعة، باب: المشي إلى الجمعة.

(٢) أصل الحديث «**من اغبرت قدماه....**» رواه البخاري (٢/ ٧ برقم: ٩٠٧) عن أبي عبس عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أما روايته عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بهذا السياق، فعند عبد الله بن المبارك في كتاب «الجهاد» (ص:٤٤ برقم: ٣٢)، وابن حبان في صحيحه (١٠/ ٤٦٣ برقم: ٤٦٠٤)، ورواه أبو داود الطيالسي في المسند (٣/ ٣٢٤ برقم: ١٨٨١)، وأحمد بن حنبل في المسند (٢٣/ ٢٠٥ برقم: ١٤٩٤٧) عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا باختصار.

(٣) رواه النسائي في السنن الكبرى (١٠/ ١٧ برقم: ١٠٩٣٧)، بهذا السياق، ورواه مختصرًا في السنن الصغرى (٢/ ٥٥ برقم: ٧٣٢)، ورواه الطبراني في الكبير (٢٢/ ٣٠٣)، الإثيوبي في =

التنافس في الخير

صاحب الإيمان الحي لا يُريد أن يسبقه أحد إلى الوصول للراية العُظمى.. راية رضا الله والتعرض لرحمته ومغفرته ودخول جنته؛ لذلك تراه حزينًا حين تتحين أمامه فرصة للاقتراب من تلك الراية ولا يستطيع اغتنامها لأسباب خارجة عن إرادته كالمرض أو الفقر، ولنا في قصة البَكَّائين خير مثال على ذلك:

فعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: أمر رسول الله ﷺ الناس أن ينبعثوا غازين (غزوة تبوك)، فجاءت عصابة من أصحابه فيهم عبد الله بن معقل المزني، فقالوا: يا رسول الله احملنا. فقال: «**واللهِ مَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ**»، فتولَّوا ولهم بكاء، وعَزَّ عليهم أن يُحبَسوا عن الجهاد، ولا يجدون نفقة ولا محملًا. فأنزل الله عذرهم: ﴿**وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾**﴾ [التوبة: ٩٢][(١)].

وفي الصحيحين أن فقراء المهاجرين أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: ذهب أهل الدُّثور (الأموال الكثيرة) بالدرجات العُلى والنعيم المقيم، فقال ﷺ: «**وَمَا ذَاكَ؟**»، فقالوا: يُصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون ولا نتصدق، ويعتقون ولا نعتق، فقال رسول الله ﷺ: «**أَفَلَا أُعَلِّمُكُمْ شَيْئًا تُدْرِكُونَ بِهِ مَنْ سَبَقَكُمْ، وَتَسْبِقُونَ بِهِ مَنْ بَعْدَكُمْ، وَلَا يَكُونُ أَحَدٌ أَفْضَلَ مِنْكُمْ، إِلَّا مَنْ صَنَعَ مِثْلَ مَا صَنَعْتُمْ؟**»، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «**تُسَبِّحُونَ، وَتَحْمَدُونَ، وَتُكَبِّرُونَ، دُبُرَ كُلِّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ مَرَّةً**»، فرجع فقراء المهاجرين إلى رسول الله ﷺ فقالوا: سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا، ففعلوا مثله.

= ذخيرة العقبى شرح المجتبى (١١/ ٥٦٠).

(١) رواه ابن جرير الطبري في التفسير (١١/ ٦٢٣) - طبعة هجر.

فقال رسول الله ﷺ: «**ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ**»(١).

شدة الحرص على دعوة الخلق إلى الله

كلما ازداد الإيمان وشعر المرء بحلاوته ازدادت رغبته في دعوة الناس جميعًا إلى الله، وإلى التحرر من ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، وكيف لا وهو يرى الكثيرين ممن حوله يعانون من آثار القيود والسجون المعنوية المحبوسين فيها، والتي كانت تحيط به قبل ذلك، فمَنَّ الله عَزَّوَجَلَّ عليه وحرره منها؛ لذلك فهو لا يهدأ ولا يقر حتى يُبلِّغ الدعوة إليهم ما وسعه الجهد والوقت والمال.

ويدفعه لأداء هذا الواجب كذلك علمه بأن الدعوة إلى الله من أحب الأعمال إليه سبحانه..

.. من هنا نُدرك كيف اشتد حرص الصحابة على دعوة الخلق إلى الله.

فهذا أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بعد إسلامه يُسارع بالدعوة إلى الله من وَثق به من قومه، فأسلم على يديه: الزبير بن العوام، وعثمان بن عفان، وطلحة بن عُبيد الله، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ (٢).

وذكر ابن إسحاق أن رسول الله ﷺ لـمَّا انصرف عن ثقيف اتَّبع أثره عروة بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حتى أدركه قبل أن يصل إلى المدينة، فأسلم وسأله أن يرجع إلى قومه بالإسلام، فقال له رسول الله ﷺ: «**إِنَّهُمْ قَاتِلُوكَ**»، وعرف رسول الله ﷺ أن فيهم نخوة الامتناع للذي كان منهم، فقال عروة: يا رسول الله، أنا أَحَب إليهم من أبكارهم، وكان فيهم كذلك مُحببًا مطاعًا.

(١) متفق عليه، رواه البخاري (١/ ١٦٨ برقم: ٨٤٣)، ومسلم (١/ ٤١٦ برقم: ٥٩٥) واللفظ له.
(٢) سيرة ابن هشام (١/ ٢٥٠) - تحقيق السقا وزميليه. ورواه الطبري في تاريخه (٣/ ٩٦).

فخرج يدعو قومه إلى الإسلام رجاء أن لا يخالفوه بمنزلته فيهم، فلما أشرف على عُلَّية (مكان مرتفع) -وقد دعاهم إلى الإســـلام وأظهر لهم دينه- رموه بالنبل من كل وجه، فأصابه سهم فقتله، فقيل لعروة: ما ترى في دمك؟ قال: كرامة أكرمني الله بها، وشهادة ساقها الله إليَّ[1].

• • •

(١) سيرة ابن هشام: (٢/ ٥٣٨).

ثانيًا: تقوية الوازع الداخلي

كلما قوِي الإيمان، ازدادت حساسية الفرد تجاه الوقوع أو مجرد الاقتراب من الشبهات والمحظورات، والعكس صحيح، فكلما ضَعُف الإيمان نقصت تلك الحساسية.. يقول عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مَرَّ على أنفه، فقال به هكذا[1] (أي: نحَّاه بيده أو دفعه).

معنى ذلك أن درجة إيمان الفرد يعكسها شعوره وحساسيته تجاه الذنوب، وفي أي الاتجاهين تكون.

.. هل تقترب من حال من يقعد تحت صخور جبل مهدد بالانهيار في أي لحظة، أم من حال من تمر ذبابة على أنفه؟

من هنا نقول بأن الإيمان الحي هو الذي يضبط سلوك الإنسان، (ويترك مع كل نفس رقيبًا لا يغفل، وحارسًا لا يسهو، وشاهدًا لا يُجامل ولا يحابي، ولا يضل ولا ينسى... يصاحبها في الغدوة والروحة، والمجتمع والخلوة، ويرقُبها في كل زمان، ويلحظها في كل مكان، ويدفعها إلى الخيرات دفعًا، ويدعُّها عن المآثم دعًّا، ويجنبها طريق الزلل، ويبصرها سبيل الخير والشر)[2].

.. في يوم من الأيام ذكر النبي ﷺ أنواع الخيل وأنها لرجل أجر، ولرجل ستر، وعلى رجل وزر... فسئل عن الحُمُر؟ قال: **ما أنزل الله عليَّ فيها إلا هذه الآية الجامعة**

(١) رواه البخاري (٨/ ٦٧ برقم: ٦٣٠٨) ط: السلطانية.

(٢) مجموع الرسائل.

الفـاذة: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨ ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨][(١)].

فعندما يزداد الإيمان بأن هناك حسـابًا على اليسـير من العمل -ولو كان مثقال ذرة- كما تُشـير الآيات؛ فإن ذلك من شـأنه أن يدفع المرء للتحرك بحساسية وحذر شديدين تجاه التعامل مع جميع الأشياء.

.. نعم، هذا هو أهم قانون لضبط السـلوك، ومهـما وُضِعت القوانين الصارمة في المجتمعات لضبط سـلوك الأفراد فلـن تؤتي ثمارها إلا إذا بُدئ بإصلاح الإيمان في القلوب لتكون من ثمرته: تقوية الوازع الداخلي.

وصدق من قال:

لا تنتهي الأنفس عن غيِّها ما لم يكن لها من نفسها دافع

الحارس الأمين

يقول أبو الأعلى المودودي: إن الإيمان يزرع في داخل الإنسان حارسًا من الشرطة يدفعـه إلى العمل ويحثه على الائتمار بأوامر الله عَزَّوَجَلَّ.. هذا الوازع النفسي، والحارس الداخلي هو الذي يشـد عضد قانون الإسلام الخلقي والسـلوكي ويجعله نافذًا بين الناس في حقيقة الأمـر.. هذا الإيمان هو الذي يضمن هداية الفرد المسـلم، والأمة المسلمة إلى سواء الطريق إذا ما كان قد تمكن من القلب.

(١) البخاري (٦/ ١٧٥ برقم:٤٩٦٢، ٩/ ١٠٩ برقم: ٧٣٥٦)، مسلم (٢/ ٦٨٢ برقم: ٩٨٧) ط: دار إحياء التراث.

.. جاء رجل فقعد بين يدي النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله إن لي مملوكين يَكذِبونني، ويخونونني، ويعصونني، وأشتمهم وأضربهم، فكيف أنا فيهم؟! فقال رسول الله ﷺ: «**إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ يُحْسَبُ مَا خَانُوكَ وَعَصَوْكَ وَكَذَّبُوكَ، وَعِقَابُكَ إِيَّاهُمْ، فَإِنْ كَانَ عِقَابُكَ إِيَّاهُمْ بِقَدْرِ ذُنُوبِهِمْ كَانَ كَفَافًا، لَا لَكَ وَلَا عَلَيْكَ، وَإِنْ كَانَ عِقَابُكَ إِيَّاهُمْ دُونَ ذُنُوبِهِمْ كَانَ فَضْلًا لَكَ، وَإِنْ كَانَ عِقَابُكَ إِيَّاهُمْ فَوْقَ ذُنُوبِهِمْ.. اقْتُصَّ لَهُمْ مِنْكَ الْفَضْلُ**»، فتنحى الرجل، وجعل يهتف ويبكي، فقال رسول الله ﷺ: أما تقرأ قوله تعالى: ﴿ **وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾** ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

فقال الرجل: يا رسول الله ما أجد لي ولهؤلاء شيئًا خيرًا من مفارقتهم، أشهدك أنهم كلهم أحرار[(١)].

شدة الورع

عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: كان لأبي بكر غلام يُخرج له الخراج، وكان أبو بكر يُخرج من خراجه، فجاء يومًا بشيء ووافق من أبي بكر جوعًا، فأكل منه لقمة قبل أن يسأل عنه، فقال له الغلام: تدري ما هذا؟ فقال أبو بكر: وما هو؟ قال: كنت تكهنت لإنسان في الجاهلية وما أُحسن الكهانة ولكني خدعته، فلقيني فأعطاني بذلك، فهذا الذي أكلت منه.. فماذا فعل أبو بكر عندئذٍ؟! فعل فعلًا عجيبًا.. أدخل أصبعه في فمه فقاء كل شيء في بطنه[(٢)].

(١) رواه أحمد (٤٣/ ٤٠٦ برقم: ٢٦٤٠١)، ورواه الترمذي (٥/ ٣٢٠ برقم: ٣١٦٥) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا والبيهقي في شعب الإيمان (١١/ ٨٧).

(٢) أخرجه البخاري (٥/ ٤٣ برقم: ٣٨٤٢).

وروى ابن جرير الطـبري في تاريخه، قال: لما هبط المسـلمون المدائن، وجمعوا الأقبـاض (الغنائم) أقبل رجل بحـق (شيء من الغنيمة) معـه فدفعه إلى صاحب الأقباض، فقال هو والذين معه: ما رأينا مثل هذا قط، ما يعدله ما عندنا، ولا يقاربه، فقالوا: هل أخذت منه شيئًا؟ فقال: أما والله لولا الله ما أتيتكم به، فعرفوا أن للرجل شـأنًا، فقالوا: من أنت؟ فقال: لا والله لا أخبركـم لتحمدوني ولا غيركم ليقرظوني (أي ليثنوا عليَّ) ولكني أحمد الله وأرضى بثوابه، فأتبعوه رجلًا حتى انتهى إلى أصحابه فسأل عنه فإذا هو عامر بن عبد قيس[١].

ولقد كان الـورع مما يتواصى به الصحابة رضـوان الله عليهم فيما بينهم.. فعن عـروة بن الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: جعل أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يوصي خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ويقول:

... فـإذا دخلت بلادهم فالحذر الحذر إذا لقيت القوم فقاتلهم بالسـلاح الذي يقاتلونك به، السهم للسهم، والرمح للرمح، والسيف للسيف، فإن أعطاك الله الظفر عليهم، فأقل البقيا عليهم إن شاء الله تعالى، وإياك أن تلقاني غدًا بما يضيق صدري به منك، اسـمع عهدي ووصيتي، لا تغيرن على دار سمعت فيها أذانًا حتى تعلم ما هم عليه، وإيـاك وقتل من صلى، واعلم يا خالد أن الله يعلـم من سريرتك ما يعلم من علانيتـك، واعلم أن رعيتك إنما تعمل بما تراك تعمل، كف عليك أطرافك، وتعاهد جيشـك، وانههم عما لا يصلح لهم، فإنما تقاتلون من تقاتلون بأعمالكم، وبهذا نرجو لكم النصر على أعدائكم، سر على بركة الله تعالى[٢].

(١) تاريخ الطبري (٤/ ١٦).

(٢) كتاب الغزوات لابن حبيش (ص: ٤٤-٤٦) ت أحمد غنيم.

■ وكتب عمر إلى سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: إنه قد أُلقي في روعي أنكم إذا لقيتم العدو وهزمتموهم، فاطرحوا الشك، وآثروا عليه اليقين، فمن لاحن منكم أحدًا من العجم بأمان بإشارة أو بلسان ولا يدري الأعجمي ما كلمتموه به، وكان عندهم أمانًا، فأجروا ذلك مجرى الأمان، وآثروا اليقين والنية على الشك، وإياكم والمحك، وعليكم بالوفاء، فإن الخطأ مع الوفاء له بقية، والخطأ بالغدر هلكة، وفيها وهنُكم وقوة عدوكم وذهاب ريحكم وإقبال ريحهم، وإياكم أن تكونوا شينًا على المسلمين، وسببًا لتوهينهم(١).

■ ويُحدِّث عاصم بن كليب عن أبيه أنه كان في إحدى المعارك، فقال: كان عليّ قميص قد تخرق، فأخذت إبرة وسلكًا، فجعلت أخيط قميصي بها، ثم إني نظرت إلى رجل من القتلى عليه قميص فنزعته، فأتيت به الماء، فجعلت أضربه بين حجرين حتى ذهب ما فيه، فلبسته، فلما جمعت الرثة، قام مجاشع خطيبًا، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس لا تغلُّوا، فإنه من غلَّ جاء بما غل يوم القيامة، ردوا ولو المخيط، **فلما سمعت ذلك نزعت القميص فألقيته في الأخماس**(٢).

• • •

(١) الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء (٢/ ٤٤٩).

(٢) تاريخ الطبري (٤/ ١٧٥). الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء (٢/ ٥٩١).

ومن ثمار الإيمان

ثالثًا: الزهد في الدنيا

مـــن تعريفات الزهد: «انـــصراف الرغبة في الشيء مع وجـــوده»، ومثال ذلك: الطفل الذي يسعد ســـعادة غامرة حين يلعب بالدُّمَى، ويحرص على اقتنائها، ويحلم بشراء الجديد منها، ولكن عندما يكبر هذا الطفل بضع ســـنين تجد حرصه وشـــغفه وفرحه بهـــذه اللعب يقل ويقل، إلى أن يزول وتنصرف رغبته عنها فيصير زاهدًا فيها ولا يُبالي بوجودها إذا ما وُجدت، ولا يحزن على ضياعها إذا ما فُقدت.

> **وحـــال الناس مع الدنيـــا –بدون الإيمان– كحال الأطفـــال مع لِعَبهم، ولكي يزهدوا فيها لا بد من نمو الإيمان في قلوبهم.**

فعندما يقوى الإيمان في القلب يقل تعلق صاحبه بالدنيا، ورغبته فيها، وحرصه عليها.

.. نعم، هو لن يتركها ببدنه بل يتركها بقلبه، فالزهد حالة شُـــعورية يعيشها المرء كانعكاس لارتقاء الإيمان الحقيقي في قلبه، وهو لا يستلزم الفقر، ولا يتنافى مع الغنى.

.. الزاهد في الدنيا لا ينشغل بها كثيرًا إذا ما وُجدت بين يديه، فعلى سبيل المثال: قـــد يتوفر لديه العديد من الملابس، فإذا ما أراد الخروج من منزله فإنه لا يقف أمامها طويلًا إنما يرتدي ما امتدت إليه يده، وهو حين يفعل ذلك يفعله بتلقائية تعكس حالة قلبه الإيمانية.

وكلما قـــوي الإيمان أكثر وأكثر ازداد تعلق صاحبه بالآخرة ورغبته فيها، وازداد زهده في الدنيا بصورة أشد وأشد؛ لدرجة أنه لا يترك لنفسه إلا أقل القليل منها وبما يُحقق

له ضروريات الحياة، وليس هذا بسبب معارضته لمبدأ التمتع بمُباحات الدنيا، ولكن لأن إيمانه يأبى عليه ذلك ويدفعه لاستثمار كل ما يأتيه في حياته لداره الآخرة، متمثلًا قول الله تعالى: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ﴾ [القصص: ٧٧]؛ لذلك فهو يحتاج دومًا إلى من يذكره بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ [القصص: ٧٧].

وكيف لا، وإيمانه يأبى عليه أن يتوسع في هذا النصيب؟!

هكذا كانوا

بهذه المستويات الإيمانية تعامل الصحابة -رضوان الله عليهم- مع الدنيا، فكانت منهم أحوال عجيبة يستغرب منها أمثالي من ضعاف الإيمان الذين لا يزالون في مرحلة الطفولة واللهو بطين الأرض.

.. فهذا أبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نزلت به جماعة من الأضياف في ليلة شديدة البرد فأرسل إليهم طعامًا ساخنًا، ولم يبعث إليهم بالأغطية، فلما هموا بالنوم جعلوا يتشاورون في أمر اللُّحف، فقال واحد منهم: أنا أذهب إليه وأكلمه، فمضى حتى وقف على باب حجرته فرآه قد اضطجع وما عليه إلا ثوب خفيف لا يقي من حر ولا يَصُون من برد، فقال الرجل لأبي الدرداء: ما أراك بت إلا كما نبيت نحن! أين متاعكم؟!

> **فقال: لنا دار هناك نُرسل إليها تباعًا كل ما نحصل عليه من متاع، ولو كنا قد استبقينا في هذه الدار شيئًا منه لبعثنا به إليكم، ثم إن في طريقنا الذي سنسلكه إلى تلك الدار عقبة كؤودًا المُخِفّ فيها خير من المُثقِل، فأردنا أن نتخفف من أثقالنا علَّنا نجتاز**[1].

(١) نقلًا عن صور من حياة الصحابة (ص: ٢٠٨) - عبد الرحمن رأفت الباشا - دار النفائس. والأثر رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (١/ ٢٢٢).

وكان طلحة بن عبيد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تاجرًا، فجاءه ذات يوم مال من «حضرموت» مقداره سبعمائة ألف درهم، فبات ليلته جزعًا محزونًا.

فدخلتْ عليه زوجتــه أم كلثوم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وقالت: ما بك يــا أبا محمد؟!! لعله رابك منَّا شيء!!

فقال: لا، ولنِعْمَ حليلة الرجل المسلم أنت، ولكن تفكرت منذ الليلة وقلت: ما ظن رجل بربه إذا كان ينام وفي بيته هذا المال؟! قالت: وما يغمك منه؟! أين أنت من المحتاجــين من قومك وأخلَّائك؟! فإذا أصبحت فقســمه بينهم، فقال: رحمك الله، إنك موفقة بنت موفــق، فلما أصبح جعل المال في صُرَرٍ وجِفَان، وقســمه بين فقراء المهاجرين والأنصار(١).

.. وفي يوم من الأيام دخل على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعض ممن يثق بهم من أهل «حِمص»، فقال لهم: اكتبوا لي أسماء فقرائكم حتى أسُدّ حاجاتهم، فرفعوا إليه كتابًا فإذا فيه فلان وفلان، وسعيد بن عامر، فقال: ومن سعيد بن عامر؟! فقالوا: أميرنا. قال: أميركــم فقير؟! قالوا: نعم، ووالله إنه لتمر عليه الأيام الطوال ولا يوقد في بيتــه نار، فبكى عمر حتى بللت دموعه لحيته، ثــم عمد إلى ألف دينار فجعلها في صُرَّة وقال: اقرؤوا عليه الســلام مني، وقولوا له: بعث إليك أمير المؤمنين بهذا المال لتستعين به على قضاء حاجاتك.

جاء الوفد لسعيد بالصُّرة فنظر إليها فإذا هي دنانير، فجعل يُبعدها عنه ويقول: «إنا لله وإنا إليه راجعون»، فهبَّت زوجته مذعورة وقالت: ما شأنك يا سعيد؟! أمات أمير المؤمنين؟! قال: بل أعظم من ذلك. قالت: أأُصيب المســلمون في واقعة؟! قال:

(١) صور من حياة الصحابة (ص: ٤٧٧)، والأثر رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (١/ ٨٨).

بـــل أعظم من ذلك، قالت: ومـــا أعظم من ذلك؟! قال: دخَلتْ عليَّ الدنيا لتُفســـد آخرتي، ودخَلتْ الفتنـــة في بيتي. فقالت: تخلَّص منها، قـــال: أو تُعِينيني على ذلك؟ قالت: نعم. فأخذ الدنانير فجعلها في صُرَرٍ ثم وزعها[١].

.. وهـــذا خباب بن الأرت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يدخل عليـــه بعض أصحابه وهو في مرض المـــوت فيقول لهم: إن في هذا المكان ثمانين ألف درهم، والله ما شـــدَدْتُ عليها رباطًا قط، ولا منعت منها سائلًا قط، ثم بكى، فقالوا: ما يبكيك؟! فقال أبكي لأن أصحابي مضـــوا ولم ينالوا من أجورهم في هذه الدنيا شـــيئًا، وإني بقيت فنلت من هذا المال ما أخاف أن يكون ثوابًا لتلك الأعمال[٢].

.. وهذا ســـعد بن أبي وقاص يذهب إلى ســـلمان الفـــارسي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يعوده فرآه يبكي، فقال له سعد: ما يبكيك يا أخي؟ أليس قد صحبت رسول الله ﷺ ؟ أليس...؟ قال سلمان: ما أبكي واحدة من اثنتين، ما أبكي ضَنًّا على الدنيا، ولا كراهية في الآخرة، ولكن رســـول الله ﷺ عهد إلينا عهدًا ما أراني إلا قد تعدَّيت، قال: وما عَهِد إليك؟ قال: عَهِـــدَ إِلَيْنَا أَنَّهُ يَكْفِـــي أَحَدَكُمْ مِنَ الدُّنْيَـــا مِثْلُ زَادِ الرَّاكِـــبِ، ولا أراني إلا قد تعدَّيت..[٣]، فجُمع مال سلمان فكان قيمته خمسة عشر درهمًا[٤].

---

(١) صور من حياة الصحابة (ص: ١٢)، والأثر رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (١/ ٢٤٤).

(٢) صور من حياة الصحابة (ص: ٤١٨)، والأثر رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (١/ ١٤٦).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في المسند (١/ ٣٠٦ برقم: ٤٦٠)، وابن ماجه (٥/ ٢٢٤ برقم: ٤١٠٤) وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٤/ ٧٩) رواه ابن ماجه ورواته ثقات احتج بهم الشيخان إلا جعفر بن سليمان فاحتج به مسلم وحده.

(٤) أخرجه ابن حبان (٢/ ٤٨١، برقم: ٧٠٦)، والمعجم الكبير (٦/ ٢٦٨ برقم: ٦١٨٢).

وفي فتح إيلياء قدم عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على جند المسلمين في الشام ليعقد الصلح مع أهلها، ولم يبقَ أمير من أمراء الأجناد إلا استزار عمر، فيصنع له ويسأله أن يزوره في رحله، فيفعل ذلك عمر، إكرامًا لهم، غير أبي عبيدة، فإنه لم يستزره.

فقال له عمر: إنه لم يبقَ أمير من أمراء الأجناد إلا استزارني غيرك. فقال أبو عبيدة: يا أمير المؤمنين، إني أخاف إن استزرتك أن تعصر عينيك.

فأتاه عمر في بيته، فإذا ليس في بيته إلا لبد فرسه، وإذا هو فراشه وسرجه وإذا هو وسادته، وإذا كسر يابسة في كوة بيته، فجاء بها، فوضعها على الأرض بين يديه، وأتى بملح جريش، وكوز خزف فيه ماء. فلما نظر عمر إلى ذلك بكى، ثم التزمه وقال: أنت أخي، وما من أحد من أصحابي إلا وقد نال من الدنيا ونالت منه، غيرك.

فقال له أبو عبيدة: ألم أخبرك أنك ستعصر في بيتي عينيك![1].

الزهد في الإمارة

كان أبو بكر الصديق قد ولى خالدًا بن سعيد إمارة الجيش المتوجه لفتح بلاد الشام.. وقد راجع عمر بن الخطاب فيه أبو بكر الصديق.. وكان أبو بكر لا يخالف عمر ولا يعصيه، فدعا يزيد بن أبي سفيان، وأبا عبيدة بن الجراح، وشرحبيل بن حسنة رضي الله عنهم أجمعين، فقال لهم: إني باعثكم في هذا الوجه، ومؤمركم على هذا الجند، وأنا باعث على كل رجل من الرجال ما قدرت عليه، فخرج القوم يتجهزون، وبلغ ذلك خالد بن سعيد، فتيسر وتهيأ بأحسن هيئة، ثم أقبل نحو أبي بكر وعنده

(١) الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء (٢/ ٣٠٦).

المهاجرون والأنصار أجمع ما كانوا، وقد تيسر الناس، وأمروا بالعسكرة مع هؤلاء النفر الثلاثة، فسلم على أبي بكر وعلى المسلمين، ثم جلس، فقال لأبي بكر: أما إنك كنت وليتني أمر الناس، وأنت لي غير متهم، ورأيك فيَّ حسن حتى خُوِّفت مني أمرًا، والله لأن أخر من رأس حالق[١] أو تخطفني الطير في الهواء بين الأرض والسماء أحب إليَّ من أن يكون ما ظُن، والله ما أنا في الإمارة براغب، ولا على البقاء في الدنيا بحريص، وإني أشهدكم أني وإخوتي وفتياني ومن أطاعني من أهلي جيش في سبيل الله نقاتل المشركين أبدًا حتى يهلكهم الله أو نموت، لا نريد به حمد الناس ولا جزاءهم[٢].

.. وهذا خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما خرج من عين التمر[٣] مقبلاً إلى الشام كتب إلى المسلمين مع عمرو بن الطفيل بن عمرو الأزدي -وهو ابن ذي النور:

أما بعد، فإن كتاب خليفة رسول الله أتاني فأمرني بالمسير إليكم، وقد شمرت وانكمشت، وكأن قد أظلت عليكم خيلي ورجالي، فأبشروا بإنجاز موعود الله وحسن ثواب الله.. عصمنا الله وإياكم باليقين وأثابنا أحسن ثواب المجاهدين، والسلام عليكم.

وكتب معه إلى أبي عبيدة:

أما بعد، فإني أسأل الله تعالى لنا ولك الأمن يوم الخوف والعصمة في دار الدنيا من كل سوء، وقد أتاني كتاب خليفة رسول الله ﷺ، يأمرني بالمسير إلى الشام،

(١) الحالق أي الجبل العالي. انظر لسان العرب (ج١٠ ص: ٥٩).

(٢) الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء (٢/ ١٧١)، تاريخ الطبري (٣/ ٣٨٨).

(٣) بلدة قريبة من الأنبار غربي الكوفة. معجم البلدان (ج٤ ص: ١٧٦).

وبالقيـــام على جندها، والتولي لأمرها، **والله ما طلبت ذلـــك قط، ولا أردته إذ وليته، فأنـــت على حالتك التي كنت لا نعصيك ولا نخالفـــك ولا نقطع أمرًا دونك**، فإنك سيد المسلمين، لا ننكر فضلك، ولا نستغني عن رأيك، تمم الله ما بنا وبك من إحسان، ورحمنا وإياك من صلى النار، والسلام عليك ورحمة الله[1].

• • •

(١) هذه الرسالة والتي قبلها مختصرتان وبقيتهما في الأزدي (ص: ٦١-٦٢).

ومن ثمار الإيمان

رابعًا: التأييد الإلهي

الله عَزَّوَجَلَّ هو مالك الكون وربه ومدبر أمره: ﴿ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ [البقرة: ٢٨٤].

لا يوجد له شريك في ملكه، يفعل ما يشاء.. يُقدِّم ويُؤخِّر، يقبض ويبسط، يخفض ويرفع، يُعز ويُذل: ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ [فاطر: ٢].

وإن كان البشر كلهم أمام الله سواء فلا أفضلية لجنس أو قبيلة أو لون، إلا أنه سبحانه يزيد من إكرامه وعنايته ورعايته للمؤمنين الذين يُحبُّونه ويُؤثرونه على هواهم: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الجاثية: ٢١].

فالكرامة على قدر الاستقامة:

﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ ﴾ [الحجرات: ١٣].

﴿ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ ﴾ [الجن: ١٦].

وكلما ارتقى العبد في سلم الإيمان ازدادت ولاية الله له: ﴿ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٦].

وفي الحديث القدسي: «**وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَلَئِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ**

شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ قَبْضِ نَفْسِ الْـمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْـمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ»[١].

هذه الولاية والكفاية تشمل الفرد المؤمن، وتشمل المجتمع المؤمن.

.. فعلى مستوى الفرد

يتولى الله عَزَّوَجَلَّ أمور عبده المؤمن بما يُحقق له مصلحته الحقيقية ويجلب له السعادة في الداريـــن، وفي بعض الأحيان قد تكون من مظاهر تلك الولاية التضييق على العبد في أمـــور الدنيا، إلا أنها تحمل في طياتها خيرًا كثيرًا، وفي هذا المعنى يقول رســـول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ لَيَحْمِي عَبْدَهُ الْـــمُؤْمِنَ مِنَ الدُّنْيَا وَهُوَ يُحِبُّهُ، كَمَا تَحْمُونَ مَرِيضَكُمُ الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ تَخَافُونَ عَلَيْهِ**»[٢].

الأمة والإيمان

أما في محيط الأمة، فلا يكفي إيمان بعض الأفراد –هنا وهناك– لكي تتحقق بهم الولاية والنصرة للأمة، فالأمة كالجســـد الواحد، لا يكـــون صحيحًا إلا إذا صحَّت جميع أعضائه. بمعنى أن وجود أفراد صالحين في ذواتهم لا يكفي لاســـتجلاب المعية والنُّصرة الإلهية، بل لا بد وأن يقومـــوا بالعمل على إصلاح غيرهم –بإذن الله– وأن يبذلوا غاية جهدهم في ذلك من خلال العمل على تقوية الإيمان في قلوبهم، وتصحيح التصورات والمفاهيم الخاطئة في عقولهم، ودفعهم إلى طريق التواضع ونكران الذات، وتعويدهم على بذل الجهد في سبيل الله.

وعندما تشيع معاني الصلاح في الأمة؛ وعندما يتغير العُرف العام للأمة، وتشيع

(١) البخاري (٨/ ١٠٥ برقم: ٦٥٠٢).

(٢) مسند أحمد (٣٩/ ٣٣ برقم: ٢٣٦٢٢)، والحاكم (٤/ ٢٣١ برقم: ٧٤٦٥) وصححه ووافقه الذهبي.

فيها معاني الصلاح، ويرتفع منسوب الإيمان في القلوب بنسبة مقبولة تتيح للمسلم اتخاذ قرارات التضحية ببعض شهواته ومصالحه من أجل نصرة دينه.. عندئذٍ يتحقق موعود الله بنصر الأمة -بإذنه سبحانه- مصداقًا لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد:١١].

وتاريخ الأمة خير شاهد على أنه عندما يغلب الإيمان والصلاح على جيل من أجيال الأمة، فإن النصر يكون حليفهم، والتأييد الإلهي لا يتجاوزهم.. انظر -إن شئت- إلى آيات القرآن وهي تُقرر وتُؤكد على هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ١٢٠]، وقوله: ﴿بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [آل عمران: ١٢٥].

فالآية تؤكد أن الملائكة ستنزل سريعًا لتؤيد المؤمنين، وتقاتل معهم فور تحققهم بالصبر والتقوى، وفي المقابل؛ فعندما يغيب الإيمان ينقطع التأييد الإلهي، ويُترك المسلمون لأعدائهم ليسوموهم سوء العذاب.

الوعد الحق

لقد وعد الله عَزَّوَجَلَّ عباده المؤمنين بالغلبة والنصر: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾﴾ [النساء: ١٤١].

متى يتحقق هذا الوعد القاطع؟

يُجيب صاحب الظلال عن هذا السؤال في تفسيره لهذه الآية فيقول: إنه وعد من الله قاطع، وحُكم من الله جامع: أنه متى استقرت حقيقة الإيمان في نفوس المؤمنين،

وتمثَّلت في واقع حياتهـــم منهجًا للحياة، ونظامًا للحكم، وتجـــردًا لله في كل خاطرة وحركـــة، وعبادة لله في الصغـــيرة والكبيرة.. فلن يجعـــل الله للكافرين على المؤمنين سبيلًا.

وهذه حقيقة لا يحفظ التاريخ الإسلامي كله واقعة واحدة تُخالفها، **وأنا أُقرر في ثقة بوعد الله لا يُخالجها شك، أن الهزيمة لا تلحق بالمؤمنين، ولم تلحق بهم في تاريخهم كله، إلا وهناك ثغرة في حقيقة الإيمان: إما في الشـــعور، وإما في العمل** -ومن الإيمان أَخـــذُ العدة، وإعداد القـــوة في كل حين بنية الجهاد في ســـبيل الله، وتحت هذه الراية وحدها مجردة من كل إضافة ومن كل شائبة- وبقدر هذه الثغرة تكون الهزيمة الوقتية، ثم يعود النصر للمؤمنين حين يوجدون.

ففي «أُحد» مثلًا، كانت الثغرة في ترك طاعة الرسول ﷺ، وفي الطمع في الغنيمة. وفي «حُنين»كانت الثغرة في الاعتزاز بالكثرة والإعجاب بها ونسيان السند الأصيل! ولو ذهبنا نتتبع كل مرة تخلف فيها النصر عن المســـلمين في تاريخهم لوجدنا شيئًا من هذا.. نعرفه أو لا نعرفه.. أما وعد الله فهو حق في كل حين.

> **.. نعـــم، إن المحنة قد تكون للابتلاء.. ولكن الابتلاء إنما يجيء لحكمة، هي اســـتكمال حقيقة الإيمان ومقتضياته من الأعـــمال -كما وقع في أُحُد وقصَّهُ الله على المسلمين- فمتى اكتملت تلك الحقيقة بالابتلاء والنجاح فيه، جاء النصر وتحقق وعد الله عن يقين.**

.. وحـــين يُقرر النص القـــرآني أن: ﴿ **وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا** ﴿١٤١﴾ ﴾ [النســـاء: ١٤١] إنما يدعو الجماعة المســـلمة لاســـتكمال حقيقة الإيمان في قلوبها تصورًا وشـــعورًا، وفي حياتها واقعًا وعملًا. وألا يكـــون اعتمادها كله على عنوانها.

فالنصر ليس للعنوانات. إنما هو للحقيقة التي وراءها.

وليس بيننا وبين النُّصرة في أي زمان وفي أي مكان، إلا أن نستكمل حقيقة الإيمان، ونستكمل مقتضيات هذه الحقيقة في حياتنا وواقعنا كذلك.. ومن حقيقة الإيمان أن نأخذ العدة ونستكمل القوة.

إن الإيمان صلة بالقوة الكبرى، التي لا تَضعُف ولا تفنى.. وإن الكفر انقطاع عن تلك القوة وانعزال عنها.. ولن تملك قوة محدودة مقطوعة منعزلة فانية أن تغلب قوة موصولة بمصدر القوة في هذا الكون جميعًا.

غير أنه يجب أن نُفرِّق دائمًا بين حقيقة الإيمان ومظهر الإيمان.. إن حقيقة الإيمان قوة حقيقية ثابتة ثبوت النواميس الكونية، ذات أثر في النفس وفيما يصدر عنها من الحركة والعمل. وهي حقيقة ضخمة هائلة كفيلة حين تُواجِه حقيقة الكفر المنعزلة المبتوتة المحدودة أن تقهرها[1].

نماذج للولاية والتأييد الإلهي

والنماذج العملية للتأييد الإلهي للمؤمنين كثيرة، سواء أكان ذلك على مستوى الفرد أم الجماعة المؤمنة.

فعلى مستوى الفرد

- أخرج ابن أبي الدنيا في كتاب «مُجابو الدعوة» عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: كان رجل من أصحاب رسول الله ﷺ يُكنى أبا معلَّق وكان تاجرًا يتَّجر بمالٍ له ولغيره، وكان له نُسك وورع، فخرج مرة، فلقيه لِص مُتَقَنِّع في السلاح، فقال:

(١) في ظلال القرآن: (٢/ ٧٨٢، ٧٨٣).

ضع متاعك فإني قاتلك، قال: شأنك بالـمال، قال: لستُ أُريد إلا دمك، قال: فذرني أُصلي، قال: صلِّ ما بدا لك، فتوضأ ثم صلَّى، فكان من دعائه:

يا ودود، يا ذا العرش المجيد، يا فعَّالًا لما يُريد، أســألك بعزتك التي لا تُرام[١]، وملكك الــذي لا يُضام[٢]، وبنورك الذي ملأ أركان عرشــك، أن تكفيني شر هذا اللص، يا مغيث أغثني. قالها ثلاثًا، فإذا هو بفارس، بيده حربة رافعها بين أذني فرسه، فطعن اللص فقتله، ثــم أقبل على التاجر، فقال: من أنت، فقد أغاثني الله بك؟ قال: إني ملَك من أهل السماء الرابعة، لما دعوتَ سُمعت لأبواب السماء قعقعة، ثم دعوتَ ثانيًا، فسُــمعت لأهل الســماء ضجَّة، ثم ثالثًا فقيل: دعاء مكروب، فســألت الله أن يُوليني قتله[٣].

- وأخرج الحاكم عن محمد بن المنكدر أن «سفينة» رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مولى رسول الله ﷺ قال: ركبــت البحر فانكسرت ســفينتي التي كنــت فيها، فركبت لوحًــا من ألواحها فطرحني اللوح في أَجَمَة[٤] فيها الأسد، فأقبل إليَّ يُريدني، فقلت: يا أبا الحارث، أنا سفينة مولى رسول الله ﷺ، فطأطأ رأسه، وأقبل إليَّ، فدفعني بمنكبه حتى أخرجني من الأجمة ووضعني على الطريق، وهمهــم، فظننت أنه يودعني، فكان ذلك آخر عهدي به[٥].

---

(١) لا تُرام: لا تُطلب.

(٢) لا يُضام: لا يُذَل.

(٣) مجابو الدعوة لابن أبي الدنيا (برقم: ٢٣).

(٤) أجمة: شجر كثير ملتف.

(٥) المستدرك على الصحيحين (٣/ ٧٠٢ برقم: ٦٥٥٠) وصححه، ووافقه الذهبي، حلية الأولياء (١/ ٣٦٩).

- ولما فتح عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مصر، أتى أهلها حين دخل بؤونة (من أشهُر القبط) فقالوا له: أيها الأمير، إن لنيلنا هذا سُنة لا يجري إلا بها، فقال لهم: وما ذاك؟ قالوا: إنه كان لثنتي عشرة ليلة تخلو من هذا الشهر عمدنا إلى جارية بِكر بين أبويها، فأرضينا أبويها، وجعلنا عليها شيئًا من الحُلي والثياب أفضل ما يكون، ثم ألقيناها في هذا النيل، فقال لهم عمرو: إن هذا لا يكون في الإسلام، فإن الإسلام يهدم ما قبله، فأقاموا أشهُر بؤونة وأبيب ومَسَرى لا يجري قليلًا ولا كثيرًا حتى همُّوا بالجلاء.

فلما رأى ذلك عمرو كتب إلى عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بذلك، فكتب إليه عمر: قد أصبت، إن الإسلام يهدم ما قبله، وقد بعثت إليك ببطاقة، فألقها في داخل النيل إذا أتاك كتابي، فلما قدِم الكتاب على عمرو فتح البطاقة فإذا فيها:

من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى نيل أهل مصر؛ أما بعد:

فإن كنت تجري من قِبَلِك فلا تجر، وإن كان الواحد القهار يُجريك، فنسأل الله الواحد القهار أن يُجريك.

فألقى عمرو البطاقة في النيل -وقد تهيأ أهل مصر للجلاء والخروج منها؛ لأنهم لا يقوم بمصلحتهم فيها إلا النيل- فأصبحوا وقد أجراه الله ست عشرة ذراعًا، وقطع تلك السُّنَّة السوء عن أهل مصر[1].

التأييد الإلهي للفئة المؤمنة

عندما ننظر إلى المعارك التي خاضها الجيل الأول مع أعداء الدين نجد أن الميزان

(١) أخرجه أبو الشيخ في العظمة (٤/ ١٤٢٤ برقم: ٩٣٧٣)، وابن عساكر (٤٤/ ٣٣٦)، انظر حياة الصحابة (٣/ ٤٠٨، ٤٠٩).

«المادي» يميل بقوة نحـــو أعدائهم من حيث العدد والعُـــدَّة، ومع ذلك كان النصر حليـــف المؤمنين، مع الأخـــذ في الاعتبار بأن الفئـــة المؤمنة لم تُقصر أبـــدًا في الأخذ بالأسباب المادية المتاحة أمامها، ولكن كانت تلك الأسباب -مهما بلغت- أقل بكثير مما عند أعدائهم.

ففي معركة بدر يتجـــلى التأييد الإلهي في صور متعددة ليتـــوج في النهاية بنصر عزيز:

﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ﴾ [الأنفال: ١١، ١٢].

وفي فتح المدائن سخر الله نهر دجلة ليعبُر عليه المسلمون بخيولهم... فبعد انتصار القادســـية العظيم -كما يقول ابن كثير في البداية والنهاية- دخل سعد بن أبي وقاص (نهر شـــير) ولكنه لم يجد فيها أحدًا ولا شـــيئًا مما يُغنم، بل قد تحول الفرس إلى المدائن وركبوا الســـفن، وضمُّوا السفن إليهم، ولم يجد سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ شيئًا من السفن (لعبور نهر دجلة)، وأُخبر ســـعد بأن كسرى يزدجرد عازم على أخـــذ الأموال والأمتعة من المدائن، وإنـــك إن لم تدركه قبل ثـــلاث فات عليك وتفارط الأمر. فخطب ســـعد المسلمين على شاطئ دجلة فحمد الله وأثنى عليه وقال: إن عدوكم قد اعتصم منكم بهـــذا البحر فلا تَخلُصـــون (تَصلُون) إليهم معـــه، وهم يخلُصون إليكم إذا شـــاؤوا فيناوشونكم في سفنهم، وإني قد عزمت على قطع هذا البحر إليهم، فقالوا جميعًا: عزم الله لنا ولك على الرشد فافعل، فندب سعد الناس إلى العبور.. وقد أمر سعد المسلمين

عند دخول الماء أن يقولوا: «**نستعين بالله ونتوكل عليه، حسبنا الله ونعم الوكيل، ولا حـــول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم**»، ثم اقتحم بفرســـه دجلـــة واقتحم الناس، ولم يتخلف عنه أحد، فســـاروا فيها كأنما يســـيرون على وجه الأرض حتى ملئوا ما بين الجانبين، فلا يُرى وجه الماء من الفرسان والرجَّالة، وجعل الناس يتحدثون على وجه الماء كما يتحدثون على وجه الأرض، وذلك لِـــما حصل لهـــم من الطمأنينة والأمن، والوثوق بأمر الله ووعده ونصره وتأييده.. ولم يُعدم للمسلمين شيء من أمتعتهم غير قدح من خشـــب لرجل يقال له مالك بن عامر، فدعا صاحبه الله عَزَّوَجَلَّ وقال: اللهم لا تجعلنـــي من بينهم يذهب متاعي، فرده المـــوج إلى الجانب الذي يقصدونه، فأخذه الناس ثم ردوه على صاحبه بعينه.

وعندمـــا رآهم الفرس يطفون عـــلى وجه الماء قالوا: ديوانًـــا ديوانًا، أي: مجانين مجانين. ثم قالوا: والله ما تقاتلون إنسًـــا، بل تقاتلون جنًّا.. وخرج المسلمون من النهر ولم يغرق منهم أحد، ولم يفقدوا شيئًا، ودخلوا المدائن ولم يجدوا بها أحدًا[1].

جنود الله معه ولم يرهم!

حين وقعت الردة بعد وفاة النبي ﷺ كان الزبرقان بن بدر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ممن ثبتهم الله على الإســـلام، وكان قد جمع الصدقة من قومه، وكان قومه يراودونه على رد الصدقة لهم بعد وفاة النبي ﷺ، فـــكان يعللهم ويجتهد في مد الوقت معهم، ويتحين الفرصة لكي يرسل الصدقات إلى خليفة رسول الله ﷺ.

فكان يأمر ابنه أن يسرح مع نعم الصدقة، فإذا كان المســـاء روحها، وإنه جاء بها

(١) الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء (٢/ ٥١٣). البداية والنهاية لابن كثير (٧/ ٧٠-٧٢) باختصار.

ليلة عشاء، فضربه، وقال: ألا عجلت بها؟

ثم راح بها الليلة الثانيــة فوق ذلك قليلًا، فجعل يضربه، وجعلوا يكلمونه فيه، فلــما كان اليوم الثالث قال: يا بني إذا سرحتها فصــح في أدبارها وأُمَّ بها المدينة، فإن لقيك لاقٍ من قومك أو من غيرهم فقل أريد الكلأ، تعذر علينا ما حولنا.

فلــما أن جاء الوقت الذي كان يــروح فيه، لم يأتِ الغــلام، فجعل أبوه يتوقعه ويقول لأصحابــه: العجب لحبس ابني. فيقول بعضهم: نخــرج فنتبعه. فيقول: لا والله.

فلما أصبح تهيأ ليغدو، فقال قومه: نغدو معك. فقال: لا يغدو معي منكم أحد، إنكم إن رأيتموه حلتم بيني وبين ضربه، وقد عصى أمري كما ترون. فخرج على بعير له سريعًا حتى لحق ابنه، ثم حدر النعم إلى المدينة.

فلــما كان ببطن قناة لقيته خيــل لأبي بكر، عليها ابن مســعود، ويقال محمد بن مســلمة، فلما نظروا إليه ابتدروه، وما كان معه، وقالوا له: أين الفوارس الذين كانوا معك؟ قال: ما معي أحد. قالوا: بلى، لقد كان معك فوارس، فلما رأونا تغيبوا.

فقال ابن مسعود: خلوا عنه فما كذب ولا كذبتم، **جنود الله معه، ولم يرهم**. فقدم على أبي بكر بثلاثمائة بعير، وكانت أول صدقة قُدِم بها على أبي بكر[1].

خلقَ اللهُ لهم نبعَ ماء

وفي حروب الردة كان العلاء بن الحضرمي يقود جيشًا للمسلمين، وقد نزل بهم منزلًا، فلم يســتقر الناس عــلى الأرض حتى نفرت الإبل بــما عليها من زاد الجيش

(١) الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء (٢/ ٩٤).

وخيامهم وشرابهم، وبقوا على الأرض ليس معهم شيء سوى ثيابهم -وذلك ليلًا- ولم يقــدروا منها على بعير واحد، فركب الناس من الهم والغم ما لا يحد ولا يوصف، وجعل بعضهم يوصي إلى بعض، فنادى منادي العلاء فاجتمع الناس إليه، فقال:

أيها الناس ألستم المسلمين؟ ألستم في سبيل الله؟ ألستم أنصار الله؟

قالوا: بلى.

قال: فأبشروا فو الله لا يخذل الله من كان في مثل حالكم، ونودي بصلاة الصبح حين طلع الفجر فصلى بالناس، فلما قضى الصلاة جثا على ركبتيه وجثا الناس، ونصب في الدعاء ورفع يديه وفعل الناس مثله حتى طلعت الشمس، وجعل الناس ينظرون إلى سراب الشــمس يلمع مرة بعد أخرى وهو يجتهد في الدعاء، فلما بلغ الثالثة إذا قد خلق الله إلى جانبهم غديرًا عظيمًا من الماء القراح، فمشــى ومشى الناس إليه فشربوا واغتســلوا، فما تعالى النهار حتى أقبلت الإبل من كل فج بما عليها، لم يفقد الناس من أمتعتهم سلكًا، فســقوا الإبل عللًا بعد نهل. فكان هذا مما عاين الناس من آيات الله بهذه السرية»[1].

وتكــرر التأييد الإلهي في دارين وذلك حين شرع العلاء بن الحضرمي في قســم الغنيمة ونفل الأنفال، وفرغ من ذلك وقال للمســلمين: اذهبوا بنا إلى دارين؛ لنغزو من بها من الأعداء.

فأجابوا إلى ذلك سريعًا، فســار بهم حتى أتى ساحل البحر؛ ليركبوا في السفن، فرأى أن الشــقة بعيدة، لا يصلون إليهم في الســفن حتى يذهب أعداء الله، **فاقتحم البحر بفرسه، وهو يقول: يا أرحم الراحمين، يا حليم يا كريم، يا أحد يا صمد، يا حي**

(١) البداية والنهاية (٦/ ٣٢٨).

يا محيي الموتى، يا حي يا قيوم، لا إله إلا أنت يا ربنا.

وأمر الجيش أن يقولوا ذلك ويقتحموا، ففعلوا ذلك فأجاز بهم الخليج بإذن الله، يمشـــون على مثل رملة دَمْثَة، فوقها ماء لا يغمـــر أخفاف الإبل، ولا يصل إلى رُكب الخيل، ومسيرته للسفن يوم وليلة، فقطعه إلى الساحل الآخر، فقاتل عدوه وقهرهم، واحتاز غنائمهم، ثم رجع فقطعه إلى الجانب الآخر، فعاد إلى موضعه الأول، وذلك كله في يوم، ولم يترك من العدو مخبرًا، واستاق الذراري والأنعام والأموال.

ولم يفقد المسلمون في البحر شيئًا ســـوى عليقة فرس لرجل من المسلمين، ومع هذا رجع العلاء فجاءه بها، ثم قســـم غنائم المســـلمين فيهم، فأصاب الفارس ألفين والراجـــل ألفًا، مع كثرة الجيش، وكتب إلى الصديـــق فأعلمه بذلك، فبعث الصديق يشكره على ما صنع[1].

ولقد كان الصحابة -رضوان الله عليهم- يعيشون مع هذه الثمار، ويستشعرون معيـــة الله وتأييده لهم.. ومن ذلك ما كتبه أبو عبيـــدة بن الجراح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في فتوح الشام:

«أخـــبرك يا أمير المؤمنين أصلحك الله، أنا قدمنـــا بلاد حمص وبها من المشركين عدد كثير، والمســـلمون يزفون إليهم ببأس شديد، **فلما دخلنا بلادهم ألقى الله الرعب في قلوبهم، ووهن كيدهم، وقلم أظفارهم**، فســـألونا الصلح وأذعنوا بأداء الخراج، فقبلنا منهم وكففنا عنهم، ففتحوا لنا الحصون واكتتبوا منا الأمان، وقد وجهنا الخيول إلى الناحية التي بها ملكهم وجنوده».

(١) ابن كثير في البداية والنهاية (٦/ ٣٢٩).

الملائكة تتكلم على ألسنتهم!

وقـــال أنيس بن الحليس: بينا نحن محاصرون بهرســـير بعد زحفهم وهزيمتهم، أشرف علينا رســـول فقال: إن الملك يقول لكم: هـــل لكم إلى المصالحة على أنَّ لنا ما يلينا من دجلة وجبلها، ولكم ما يليكم من دجلة إلى جبلكم؟ أما شبعتم لا أشبع الله بطونكم؟

فبدر الناس أبو مفرز الأسود بن قطبة، **وقد أنطقه الله**، عَزَّوَجَلَّ، **بما لا يدري ما هو ولا نحن، فأجابه بالفارسية ولا يعرف منها شيئًا هو ولا نحن!** فرجع الرجل ورأيناهم يقطعـــون إلى المدائن، فقلنا: يا أبا مفرز ما قلت له؟ قال: لا والذي بعث محمدًا بالحق ما أدري ما هو، وإلا أني **علتني سكينة، وأرجو أن أكون أُنطقت بالذي هو خير**.

وانتاب الناس يسألونه حتى سمع بذلك سعد، فجاءنا فقال: يا أبا مفرز ما قلت له؟ فو الله إنهم لهراب. فحدثه بمثل حديثه إيانا، فنادى في الناس، ثم نهد بهم، فما ظهر عـــلى المدينة أحد ولا خرج إلينا إلا رجل نادى بالأمان فأمّنّاه، فقال: ما بقي أحد فيها فما يمنعكم؟

فتســـورها الرجال، وافتتحناها، فما وجدنا فيها شـــيئًا ولا أحدًا، إلا أســـارى أسرناهم خارجًا منها، فسألناهم وذلك الرجل: لأي شيء هربوا؟ فقال: بعث إليكم الملك يعـــرض عليكم الصلح، فأجبتموه أنه لا يكون بيننـــا وبينكم صلح أبدًا حتى نأكل عسل أفريذون بأترج كوثي.

فقال الملك: وا ويلة ألا أرى الملائكة تكلم على ألســـنتهم، ترد علينا وتجيبنا عن العـــرب، ووالله لئن لم يكن كذلك، ما هـــو إلا شيء ألقي على فيّ هذا الرجل لننتهي.

فأرزوا (لجأوا) إلى المدينة القصوى[١].

يا سارية، الجبل!

كان ســـارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقود جيش للمسلمين في إحدى المعارك مع الفرس، فسار حتى أفضى إلى عســـكرهم، فنزل عليهم وحاصرهم ما شـــاء الله، ثم إنهم استمدوا، فتجمعوا وتجمعت إليهم أكراد فارس، فدهم المســـلمين أمر عظيم وجمع كثير، فرأى عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في تلك الليلة معركتهم وعددهم في ســـاعة من النهار، فنادى من الغد، الصلاة جامعة، حتى إذا كان في الســـاعة التي رأى فيها مـــا رأى خرج إليهم، وكان أريهم والمسلمين بصحراء، وإن أقاموا فيها أحيط بهم وإن أرزوا (لجأوا واحتموا) إلى جبل من خلفهم لم يؤتوا إلا من وجه واحد، ثم قام فقال: أيها الناس، إني رأيت هذين الجمعين، وأخبر بحالهما، ثم قال:

يا سارية، الجبل الجبل، ثم أقبل عليهم، فقال: **إن الله** عَزَّوَجَلَّ **جنودًا، ولعل بعضها أن يبلغهم.**

ولما كان تلك الســـاعة من ذلك اليوم أجمع سارية والمســـلمون على الإسناد إلى الجبـــل، ففعلوا وقاتلوا القوم من وجه واحد، فهزمهم الله لهم، وكتبوا بذلك إلى عمر رحمه الله، وباستيلائهم على البلد ودعاء أهله وتسكينهم[٢].

• • •

(١) الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء (٢/ ٥١١).
(٢) تاريخ الطبري (٤/ ١٧٨).

ومن ثمار الإيمان

خامسًا: إيقاظ القوى الخفية

عندمـــا يتمكن الإيمان من القلـــب تزداد رغبة العبد في القيـــام بكل ما يحبه ربه ويرضاه، فتجده يتحدى الصعاب، ويتحمل الشدائد في سبيل ذلك.

.. الإيمان الحي يوقظ القوى الخفية داخل الإنسان ويجعله دومًا يتحدى أوضاعًا أقوى منه، ويجتاز مصاعب أعظم بكثير من حدود إمكاناته..

.. اجتمع يومًا أصحاب رســـول الله ﷺ في مكة، وكانوا قلة مستضعفين فقالوا: والله ما سمعت قريش هذا القرآن يُجهر لها به قط، فمن رجل يُسمعهم إياه؟ فقال عبد الله بن مســـعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنا أُسمعهم إياه. فقالوا: إنا نخشاهم عليك، إنما نريد رجلًا له عشيرة تحميه وتمنعه منهم إذا أرادوه بِشَر. فقال: دعوني فإن الله سيمنعني ويحميني.

ثم غدا إلى المســـجد حتى أتى مقام إبراهيـــم في الضحى، وقريش جلوس حول الكعبة، فوقف عند المقام وقرأ: بســـم الله الرحمن الرحيم رافعًا بها صوته: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤﴾ [الرحمن: ١-٤].

ومضى يقرؤهـــا، فتأملته قريش وقالت: ماذا قال ابن أم عبـــد؟! تبًّا له، إنه يتلو بعض ما جاء به محمد، وقاموا إليه وجعلوا يضربون وجهه وهو يقرأ حتى بلغ منها ما شاء الله أن يبلغ، ثم انصرف إلى أصحابه والدم يسيل منه، فقالوا له: هذا الذي خشينا عليك، فقال: والله ما كان أعداء الله أهون في عيني منهم الآن، وإن شـــئتم لأُغَادينَّهم بمثلها غدًا، قالوا: لا، حسبك، لقد أسمعتهم ما يكرهون[1].

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٣١٥)، وذكره أحمد بن حنبل في فضائل الصحابة (٢/ ٨٣٧ برقم: ١٥٣٥).

.. وهـــذا عمرو بن الجموح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يرى أبناءه الثلاثة يتجهزون للقاء أعداء الله في أُحد، فعزم على أن يغدو معهم إلى الجهاد، لكن الفتية أجمعوا على منع أبيهم مما عزم عليه، فهو شيخ كبير طاعن في السن، وهو إلى ذلك أعرج شديد العرج، وقد عذره الله فيمـــن عذرهم، فقالوا له: يا أبانا، إن الله عذرك، فعلام تُكلف نفســك ما أعفاك الله منه؟!

فغضب الشيخ من قولهم، وانطلق إلى رسول الله ﷺ يشكوهم، فقال: يا نبي الله، إن أبنائي هؤلاء يريدون أن يحبسوني عن هذا الخير وهم يتذرعون بأني أعرج، والله إني لأرجو أن أطأ بعرجتي هذه الجنة.

فقال رسول الله ﷺ لأبنائه: «**دَعُوهُ؛ لَعَلَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَرْزُقَهُ الشَّهَادَةَ**». فخلوا عنه إذعانًا لأمر رسول الله ﷺ.

ومـــا إن أزِف وقت الخروج، حتى ودع عمرو بن الجمـــوح زوجته، ثم اتجه إلى القبلة ورفع كفيه إلى السماء وقال: «اللهم ارزقني الشهادة ولا تردني إلى أهلي خائبًا». ثم انطلق يُحيط به أبناؤه الثلاثة..

ولما حمي وطيس المعركة، وتفرق الناس عن رســول الله ﷺ شــوهد عمرو بن الجموح يمضي في الرعيل الأول[1] ويثب على رجله الصحيحة وثبًا، وهو يقول: إني لـمُشتاق إلى الجنة، إني لـــمُشتاق إلى الجنة، وكان وراءه ابنه «خلَّاد» وما زال الشيخ وفتاه يجاهدان عن رســول الله ﷺ حتى خرَّا صريعين شــهيدين على أرض المعركة، ليس بين الابن وأبيه إلا لحظات[2].

(١) المجموعة التي في المقدمة.

(٢) ذكره البيهقي في دلائل النبوة (٣/ ٢٤٦).

وإن تعجب فاعجب من حال هذا الصحابي

كان أبــو عقيل الأزرقي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حليف الأنصــار، بدريًّا من أول من خرج يوم اليمامة، رُمي بســهم فوقع بين منكبيه وفؤاده، فشــطب في غير مقتل، فأخرج السهم، ووهن شــقه الأيسر، وكانت فيه، وهذا أول النهار وجروه إلى الرحل، فلما حمي القتال وانهزم المسلمون وجاوزوا رحالهم، وأبو عقيل واهن من جرحه، سمع معن بن عدي يصيــح: يا للأنصار، الله الله والكرة على عدوكــم، وأعنق -أي أسرع- معن بن عدي يقدم القوم، وذلك حين صاحت الأنصار: أخلصونا، فأخلصوا رجلًا رجلًا، يتميزون.

قال أبو عمرو: ونهض أبو عقيل يريد قومه، فقلت: ما تريد يا أبا عقيل؟ ما فيك قتال.

قال: قد نوه المنادي باسمي. فقلت: إنما يقول: يا للأنصار، لا يعني الجرحى.

قال: فأنا رجل من الأنصار، وأنا أجيب ولو جبنوا.

قال ابن عمر: فتحزم أبو عقيل، فأخذ السيف بيده اليمنى مجردًا، ثم جعل ينادي: يا للأنصار، كَرَّة كيوم حنين، فاجتمعوا جميعًا يقدمون المســلمين دريئة (ستارًا) دون عدوهم، حتى أقحموا عدوهم الحديقة، فاختلطوا واختلفت الســيوف بيننا وبينهم، فنظرت إلى أبي عقيل وقد قطعت يده المجروحة من المنكب، فوقعت إلى الأرض، وبه أربعة عشر جرحًا، كلها قد خلصت إلى مقتل، وقُتِل عدو الله مسيلمة.

قال ابن عمر: فوقفت على أبي عقيل وهو صريع بآخر رمق، فقلت: يا أبا عقيل. فقال: لبيك، بلســان ملتاث، ثم قــال: لمن الدبرة؟ (النــصر) فقلت: أبشر ورفعت صوتي، قد قتل عدو الله.

فرفع إصبعه إلى السماء يحمد الله، ومات، رحمه الله[1].

(١) الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء: (٢/ ١٣٢).

أعمى يحمل الراية

ولك أن تعجب كذلك من إصرار عبد الله بن أم مكتوم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على الجهاد وهو أعمى، وســـفره مع جيش ســـعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى القادسية لملاقاة الفرس، وهو لابس درعه، مســـتكمل عدته، فيتقدم ليحمل راية المســـلمين... وهو أعمى! ويحافظ عليها إلى أن قُتل شهيدًا، وهو يحتضن الراية[1]!.

شلَّال الإيمان

رُوي في التاريخ أن جعفر بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أخذ راية رسول الله ﷺ في غزوة مؤتة، فقاتل بها، حتى إذا أرهقه القتال اقتحم عن فرســـه، فعقرها ثم قاتل، فقطعت يمينه، فأخذ الراية بيســـاره فقطعت، فاحتضن الرايـــة بعضديه، حتى قتل وله ثلاث وثلاثون ســـنة، ووجد المسلمون ما بين صدره ومنكبيه وما أقبل منه تسعين جراحة، ما بين ضربة ســـيف وطعنة رمح، كلها من الأمام، ومـــات فتى الفتيان وهو يحنُّ إلى الجنة، ويتغنى بنعمائها، ويستهين بزخارف الدنيا.

هل يُتصور هذا من غير عقيدة تتغلغل في الأحشـــاء، ونشـــوة إيمانية تسري في العروق، ولذة روحية تتغلب على الشعور بالألم؟!

إن هذا الشـــلَّال من الإيمان والاحتساب، ورجاء الأجر والثواب، والشوق إلى الجنة، والحنين إلى الشهادة، والحب لله ولرسوله وللمؤمنين؛ لازال بكرًا، ولم يُستخدم بعد، ولم يقتبس منه هذا التيار المضيئ المنير[2].

---

(١) صور إيمانية من حياة الصحابة والتابعين. مصطفى أبو المعاطي (١/ ١٣١، ١٣٢).

(٢) نفحات الإيمان لأبي الحسن الندوي.

ومن ثمار الإيمان

سادسًا: الرغبة في الله

كلما ازداد الإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ ازدادت ثقة العبد فيه سبحانه وبأنه مالك الملك، المتصرف في شؤون كل ذرة فيه، العليم الخبير الذي لا تغيب عنه أي حركة أو سكنة في هذا الكون.. القادر المقتدر، الغفور الرحيم...

وبنمو هذه الثقة في القلب تزداد رغبة العبد في ربه فيصبح ذهنه مشغولًا بالتفكير فيه، وقلبه حاضرًا معه.. فيتوجه إليه بالأعمال، ويتزين له بالأفعال التي ترضيه.. يُكثر من مناجاته وبث أشواقه إليه... يسترضيه كلما قصَّر أو زلَّت قدمه... يطلب منه المساعدة في كل أموره، والشهادة على ما يحدث له.

وفي المقابل: يصغُر حجم الناس في نظره وتقل الثقة فيهم حتى تنمحي من حيث كونهم لا يملكون له نفعًا أو ضرًّا، فلا يتزين لهم في أفعاله، ولا يسعى لعلو منزلته عندهم، بل يستغني عنهم، وينقطع من قلبه الطمع فيهم؛ ومن ثَّم لا يرائيهم بأقواله أو أفعاله..

> **إن الرياء صورة بغيضة تعكس جهلًا عظيمًا بالله عَزَّوَجَلَّ، وضعفًا شديدًا في الإيمان به.. هذه الصورة يمكنها أن تضمحل وتنمحي تلقائيًّا بزيادة الإيمان الحقيقي بالله والثقة فيه.**

الراغبون في الله

- يقول أنس بن مالك رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: غاب عمي أنس بن النضر عن قتال بدر، فقال: يا رسول الله.. غبتُ عن أول قتال قاتلته المشركين، لئن أشهدني الله قتال المشركين لَيَرَيَنَّ الله مني ما أصنع.

فلما كان يوم أُحد وانكشـف المسلمون، قال: اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء (يعني: المسلمين)، وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء (يعني: المشركين)، ثم تقدم فاستقبل سعد بـن معاذ، فقال: يا سـعد، الجنة ورب النضر، إني أجد ريحها دون أحد. قال سـعد: فما أستطيع أن أصف ما صنع[١].

■ ويقول سـعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لما كانت «أحد» لقيَني عبد الله بن جحش وقـال: ألا تدعو الله؟ فقلت: بلى. فخلونا في ناحية، فدعـوت، فقلت: يا رب إذا لقيت العدو فلَقِّني رجلًا شديدًا بأسه، شـديدًا حرده، أقاتله ويقاتلني، ثم ارزقني الظفر عليه حتى أقتله وآخذ سلبه، فأمَّن عبد الله بن جحش على دعائي، ثم قال: اللهم ارزقني رجلًا شـديدًا حرده، شديدًا بأسـه، أقاتله فيك ويقاتلني، ثم يأخذني فيجدع أنفي وأذني، فإذا لقيتك غدًا قلت: فيم جُدع أنفك وأذنك؟ فأقول: فيك وفي رسولك، فتقول: صدقت.

قال سـعد: كانت دعوة عبد الله بن جحش خيرًا من دعوتي، لقد رأيته آخر النهار، وإن أنفه وأذنه لمعلقان في خيط[٢].

.. وعندمـا أراد مشركو مكة قتل خبيب بن عـدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ طلب منهم أن يتركوه ليركع ركعتين، فوافقوا. فركع ركعتين أتمهما وأحسـنهما، ثم أقبـل على القوم فقال: أما والله، لـولا أن تظنوا أني إنما طوَّلت جزعًا من القتل لاسـتكثرت من الصلاة. ثم رفعوه على خشبة، فلما أوثقوه قال: اللهم إنَّا قد بلغنا رسالة رسولك، فبلغه الغداة ما يُصنع بنا..

وبعد أن صلبوه أنشد شعرًا قال فيه:

فذا العرش صبِّرني على ما يُراد بي فقد بضعوا لحمي وقد بان مطمعي

(١) البخاري (٤/ ١٩ برقم: ٢٨٠٥).

(٢) المستدرك على الصحيحين (٢/ ٨٦ برقم: ٢٤٠٩)، حلية الأولياء (١/ ١٠٨).

وذلـك في ذات الإلــه وإن يشـأ يبــارك عـلى أوصـال شِـلْوٍ مُـمزَّع

لعمري ما أحفِلْ إذا مـت مسـلمًا على أي حال كان في الله مضجعي[1].

رغبة معاذ بن جبل في الله

ومن خبر معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الطاعون أنه رجع إلى منزله فاشتد به وجعه، وجعل أصحابه يختلفون إليه، فـإذا أتوه أقبل عليهم فقال لهم: **اعملوا وأنتم في مهلة وحياة وفي بقية من آجالكم، من قبل أن تمنوا العمل فلا تجدوا إليه سـبيلًا، وأنفقوا مما عندكـم من قبل أن تهلكوا وتدعوا ذلك ميراثًا لمن بعدكم، واعلموا أنه ليس لكم من أموالكم إلا ما أكلتم وشربتم ولبسـتم وأنفقتم فأعطيتم فأمضيتم، وما سـوى ذلك فللوارثين.**

فلما اشـتد به وجعه جعل يقـول: **رب اخنقني خنقك، فأشـهد أنك تعلم أني أحبك**[2].

• • •

(١) جاءت قصة قتل خبيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في سيرة ابن هشام (٢/ ١٧٢) والأبيات (ص: ١٧٦).

(٢) الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء (٢/ ٣١٥).

ومن ثمار الإيمان

سابعًا: اختفاء الظواهر السلبية

عندما يضعف الإيمان: يعلو الهوى ويسيطر على الإرادة.

والهوى هو كل ما تميـــل إليه النفس، أي أن غلبة الهوى معناها ســيطرة النفس بأطماعها على إرادة الإنسان وقلبه، فيصبح أسيرًا لها.

فالنفس شـــحيحة تحب الاستئثار بكل ما تظن أن فيه نفعها فينشأ عن هذا الهوى -عندما يتمكن من القلب- الطمع والظلم والبخل والتعدي على حقوق الآخرين.

والنفـــس تريد دومًا العلو على الآخرين، وتكـــره أن يتميز عليها أحد فينتج عن ذلك الحسد والحقد.

والنفس تكره الظهور بمظهر المخطئ، فينشـــأ عن هذا الهوى عندما يسيطر على القلب: الكذب والغش والخداع..

والنفس تكره المشاقّ والتكاليف، فينشأ عن ذلك: الفسوق وعدم القيام بالأوامر الشرعية...

وهكذا تنطلق جميع الظواهر السلبية والمشكلات من ضعف الإيمان وغلبة هوى النفس.

والحـــل الأول والأمثل لعلاج المجتمع المســـلم من ظواهره الســـلبية إنما يكون بإصلاح الإيـــمان، فكلما ازداد الإيمان في القلوب انحسر تأثـــير الهوى عليها، وقويت الإرادة ودفعت صاحبها لمكارم الأخلاق ومعاليها.

تأمل قـــول الله تعـــالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [ص: ٢٤].

إيقاظ الإيمان هو البداية الصحيحة لحل المشكلات

إن العمل على زيادة الإيمان في القلوب هو الحل الأول لكثير من المشكلات، ففي ظل الأجواء الإيمانية تذعن القلوب لداعي العفو والصفح والتسامح والتغاضي عن الهفوات، فالإيمان يصنع المعجزات، ويروض النفوس؛ لذلك فإنه ليس من المناسب أن نحكم على شخص ما حكمًا نهائيًّا من خلال سلوكياته التي قد تبدو منه في حالة ضعف إيمانه، وليس من المناسب كذلك أن تدفعنا تلك التصرفات إلى مواجهته واتخاذ موقف مضاد منه؛ لأن ذلك قد يؤدي إلى اجتهاده في الانتصار لنفسه وإثبات صحة موقفه، فتزداد الأمور تعقيدًا؛ لذلك فالمقترح في مثل هذه الحالات أن تكون البداية هي العمل على إيقاظ الإيمان في القلوب، فتتحول تدريجيًّا الأجواء المحيطة إلى أجواء صحية يسعى فيها الجميع إلى مرضاة الله عَزَّوَجَلَّ.

ففي مثل هذه الأجواء الإيمانية تصبح -في الغالب- نفس المرء وراءه وليست أمامه، عند ذلك ستتغير الدوافع، وتنتهي الكثير من المشكلات تلقائيًّا بإذن الله.

ليس معنى هذا هو انعدام المشكلات بين الأفراد، فالطبيعة البشرية وما تحمله من ضعف تأبى ذلك، ولكنها -إن حدثت- تكون هينة، عارضة سرعان ما تزول عندما يسمع أصحابها حادي الإيمان ينادي عليهم أن اتقوا الله: ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ۝٣٠﴾ [ص: ٣٠].

فعلى سبيل المثال: عندما عزم أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على قطع النفقة التي كان ينفقها على مسطح بن أثاثة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ لأنه كان ممن تكلم في حادثة الإفك نزل القرآن ليُذكّره وغيره بفضيلة العفو بقوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٢٢﴾ [النور: ٢٢] فعند ذلك قال الصديق: بلى والله إنَّا نحب

أن تغفر لنا يا ربنا، ثم أرجع إلى مسطح ما كان يصله من النفقة، وقال: والله لا أنزعها منه أبدًا[١].

.. وعندما اختلف رجلان على ميراث بينهما وذهبا يحتكمان إلى رسـول الله ﷺ، فماذا فعل معهما؟!

عن أم سـلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: جاء رجلان من الأنصار يختصمان إلى رسول الله ﷺ في مواريـث بينهما قد دُرِسـت ليس بينهما بينـة، فقال رسـول الله ﷺ: «**إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ وَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَلْـحَنُ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ فَإِنِّي أَقْضِي بَيْنَكُمْ عَلَى نَحْوِ مَا أَسْـمَعُ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا فَلَا يَأْخُذْهُ، فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ يَأْتِي بِهَا إِسْـطَامًا فِي عُنُقِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**» فبكى الرجلان وقال كل واحد منهما: حقي لأخي. فقال رسول الله ﷺ: «**أَمَّا إِذْ قُلْتُمَا فَاذْهَبَا فَاقْتَسِمَا، ثُمَّ تَوَخَّيَا الْـحَقَّ، ثُمَّ اسْتَهِمَا، ثُمَّ لِيَتَحَلَّلْ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ صَاحِبَهُ**»[٢].

الرجوع إلى الحق

يحكي أحد الدعـاة أنه اختصم إليه رجلان، كان بينهما شراكة وتجارة، وقد أخذ أحدهما من الآخر أوراقًا ومستندات تثبت حقه ويرفض أن يردها إليه ولا يملك هذا الرجـل إثباتًا لحقه بدونها، وحـين اجتمعا عند هذا الداعيـة لم يتطرق معهما إلى أي تفاصيل تخص المشـكلة، ولا ما حـدث بينهما، بل أخذ يحدثهم عـن اليوم الآخر،

(١) البخاري (٨/ ١٣٨برقم: ٦٦٧٩)، مسلم (٤/ ٢١٢٩ برقم: ٢٧٧٠).

(٢) مسند أحمد (٤٤/ ٣٠٨ برقم: ٢٦٧١٧)، السنن الكبرى للبيهقي (٦/ ١٠٨ برقم: ١١٣٥٩)، مصنف ابن أبي شيبة (٤/ ٥٤١ برقم: ٢٢٩٧٤). والإسطام: هي الحديدة التي تُحرَّك بها النار.

ومشاهده، وأن الحساب حينها سيكون بالحسنات والسيئات لا بالدرهم ولا الدينار، وأخذ يطرق على مشاعرهم ويخوفهم من اليوم الآخر والسؤال أمام الله عَزَّوَجَلَّ، ظل يذكرهم بذلك حتى تأثروا تأثرًا شديدًا، وقام الخصم الأول من فوره واتصل بسائقه وطلب منه إحضار الأوراق والمستندات من المنزل، وسلمها لصاحبه وانتهت الخصومة بفضل الله ورجع إلى الحق.

غنائم بدر

عندما انتصر المسلمون على المشركين في غزوة بدر كانت هناك غنائم كثيرة؛ مما أدى إلى اختلاف البعض حول كيفية توزيعها، وظن بعض الشباب أنهم أحق مِن غيرهم من الشيوخ..

فكيف تمَّت معالجة هذه المشكلة؟

نزلت سورة الأنفال وبدأت بقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾﴾ [الأنفال: ١]. فخرجت الغنائم من أيديهم تمامًا، وأصبحت لله ورسوله.

ثم بدأت الآيات تذكِّرهم بالإيمان وعلاماته، وأوردت بعض صفات المؤمنين ليعرض كل منهم نفسه عليها: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [الأنفال: ٢ - ٤].

فهل يفكر أحد بعد هذه الآيات في الغنائم، أم أنه سيفكر في نفسه؟ وأين هو من

هذه الصفات؛ وهل هو مؤمن حقًّا أم لا؟

ثم تمضي السـورة فتذكرهم بما مَـنَّ الله عليهم من نصر عظيـم في هذه الغزوة المباركة، وأن هـذا النصر كان من عند الله عَزَّوَجَلَّ وحده، لا من عند أنفسـهم، فلقد غشـيهم النعاس، وأنزل عليهـم الغيث، وأمدهم بالملائكة، وسـدد رميهم، وثبَّت أقدامهم، وأوهن كيد عدوهم.

ثم تُذكرهم الآيات بضرورة الاستجابة لله والرسول، وتخوِّفهم بأن الله يحُول بين المرء وقلبه.

وتعود الآيات بذاكرتهم إلى أيام مكة حين كانوا مسـتضعفين: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأنفال: ٢٦].

وبعد أن تجردت القلوب لله، وراجع كل واحد منهم إيمانه، ونسي أمر الغنائم.. جـاءت الآية الحادية والأربعون لتتحدث عن كيفية تقسـيم الغنائم: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾﴾ [الأنفال: ٤١].

غنائم حنين والطائف

روى ابن إسـحاق عن أبي سعيد الخدري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: لما أعطى رسول الله ﷺ ما أعطى من تلك العطايا في قريش وفي قبائل العرب، ولم يكن في الأنصار منها شيء، وجد هذا الحي من الأنصار في أنفسـهم، حتى كثرت فيهم القالة، حتى قال قائلهم:

لقي والله رسول الله ﷺ قومه، فدخل عليه سعد بن عبادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال: يا رسول الله، إن هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعت في الفيء الذي أصبت، قسمت في قومك، وأعطيت عطايا عظامًا في قبائل العرب، ولم يك في هذا الحي من الأنصار منها شيء، قال رسول الله ﷺ: «**فَأَيْنَ أَنْتَ مِنْ ذَلِكَ يَا سَعْدُ؟**» قال: يا رسول الله ما أنا إلا من قومي، قال: «**فَاجْمَعْ لِي قَوْمَكَ فِي هَذِهِ الْحَظِيرَةِ**»، فخرج سعد فجمع الأنصار في تلك الحظيرة، فجاء رجال من المهاجرين فتركهم فدخلوا، وجاء آخرون فردهم، فلما اجتمعوا له أتاه سعد فقال: لقد اجتمع لك الحي من الأنصار، فأتاهم رسول الله ﷺ فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

«**يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ مَقَالَةٌ بَلَغَتْنِي عَنْكُمْ، وَجِدَةٌ وَجَدْتُمُوهَا عَلَيَّ فِي أَنْفُسِكُمْ؟ أَلَمْ تَكُونُوا ضُلَّالًا فَهَدَاكُمُ اللهُ؟ وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمُ اللهُ؟ وَأَعْدَاءً فَأَلَّفَ اللهُ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ؟**» قالوا: بلى، الله ورسوله أمَنُّ وأفضل، ثم قال: «**أَلَا تُجِيبُونِي يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ؟**»

قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله؟ لله ولرسوله المن والفضل، قال: «**أَمَا وَاللهِ لَوْ شِئْتُمْ لَقُلْتُمْ، فَلَصَدَقْتُمْ وَلَصُدِّقْتُمْ: أَتَيْتَنَا مُكَذَّبًا فَصَدَّقْنَاكَ، وَمَخْذُولًا فَنَصَرْنَاكَ، وَطَرِيدًا فَآوَيْنَاكَ، وَعَائِلاً فَآسَيْنَاكَ، أَوَجَدْتُمْ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ فِي أَنْفُسِكُمْ فِي لُعَاعَةٍ مِنَ الدُّنْيَا تَأَلَّفْتُ بِهَا قَوْمًا لِيُسْلِمُوا، وَوَكَلْتُكُمْ إِلَى إِسْلَامِكُمْ؟ أَلَا تَرْضَوْنَ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاةِ وَالْبَعِيرِ، وَتَرْجِعُوا بِرَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَى رِحَالِكُمْ؟ فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَوْلَا الْهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً مِنَ الْأَنْصَارِ، وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ شِعْبًا وَسَلَكَتِ الْأَنْصَارُ شِعْبًا لَسَلَكْتُ شِعْبَ الْأَنْصَارِ، اللَّهُمَّ ارْحَمِ الْأَنْصَارِ، وَأَبْنَاءَ الْأَنْصَارِ، وَأَبْنَاءَ أَبْنَاءِ الْأَنْصَارِ**»، فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله ﷺ

قسمًا وحظًّا، ثم انصرف رسول الله ﷺ وتفرقوا»[١].

أخي.. ألا ترى كيف عالج رســول الله ﷺ هذه المشكلة الطارئة؟! وكيف كان التذكير الإيماني هو الحل لها؟!

عمر والقضاء

ويكفيــك لتأكيد هذا المعنــى أن تعلم أن أبا بكــر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عندما تولى الخلافــة قام بتعيين عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قاضيًا على المدينة، فمكث عمر ســنة لم يفتتح جلسة، ولم يختصم إليه اثنان: قَالَ سُفْيَانُ- وَذَكَرَهُ عَنْ مِسْعَرٍ: لَـمَّا وُلِّيَ أَبُو بَكْرٍ، قَالَ لَهُ أَبُو عُبَيْدَةَ: أَنَا أُكْفِيكَ الْـمَالَ -يَعْنِي الْجَزَاءَ- وَقَـالَ عُمَرُ: أَنَا أُكْفِيكَ الْقَضَاءَ: فَمَكَثَ عُمَرُ سَنَةً لا يَأْتِيهِ رَجُلانِ[٢].

• • •

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٤٩٩، ٥٠٠)، والرحيق المختوم (ص: ٤٧٣، ٤٧٤).

(٢) تاريخ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، وصلة تاريخ الطبري (٣/ ٤٢٦)، الكامل في التاريخ (٢/ ٢٦٣).

ومن ثمار شجرة الإيمان المباركة

ثامنًا: التأثير الإيجابي في الناس

ليس على المسلم فقط أن يكون صالحًا في نفسه، بل عليه أن يعمل على إصلاح غيره: ﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴾ [لقمان: ١٧].

﴿ وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ [فصلت: ٣٣].

﴿ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ ﴾ [الأعراف: ١٧٠].

فالدعوة إلى الله هي عمل الرسل وأتباعهم: ﴿ قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ ﴾ [يوسف: ١٠٨].

> **ونجاح الداعية في دعوته للناس يعني التأثير الإيجابي فيهم.. هذا التأثير يستلزم وجود روح حي، ورغبة جارفة تهيمن على قلبه تستحثه لإنقاذ الآخرين، فيخرُجُ كلامه محملًا بالحرقة والشفقة عليهم.. ولا يمكن التلبس بهذه الحالة إلا من خلال يقظة الإيمان وتمكنه في قلبه.**

.. الإيمان الحي يدفع صاحبه للبدء بنفسه في القيام بالعمل الصالح قبل أن يدعو الناس إليه، فيصدق قوله فعله؛ ومن ثَمَّ يزداد تأثيره في الآخرين.

يقول صاحب الظلال: الكلمة البسيطة التي يصاحبها الانفعال، ويؤيدها العمل هي الكلمة المثمرة، التي تُحرك الآخرين إلى العمل.

ويقــول: أيما داعية لا يصدق فعله قوله، فــإن كلماته تقف على أبواب الآذان لا تتعداها إلى القلوب مهما كانت كلماته بارعة، وعباراته بليغة[١].

متى نؤثر في الناس؟

إن تغيير حال الأمة الأليم لن يتم إلا إذا غيَّر أبناؤها ما بأنفسهم، ألم يقل سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾؟ [الرعد: ١١].

والواقــع يخبرنا بأن هذا التغيير ليس بالأمر اليســير.. فموجــة المادية في عُلو، وانجذاب المســلمين نحو طين الأرض في ازدياد، ولكي يتم الأخذ بأيديهم إلى تغيير ما بأنفســهم، وتقوية الإيمان في قلوبهم، وتصحيــح الأفكار والمعتقدات في عقولهم، والتأثير الإيجابي الدائم فيهم؛ لا بد من وجود رجال مؤمنين إيمانًا قويًّا راسخًا كالجبال يصمد أمام أمواج المادية العاتية، ويُعين الناس على الخروج من بحر الشهوات.

من هنا نقول بــأن البداية الصحيحــة للتغيير هي وجود الشــخص المتوهج، صاحب الروح اليقِظة والإيمان الحي، وكــما قيل: إذا وُجِد المؤمن الصحيح وُجِدَت معه أسباب النجاح جميعًا.

القلوب بيد الله

إن الــذي يفتح القلوب لــكلام الدعاة هــو الله عَزَّوَجَلَّ فــإن رأى منهم صدقًا وإخلاصًا، ورغبة في نفع المدعوين، وشــفقة صادقة عليهم فإنه ســبحانه يفتح لهم -بفضله- قلوبهم.

---

(١) في ظلال القرآن (٤/ ٢٣٦٩).

وكلما علت منزلة العبد عند ربه بالإيمان أحبه الله عَزَّوَجَلَّ؛ ومن ثَمَّ وضع له القبول في الأرض كما قال رسول الله ﷺ: «**إِذَا أَحَبَّ اللهُ عَبْدًا نَادَى جِبْرِيلَ: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبَّهُ، فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، فَيُنَادِي جِبْرِيلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ**»(١).

أصلح نفسك تُصلَح لك رعيتك

.. انظر إلى أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو يمشي بجانب راحلة عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو يوصيه قبل سفره على رأس الجيش المتوجه إلى الشام قائلًا: «يا عمرو، اتقِ الله في سرائرك وعلانيتك واستحيه، فإنه يراك ويرى عملك.. فكن من عمال الآخرة، وأَرِد بما تعمل وجه الله، وكن والدًا لمن معك، ولا تكشفن الناس عن أستارهم، واكتفِ بعلانيتهم.. وإذا وعظت أصحابك فأوجز، وأصلح نفسك تُصلَح لك رعيتك»(٢).

.. ولما حضر أبا بكر الموت أوصى باستخلاف عمر بن الخطاب، ثم بعث إلى عمر فدعاه فكان مما وصاه به: إن أول ما أحذرك نفسك، وأحذرك الناس.. فإنهم لن يزالوا خائفين لك فرقين منك ما خفت الله وفَرَقْته(٣).

وعن المِسوَر بن مخرمة قال: كنا نتعلم من عمر بن الخطاب الورع(٤).

• • •

(١) البخاري (٨/ ١٤ برقم: ٦٠٤٠، ٤/ ١١١ برقم: ٣٢٠٩)، مسلم (٤/ ٢٠٣٠ برقم: ٢٦٣٧).
(٢) حياة الصحابة (١/ ٥٤٤).
(٣) حياة الصحابة (١/ ٥٤١).
(٤) أخرجه ابن سعد (٣/ ٢٩٠).

ومن ثمار الإيمان

تاسعًا: اتخاذ القرارات الصعبة

يتعــرض المرء في حياته لمواقف تحتاج منه إلى اتخــاذ قرارات قد ينتج عنها نقص يلحق به، أو أذى يُصيبــه، أو ضيق الآخرين منه؛ لذلك تجده مــترددًا قبل اتخاذها، ويظــل يُفكِّر فيهــا، ويوازن بين الواجــب الديني الذي يحُثُّه عــلى فعل الشيء وبين الأضرار التي قد تترتب على فعله؛ مما قــد يؤدي في النهاية إلى ترك القيام به، فيُفوِّت على نفسه مصالح كثيرة في دنياه وآخرته.

.. هــذا الحال يعكس ضَعف القلب وعدم تمكن الإيــمان منه، وفي المقابل؛ كلما ازداد الإيمان قَوِي القلب وســهل على صاحبه اتخــاذ القرارات التي قد يكون لها من الناحية الظاهرية تأثير سلبي عليه..

ومن أمثلة هذه القرارات: الشــهادة على النفس أو الآخرين، الاعتراف بالخطأ، قبول النُّصــح، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكــر للأصدقاء وأصحاب المناصب، الإنفاق في وقت العُسرة، التضحية بما يحبه المرء..

نماذج مشرقة

وإليك -أخي القارئ- بعض الأمثلــة العملية من حياة الصحابة، والتي تؤكد هذا المعنى:

■ قال عروة بن الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: رأيت عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وعلى عاتقه قربة ماء، فقلــت: يا أمير المؤمنين لا ينبغي لك ذلك، فقال: لــمَّا أتتني الوفود بالســمع والطاعة دخلت في نفسي نخوة، فأحببت أن أكسرها، ومضى بالقربة إلى حجرة امرأة

من الأنصار فأفرغها في إنائها[١].

■ عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رجلًا من أهل مصر أتى عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقال: يا أمير المؤمنين، عائذ بك من الظلم، قال: عذت معاذًا، قال: سابقت ابن عمرو بن العاص فسبقته فحمل يضربني بالسوط ويقول: أنا ابن الأكرمين، فكتب عمر إلى عمرو يأمره بالقدوم ويُقدم ابنه معه، فقدما، فقال عمر: أين المصري؟ خذ السوط فاضربه، فجعل يضربه بالسوط، وعمر يقول: اضرب ابن الأكرمين. قال أنس: فضرب، فوالله ضربه ونحن نُحب ضربه فما أقلع عنه حتى تمنينا أن يُرفع عنه، ثم قال عمر للمصري: ضع السوط على صلعة عمرو، فقال: يا أمير المؤمنين، إنما ابنه الذي ضربني، وقد استقدت منه، فقال عمر لعمرو: مُذ كم تعبَّدتم الناسَ وقد ولدتهم أُمَّهاتُهم أحرارًا؟ قال: يا أمير المؤمنين، لم أعلم ولم يأتني[٢].

■ وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: اشتريت إبلًا وارتجعتها إلى الحمى، فلما سمنت قدمت بها، فدخل عمر السوق فرأى إبلًا سمانًا فقال: لمن هذه الإبل؟ قيل: لعبد الله بن عمر، قال: فجعل يقول: يا عبد الله بن عمر بخ بخ ابن أمير المؤمنين، قال: فجئته أسعى فقلت: ما لك يا أمير المؤمنين؟ قال: ما هذه الإبل؟ قال: قلت: إبل أنضاء اشتريتها وبعثت بها إلى الحمى أبتغي ما يبتغي المسلمون، قال: فقال: ارعوا إبل ابن أمير المؤمنين، اسقوا إبل ابن أمير المؤمنين، يا عبد الله بن عمر اغد على رأس مالك واجعل باقيه في بيت مال المسلمين[٣].

(١) صلاح الأمة في علو الهمة، للدكتور سيد حسين العفاني (٥/ ٤٣٥).
(٢) رواه ابن عبد الحكم في (فتوح مصر ١/ ٢٢٥)، كنز العمال (٣٦٠١٠).
(٣) السنن الكبرى (٦/ ٢٤٣ برقم: ١١٨١١)، جامع الأحاديث للسيوطي (٢٥/ ٣٨٤ برقم: ٢٨٢٠٢).

إسداء النصيحة

.. بعد انتصارات خالد بن الوليـــد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ المتتالية في العراق بعث إليه أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ برسالة تهنئة ونصيحة، فقال فيها:

> **«فليهنئك أبا سليمان النية والحظوة، فأتم يتم الله لك، ولا يدخلنك عُجب فتخسر وتُخذَل، وإياك أن تدل بعمل فإن الله له الـمَنُّ وهو وليُّ الجزاء».**

.. وعندما أمَّر عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على حرب العراق أرسل إليه وأوصاه فقال:

لا يغرنَّك من الله أن قِيل خال رسول الله ﷺ وصاحب رسول الله، فإن الله عَزَّوَجَلَّ لا يمحو الســيئ بالسيئ، ولكنه يمحو السيئ بالحســن، فإن الله ليس بينه وبين أحد نسب إلا الطاعة، فالناس شريفهم ووضيعهم في ذات الله سواء، الله ربهم وهم عباده، يتفاضلون بالعاقبة ويدركون ما عنده بالطاعة، فانظر الأمر الذي رأيت رســول الله ﷺ منذ بُعث إلى أن فارقنا، فالزمه فإنه الأمر. هذه عظتي إياك إن تركتها ورغبت عنها حبط عملك، وكنت من الخاسرين[1].

الانتصاف من النفس

.. كان لعثــمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عبد، فقال لــه: إني كنت عركت أُذنك فاقتص مني، فأخذ بأذنه ثم قال عثمان: اشدد، يا حبذا قصاص الدنيا، لا قصاص الآخرة[2].

---

(١) تاريخ الطبري (٤/ ٣٠٦)، البداية والنهاية (٧/ ٤٢)، الكامل في التاريخ لابن الأثير (١/ ٤٠٨)، وحياة الصحابة (١/ ٥٤٨).

(٢) حياة الصحابة (١/ ٥٣٧)، نقلًا عن «الرياض النضرة في مناقب العشرة» للمحب الطبري (٢/ ١١١).

.. وعن إياس بن سلمة عن أبيه قال: مرَّ عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في السوق ومعه الدرة، فخفقني بها خفقة فأصاب طرف ثوبي، فقال: أمط عن الطريق. فلما كان في العام المُقبل لقيني فقال: يا سلمة، تُريد الحج؟ فقلت: نعم. فأخذ بيدي فانطلق بي إلى منزله فأعطاني ست مائة درهم وقال: استعن بها على حجِّك، واعلم أنها بالخفقة التي خفقتك. قلت: يا أمير المؤمنين ما ذكرتها. قال: وأنا ما نسيتها[١].

ثبات أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في وجه الردة

قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: لما توفي رسول الله ﷺ، نجم النفاق وارتدت العرب، واشرأبت اليهودية والنصرانية، وصار المسلمون كالغنم المطيرة في الليلة الشاتية، لفقد نبيهم، **حتى جمعهم الله على أبي بكر، فلقد نزل بأبي ما لو نزل بالجبال الراسيات لهاضها**، فو الله ما اختلفوا فيه من أمر إلا طار أبي بعلائه وغنائه[٢].

وفي الصحيح من حديث أبي هريرة، قال: لما توفي رسول الله ﷺ، واستخلف أبو بكر بعده، وكفر من كفر من العرب، قال عمر بن الخطاب لأبي بكر: كيف تقاتل الناس، وقد قال رسول الله ﷺ: «**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَمَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ فَقَدْ عَصَمَ مِنِّي نَفْسَهُ وَمَالَهُ إِلَّا بِحَقِّهِ، وَحِسَابُهُ عَلَى اللهِ**»؟

فقال أبو بكر: **والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عقالًا كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ، لقاتلتهم على منعه**، فقال عمر بن الخطاب: فو الله ما هو إلا أن رأيت أن الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال، فعرفت أنه الحق[٣].

---

(١) تاريخ الطبري (٢/ ٥٧٨)، وحياة الصحابة (١/ ٥٣٦).

(٢) الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء (٢/ ٨٨).

(٣) البخاري (٤/ ٤٨ برقم: ٢٩٤٦، ٩/ ١٥ برقم: ٦٩٢٤)، مسلم (١/ ٥١ برقم: ٢٠).

قال عمر بن الخطاب: والله لرجــح إيمان أبي بكر بإيمان هذه الأمة جميعًا في قتال أهل الردة.

عدي بن حاتم يقف في وجه قومه

وذكر ابن إســحاق: أن عدي بن حاتم كانت عنده إبل عظيمة اجتمعت له من صدقــات قومه عندما توفي رســول الله ﷺ، فلما ارتد النــاس وارتجعوا صدقاتهم، وارتدت بنو أســد، وهم جيرانهم، اجتمعت طيء إلى عدي بن حاتم، فقالوا: إن هذا الرجل قد مات، وقد انتقض الناس بعده، وقبض كل قوم ما كان فيهم من صدقاتهم، فنحن أحق بأموالنا من شُذَّاذ الناس.

فقال: ألم تعطوا من أنفسكم العهد والميثاق على الوفاء طائعين غير مكرهين؟

قالوا: بلى، ولكن قد حدث ما ترى، وقد ترى ما صنع الناس.

قال: والذي نفس عدي بيده، لا أخيس[١] بها أبدًا، ولو كنت جعلتها لرجل من الزنج لوفيت له بها، فإن أبيتم لأقاتلنكم -يعني على ما في يده وما في أيديهم- فليكونن أول قتيل يقتل على وفاء ذمته عدي بن حاتم، أو يسلمها، فلا تطمعوا أن يَسُبَّ حاتمٌ في قبره عديًّا ابنه من بعده، فلا يدعونكم عذر عاذر إلى أن تعذروا[٢]، فإن للشــيطان قادة عند موت كل نبي، يســتخف لها أهل الجهل حتــى يحملهم على قلائص الفتنة، وإنما هي عجاجة[٣] لا ثبات لها، ولا ثبات فيها، إن لرسول الله ﷺ خليفة من بعده يلي هذا الأمر، وإن لدين الله أقوامًا ســينهضون ويقومون به بعد رسول الله ﷺ، كما قاموا

(١) أي لا أخلف ولا أنقض عهدي. انظر تاج العروس للزبيدي (ج١٦ ص: ٤١) ط دار الهداية.
(٢) أي لا يجعلنكم ذنب مذنب أن تذنبوا. انظر تاج العروس مادة (عذر) (ج١٢ ص: ٥٤٢).
(٣) العجاج هو الغبار الذي تثيره الرياح ومفرده عجاجة.. تاج العروس (ج٦ ص: ٩٠).

بعهده وذو بيته في السماء[١]، لئن فعلتم ليقارعنكم على أموالكم ونسائكم بعد قتل عدي وغدركم، فأي قوم أنتم عند ذلك.. فلما رأوا منه الجد، كفوا عنه، وسلموا له[٢].

أبو دجانة يقاتل وحده!

وكان أبو خيثمة النجاري يقول: لما انكشف المسلمون يوم اليمامة تنحيت ناحية، وكأني أنظر إلى أبي دجانة يومئذٍ ما يولي ظهره منهزمًا، وما هو إلا في نحور القوم، حتى قُتل رحمه الله، وكان يختال في مشيته عند الحرب سجية، ما يستطيع غير ذلك.

قال: وكرت عليه طائفة من بني حنيفة، فما زال يضرب بالسيف أمامه وعن يمينه وعن شماله، فحمل على رجل فصرعه، وما ينبس بكلمة[٣]، حتى انفرجوا عنه ونكصوا على أعقابهم، والمسلمون مولون، وقد ابيض ما بينهم وبينه، فما ترى إلا المهاجرين والأنصار، لا والله ما أرى أحدًا يخالطهم، فقاموا ناحية، وتلاحق الناس، فدفعوا حنيفة دفعة واحدة، فانتهينا بهم إلى الحديقة، فأقحمناهم إياها.

فقال أبو دجانة: ألقوني على الترسة حتى أشغلهم، فكانوا قد أغلقوا الحديقة، فأخذوه فألقوه على الترسة، حتى وقع في الحديقة، وهو يقول: لا ينجيكم منا الفرار، فضاربهم حتى فتحها، ودخلنا عليه مقتولًا رحمه الله[٤].

• • •

(١) أي: والذي بيته في السماء، فهو قسم عند قبيلة طيء.

(٢) الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء (٢/ ٩٥).

(٣) ما ينبس بكلمة: ما ينطق بأي كلمة.

(٤) الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء (٢/ ١٢٦).

ومن ثمار الإيمان

عاشرًا: الشعور بالسكينة والطمأنينة

الإيمان الحق بالله عَزَّوَجَلَّ يعني: الثقة به سبحانه ربًّا قادرًا على فعل أي شيء.. قريبًا مجيبًا.. حاضرًا غير غائب.. عظيمًا جليلًا.. رؤوفًا رحيمًا.

> **وكلما تمكنت هـذه الثقة في قلب العبد تبددت منه المخاوف التي ترهب الناس، كالخوف من سطوة الظالمين، والخوف من المستقبل المجهول وما تخبئه الأيام.**

وكلـما ضعف الإيمان، وقلـت الثقة زادت المخاوف، وظهـرت أمارات الهلع والفزع والاضطراب عنـد التعرض لابتلاء أو نقص أو تضييق، ألم يقل سـبحانه: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ﴾؟ [آل عمران: ١٥١].

فالمشرك بالله يعاني من ضعف بل انعدام الثقة به سبحانه، وتظهر الثمرة المُرة لهذا الشرك عند النقص والابتلاء: رعبًا وفزعًا وهلعًا.

.. يقـول ابن تيمية: الخوف الذي يحصل في قلوب الناس، (كالخوف على فوات الرزق، والخوف من المستقبل المجهول) هو الشرك الذي في قلوبهم[1].

وفي المقابـل تجد المؤمن هادئ النفس، رابط الجأش، مطمئن القلب عند تعرضه للمحـن والبلايا والأقدار المؤلمـة: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ﴾ [آل عمران: ١٧٣ ، ١٧٤].

---

(١) رسائل ابن تيمية في السجن.

﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾ [الأحزاب: ٢٢].

من هنا ندرك معنى القول بأن: «حسبنا الله ونعم الوكيل» هي كلمة المؤمنين عند مواجهة المواقف الصعبة.

وكلما ازداد الإيمان ازدادت الثقة بالله حتى تصل لذروتها فتصبح ثقة مطلقة يقينية أشد رسوخًا من الجبال الرواسي، وتظهر آثارها وقت الأحداث المتشابكة والعصيبة، كمثل ما حدث لموسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عندما خرج مع بني إسرائيل فرارًا من فرعون لكنه أدركهم بجنوده ليصبح البحر أمامهم وفرعون وراءهم فيقول أتباعه: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الشعراء: ٦١].

فيجيب عليهم بهدوء الواثق في ربه: ﴿كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾ [الشعراء: ٦٢].

وفي رحلة الهجرة وبينما كان الرسول ﷺ وصاحبه في غار ثور؛ إذ بالمشركين يصلون إلى فم الغار، فيخاف أبو بكر خوفًا شديدًا على رسول الله ﷺ، وعلى الدعوة، ويقول لرسول الله ﷺ: يا نبي الله لو أن أحدهم طأطأ بصره رآنا.. إن قُتلتُ فإنما أنا رجل واحد، وإن قُتلتَ أنت هلكت الأمة، ليفاجأ بأن رسول الله ﷺ لم يتأثر بهذه المخاوف، بل كان هادئ النفس، رابط الجأش، على ثقة مطلقة بالله عَزَّوَجَلَّ، وبدا ذلك واضحًا من إجابته على ما أثاره أبو بكر من مخاوف: «**اسْكُتْ يَا أَبَا بَكْرٍ، اثْنَانُ اللهُ ثَالِثُهُمَا.. لِا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا**»[1].

(١) البخاري (٤/ ٢٠٢ برقم: ٣٦١٥)، والقصة بتمامها في سيرة ابن هشام، والرحيق المختوم.

طمأنينة القلب

من ثمار الإيمان العظيمة تلك الطمأنينة والسكينة التي يسكبها في القلب، فتجده ساكنًا عند جريان الأحداث سكون الواثق بالله، المطمئن به -سبحانه- لذلك عندما ذهـــب عمار بن ياسر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا إلى رســـول الله ﷺ، ليخبره بأنه تحـــت وطأة التعذيب والإيذاء أُكره على النيل من رسول الله ﷺ، وذكر آلهة الكفار بخير، فما كان من رسول الله ﷺ إلا أنه ســـأله: «**فَكَيْفَ تَجِدُ قَلْبَكَ؟**»، فقال عـــمار: أجد قلبي مطمئنًّا بالإيمان، فقال رسول الله ﷺ: «**فَإِنْ عَادُوا فَعُدْ**»(١).

.. وعندما أسرت الروم عبد الله بن حذافة الســـهمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال له الطاغية: تنصَّر وإلا ألقيتك في البقرة (وعاء من نحاس)، قال: ما أفعل.. فدعا بالبقرة النحاس فمُلئت زيتًا، وأُغليت، ودعا رجلًا من أسرى المسلمين فعُرض عليه النصرانية، فأبى، فألقـــاه في البقرة فإذا عظامه تلوح، وقال لعبد الله: تنصَّر وإلا ألقيتك، قال: ما أفعل، فأمر به أن يُلقى في البقرة فبكى، فقالوا: قد جزع، قد بكى. قال: ردوه، فقال عبد الله: لا ترى أني بكيت جزعًا ممـــا تريد أن تصنع بي، ولكني بكيت حيث ليس لي إلا نفس واحدة يُفعل بها هذا في الله، كنت أحب أن يكون لي من الأنفس عدد كل شعرة فيَّ، ثم تُســـلَّط عليَّ فتفعل بي هذا، قال: فأعجب منه، وأحـــب أن يطلقه، فقال: قبِّل رأسي وأطلقك، قال: ما أفعل، قال: قبِّل رأسي وأطلقك وأطلق معك ثمانين من المسلمين، قال: أما هذه فنعم، فقبل رأســـه وأطلقه وأطلق معه ثمانين من المســـلمين، فلما قدِموا على عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قام إليه عمر فقبَّل رأســـه، قال: فكان أصحاب رسول

(١) أخرجه ابن سعد (٣/ ١/ ١٧٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٤٠)، والطبري (١٤/ ١٨٢)، وأخرجه الحاكم (٢/ ٣٥٧) وصححه، ووافقه الذهبي، والكاندهلوي في حياة الصحابة (١/ ٢٢٢)، تاريخ المدينة لابن شيبة (٢/ ٤٨١).

الله ﷺ يمازحون عبد الله فيقولون: قبلت رأس علج، فيقول لهم: أُطلِق بتلك القبلة ثمانون من المسلمين[١].

مع عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

ولقد بدت هذه الثمرة المباركة جلية في جيل الصحابة، وهم الذين كتب الله في قلوبهم الإيمان..

ففي فتح مصر ذهب عبادة بن الصامت مع وفد من المسلمين لمقابلة المقوقس، فعرضوا عليه وعلى من معه من المسلمين المال وأغروهم به ليرجعوا عن فتح مصر..

فقال عبادة بن الصامت: يا هذا لا تغرن نفسك ولا أصحابك، أما ما تخوفنا به من جمع الروم وعددهم وكثرتهم، وأنا لا نقوى عليهم، فلعمري ما هذا بالذي يخوفنا، ولا بالذي يكسرنا عما نحن فيه، إن كان ما قلتم حقًّا فذلك والله أرغب ما يكون في قتالكم، وأشد لحرصنا عليكم؛ لأن ذلك أعذر لنا عند ربنا إذا قدمنا عليه، وإن قُتلنا من آخرنا كان أمكن لنا في رضوانه وجنته، وما من شيء أقر لأعيننا ولا أحب إلينا من ذلك، وإنا منكم حينئذٍ على إحدى الحسنيين: إما أن تعظم لنا بذلك غنيمة الدنيا إن ظفرنا بكم، أو غنيمة الآخرة إن ظفرتم بنا، وإنها لأحب الخصلتين إلينا بعد الاجتهاد منا، وإن الله عَزَّوَجَلَّ قال لنا في كتابه: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾ [البقرة: ٢٤٩]، وما منا من رجل إلا وهو يدعو ربه صباحًا ومساءً أن يرزقه الله الشهادة وألا يرده إلى بلاده ولا إلى أرضه ولا إلى أهله وولده، وليس لأحد منا همّ فيما خلفه، وقد استودع كل واحد منا ربه في أهله وولده، وإنما همنا ما أمامنا.

---

(١) أسد الغابة لابن الأثير (١/ ٥٩٧، ٣/ ١١، ٢١٢)، معرفة الصحابة لأبي نعيم الأصبهاني (١١/ ٣٥٢ رقم: ٣٦٠٨)، تاريخ دمشق - (٢٧/ ٣٥٩).

وأما قولك: إنا في ضيق وشـــدة من معاشـــنا وحالنا، فنحن في أوسع السعة، لو كانت الدنيا كلها لنا ما أردنا منها لأنفســـنا أكثر مما نحن عليه، فانظر الذي تريد فبينه لنا، فليس بيننـــا وبينك خصلة نقبلها منك ولا نجيبـــك إليها إلا خصلة من ثلاث، فاختر أيها شـــئت ولا تطمع نفســـك بالباطـــل، بذلك أمرني الأمـــير، وبه أمره أمير المؤمنـــين، وهو عهد رســـول الله ﷺ من قبل إلينا: إما أجبتم إلى الإســـلام الذي هو الدين الذي لا يقبل الله غيره، وهو دين أنبيائه ورســـله وملائكته، أمرنا أن نقاتل من خالفه ورغب عنه حتى يدخل فيه، فإن فعل كان له ما لنا وعليه ما علينا، وكان أخانا في دين الله، فإن قبلت ذلك أنت وأصحابك فقد سعدتم في الدنيا والآخرة، ورجعنا عن قتالكم، ولم نســـتحل أذاكم ولا التعرض لكم، وإن أبيتـــم إلا الجزية فأدوا إلينا الجزية عن يد وأنتم صاغرون، نعاملكم على شيء نرضى به نحن وأنتم في كل عام أبدًا ما بقينا وبقيتم، ونقاتل عنكم من ناوأكم وعرض لكم في شيء من أرضكم ودمائكم وأموالكـــم، ونقوم بذلك عنكم إذ كنتم في ذمتنا، وكان لكم به عهد علينا، وإن أبيتم فليس بيننا وبينكم إلا المحاكمة بالســـيف حتى نموت مـــن آخرنا أو نصيب ما نريد منكـــم. **هذا ديننا الذي ندين الله تعالى به، ولا يجوز لنا فيما بيننا وبينكم غيره**، فانظروا لأنفسكم.

موقف جامع

ونختم هذه الثمار بموقف لسيدنا معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مع قادة الروم تجلت فيه كثير من ثمار الإيمان:

أرسل أبو عبيدة معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى قادة الروم، فأتاهم على فرس له، فلما دنا منهم نزل عن فرســـه، ثم أخذ بلجامه وأقبل إليهم يقوده، فقالوا لبعض غلمانهم: انطلق إليه فأمســـك له فرسه. فجاء الغلام ليفعل، فقال له معاذ: أنا أمسك فرسي، لا

أريد أن يمسكه أحد غيري.

وأقبل يمشي إليهم، فإذا هم على فرش وبسط ونمارق تكاد الأبصار تغشى منها، فلما دنا من تلك الثياب قام قائمًا، فقال له رجل منهم: أعطني هذه الدابة أمسكها لك، وادن أنت فاجلس مع هذه الملوك مجالسهم، فإنه ليس كل أحد يقدر أن يجلس معهم، وقد بلغهم عنك صلاح وفضل فيمن أنت منه، فهم يكرهون أن يكلموك جلوسًا وأنت قائم.

فقال لهم معاذ -والترجمان يفسر لهم ما يقول-: إن نبينا ﷺ أمرنا ألا نقوم لأحد من خلق الله، ولا يكون قيامنا إلا لله في الصلاة والعبادة والرغبة إليه، فليس قيامي هذا لكم، ولكن قمت إعظامًا للمشي على هذه البسط والجلوس على هذه النمارق التي استأثرتم بها على ضعفائكم، وإنما هي من زينة الدنيا وغرورها، وقد زهد الله في الدنيا وذمها، ونهى عن البغي والسرف فيها، فأنا أجلس هاهنا على الأرض، وكلموني أنتم بحاجتكم من ثم، وأقيموا الترجمان بيني وبينكم، يفهمني ما تقولون، ويفهمكم ما أقول. ثم أمسك برأس فرسه وجلس على الأرض عند طرف البساط.

فقالوا له: لو دنوت فجلست معنا كان أكرم لك، إن جلوسك مع هذه الملوك على هذه المجالس مكرمة لك، وإن جلوسك على الأرض متنحيًّا صنيع العبد بنفسه، فلا نراك إلا قد أزريت بنفسك.

فلما أخبره الترجمان بمقالتهم جثا على ركبتيه واستقبل القوم بوجهه، وقال للترجمان: قل لهم: إن كانت هذه المكرمة التي تدعونني إليها استأثرتم بها على من هو مثلكم إنما هي للدنيا، فلا حاجة لنا في شرف الدنيا ولا في فخرها، وإن زعمتم أن هذه المجالس والدنيا التي في أيدي عظمائكم وهم مستأثرون بها على ضعفائكم مكرمة لمن

كانت في يده منكم عنـــد الله، فهذا خطأ من قولكم، وجور من فعلكم، ولا يدرك ما عند الله بالخطأ، ولا بخلاف ما جاء به الأنبياء عن الله من الزهادة في الدنيا.

وأما قولكـــم: إن جلوسي على الأرض متنحيًا صنيع العبد بنفســه، ألا فصنيع العبد بنفسه صنعت، أنا عبد من عبيد الله جلست على بساط الله، ولا أستأثر من مال الله بشيء على إخواني من أولياء الله.

وأما قولكم: أزريت بنفسي في مجلسي، فإن كان ذلك إنما هو عندكم وليس كذلك عند الله، فلست أبالي كيف كانت منزلتي عندكم إذا كنت عند الله على غير ذلك، وإن قلتم: إن ذلك عند الله. فقد أخطأتم خطأ بينًا؛ لأن أحب عباد الله إلى الله المتواضعون لله القريبون من عباد الله، الذين لا يشـــغلون أنفســـهم بالدنيـــا، ولا يدعون التماس نصيبهم من الآخرة.

فلما فسر لهم الترجمان هذا الكلام نظر بعضهم إلى بعض وتعجبوا مما سمعوا منه، وقالوا لترجمانهم: قل له: أنت أفضل أصحابك؟

فلما قال له، قال: مَعَاذَ اللهِ أن أقول ذلك، **وليتني لا أكون شرهم**[(١)].

فإنهـــم لكذلك إذ بعثوا إلى أبي عبيدة: إنك بعثت إلينا رجلًا لا يقبل النَّصَف[(٢)]، ولا يريد الصلح، فلا نرى أعن رأيك ذلك أم لا؟!

وإنا نريد أن نبعث إليك رجلًا منا يعرض عليك النَّصَف، ويدعوك إلى الصلح، فإن قبلت ذلك منه فلعله يكون خيرًا لنا ولك، وإن أبيت فلا نراه إلا شرًّا لك.

فقال لهم أبو عبيدة: ابعثوا من شئتم.

---

(١) الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء للكلاعي (٢/ ٢٢٩).

(٢) من الإنصاف وهو العدل.

فبعثوا إليه رجلًا منهم، طويلًا أحمر أزرق[١]، فلما جاء المسلمين لم يعرف أبا عبيدة من القوم، ولم يدرِ أفيهم هو أم لا؟! ولم يرَ هيبة مكان أمير! فقال: يا معشر العرب، أين أميركم؟

قالوا له: هو ذا، فنظر فإذا هو بأبي عبيدة جالسًا على الأرض عليه الدرع، وهو متنكب القوس[٢]، وفي يده أسهم يقلبها. فقال له: أنت أمير هؤلاء الناس؟ قال: نعم.

قال: فما جلوسك على الأرض؟ أرأيت لو كنت جالسًا على وسادة، أو كان تحتك بساط، أكان ذلك واضعك عند الله أو مباعدك من الإحسان؟

فقال أبو عبيدة: إن الله لا يستحي من الحق، لأصدقنك عما قلت، ما أصبحت أملك دينارًا ولا درهمًا، وما أملك إلا فرسي وسلاحي، ولقد احتجت أمس إلى نفقة فلم تكن عندي حتى استقرضت أخي هذا -يعني معاذًا- نفقة كانت عنده، فأقرضنيها، ولو كان عندي أيضًا بساط أو وسادة ما كنت لأجلس عليه دون أصحابي وإخواني، وأُجلِس على الأرض أخي المسلم الذي لا أدري لعله عند الله خير مني، ونحن عباد الله نمشي على الأرض، ونأكل على الأرض، ونجلس عليها، ونضطجع عليها، وليس بناقصنا ذلك عند الله شيئًا، بل يعظم الله به أجورنا، ويرفع به درجاتنا. هات حاجتك التي جئت لها[٣].

• • •

(١) أي أحمر الوجه أزرق العينين. الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء (ص: ١٩٦) الجزء الثاني المجلد الأول. بالهامش.

(٢) أي واضع القوس على منكبه (أي كتفه).

(٣) الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء (٢/ ٢٣٢).

كلمة أخيرة

حول ثمار الإيمان

.. هذه – أخي القارئ – عشر ثمار للإيمان الحي عندما يتمكن من القلب، قد تعرَّفنا عليها وعشنا بعض أمثلتها العملية، وكما ذكرنا – سابقًا – بأن الهدف من هذا الطرح هو اســتثارة مشــاعرنا، وتعميق شعورنا بالاحتياج الشديد للتربية الإيمانية.

ولكي يتأكد لدينا هذا الشعور علينا أن نتعرف على المزيد من الأمثلة العملية لهذه الثــمار وغيرها، وذلك من خلال القــراءة في الكتب التي تتحدث عن المعاني الإيمانية، وتربطها بالواقع العملي في جيل الصحابة.

ولعل من أنسب الكتب التي تحدثت عن جيل الصحابة بهذه الطريقة كتاب: «حياة الصحابة» لمحمد يوسف الكاندهلوي رحمه الله.

الفصل الثالث

مراحل الارتقاء الإيماني
وأهداف التربية الإيمانية

يتم –بإذن الله– الحديث في هــذا الفصل عن مراحل الارتقاء الإيماني، وبعض المظاهر العملية لهذه المراحل، والهدف من هذا الحديث هو استشعار الخطر تجاه ضعف الإيمان في قلوبنا – إلا من رحم الله.

وتذكَّــر – أخي – أنه كلما ازداد الشــعور بالخطــر، ازدادت الرغبة في التغيير والترقي.

نعم، هذه الصفحات لا تُقدم لنا حلولًا عملية –وإن كانت تلك الحلول ســتأتي بعد ذلك بعون الله في الفصول القادمة – ولكنها قد تجعلنا نشعر بأن هناك مشكلة في إيماننا تحتاج إلى علاج وإصلاح.. هذا الشعور له تأثير إيجابي في اســتقبال ما ســيأتي بيانه من توجيهات وأعمال من شــأنها أن تنهض بنا وتُصلح إيماننا بإذن الله.

لذلك أدعو نفــسي وأدعوك – أخي القــارئ – إلى قراءة هذا الفصل بعقولنا ومشــاعرنا وأن يقوم كل منّا بتقييم نفسه وحالته الإيمانية من خلال عــرض اهتماماته وســلوكه وواقعه على المراحل الإيمانيــة المذكورة في هذه الصفحات، فلعله بذلك يعرف أين هو من الإيمان؟ وأين قلبه من الله؟

مراحل الارتقاء الإيماني وأهداف التربية الإيمانية

نور القلب

كما أن للعين نورًا تُبصر به وترى ما حولها؛ فإذا ما غاب عنها عميت، كذلك فإن للقلب نورًا يُبصر به، ويرى حقائق الأمور فإذا ما غاب عنه ذلك النور عمِي وتاه وتخبط: ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ﴾ [الإسراء: ٧٢].

ونور القلب هو أهم مظهر لحياته، فبدونه يصير القلب مُظلمًا، قاسيًا ضيقًا موحشًا.

فإذا ما دخله بصيص من نور الإيمان تغيرت طبيعته، وتحسنت حالته، وظهرت بعض الآثار الإيجابية على صاحبه.

وعندما يستمر النور في الدخول، والإيمان في الزيادة والنمو؛ يتنوَّر القلب أكثر وأكثر، وتتحسن صحته، وينعكس ذلك بالإيجاب على اهتمامات وسلوك صاحبه.

أما إذا ما دخل نور الإيمان القلب -بإذن الله- ثم لم يعمل صاحبه باستمرار على زيادته؛ فسينقص حجمه، وقد يضمحل، وينزوي في القلب؛ ومن ثَمَّ تزحف الظلمة إليه مرة ثانية لتكون النتيجة: اختفاء الكثير من الآثار الإيجابية والثمار الطيبة للإيمان: ﴿ فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ ﴾ [الحديد: ١٦].

ويكفيك لتأكيد هذا المعنى قول رسول الله ﷺ: «**إِنَّ الْإِيمَانَ يَخْلَقُ فِي الْقُلُوبِ كَمَا يَخْلَقُ الثَّوْبُ فَجَدِّدُوا إِيمَانَكُمْ**»(١).

(١) المعجم الكبير (١٤/ ٦٩ برقم: ١٤٦٦٨)، المستدرك على الصحيحين (١/ ٤٥ برقم: ٥) ويخلق بمعنى: يبلى.

وقوله ﷺ: «**تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ عَرْضَ الْحَصِيرِ عُودًا عُودًا فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ..**»(١).

يقظة القلب هي البداية

كما أن للبدن مراحل نمو وارتقاء، كل مرحلة لها سماتها ومظاهرها، كذلك الإيمان في القلب.

والمرحلة الأولى للارتقاء الإيماني هي مرحلة «**بداية اليقظة**».. يقظة القلب بنور الإيمان؛ حيث يمُنُّ الله عَزَّوَجَلَّ على العبد بإدخال نور الإيمان إلى قلبه، لتبدأ الحياة تدب في جنباته، وتبدأ معها مرحلة جديدة في مسيرة صاحبه... وكيف لا، والقلب –قبل يقظته– مظلم قد سيطر عليه الهوى وتحكَّم في مشاعره.. يفرح بما تفرح به نفسه وهواها، ويغضب لها، ويحزن على ما يفوتها أو يُضايقها: ﴿**أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا**﴾ [الأنعام: ١٢٢].

تبدأ اليقظة –في الغالب– ببصيص من النور يجعل القلب يفيق قليلًا من غفلته ويستيقظ من سُباته، ليبدأ معها العقل في التفكير في حقيقة الحياة والموت، ويزداد شغفه للتعرف على تفاصيل ما يحدث بعد الموت، ومن المتوقع في هذه المرحلة، سيطرة الشعور بالندم على القلب كلما استرجع ذكريات الماضي، والأخطاء التي وقع فيها في حق الله، وفي حق الآخرين، فيدفعه هذا الشعور إلى الحياء من الله عَزَّوَجَلَّ والرجاء في عفوه ومغفرته وتوبته، ويدفعه كذلك إلى العمل على رد الحقوق التي استلبها من الآخرين.

(١) أخرجه مسلم (١/ ١٢٨ رقم: ١٤٤).

وفي هـــذه المرحلة الأولى من مراحل الارتقاء الإيماني من المتوقع أن يَصغُر حجم الدنيا -ولو قليلًا- في عين العبد، وينعكـــس ذلك على تعامله مع مفرداتها، فبعد أن كان يُســـابق ويُنافس عليها، ويُفكِّر فيها ليل نهار، ولا يُبالي -في سبيل نيلها- بغيره، وبالضرر الذي قد يُســـببه للآخرين... تجد حرصه عليها يتناقص؛ ليثمر ذلك تحسنًا ملحوظًا في المعاملات والعمل على ضبطها بضوابط الشرع، وإن بقي الكثير من حب الدنيا في القلب.

ومن أهـــم المظاهر العملية لهـــذه المرحلة: الاتجاه الإيجابي نحـــو أداء العبادات وفضائل الأعمال، فتجـــد العبد حريصًا على أداء الصلـــوات المكتوبة في أول وقتها، وإلحاقها بســـننها الراتبة، وكذلك صيام رمضان وقيامه، والإكثار من صيام التطوع، وتتملكه الرغبة في تعلم أحكام تلاوة القرآن، وحفظ بعض سوره ويزداد حرصه على ســـماع دروس العلم، والالتزام بما يمكن الالتزام به مما يُرضي الله عَزَّوَجَلَّ من عبادات الجـــوارح، ويزداد حرصه كذلك على نفع الآخرين والقيـــام بحقوقهم عليه، فتجده يصل الرحم، ويُعين المحتاج، ويسعى في قضاء حوائج الناس.

إياك والاغترار ببدايات اليقظة

وصل العديد -بفضل الله- إلى مرحلة «بداية اليقظة»، وكانوا منها على قسمين:

القسم الأول: قسم فرح بآثار اليقظة، وبالتغيير المحدود الذي حدث له، ففترت همته وعزيمته للعمل على اســـتكمال الترقي الإيـــماني، واكتفى بما صار إليه، ونسي أن الإيمان يزيد وينقص، وأن النفس له بالمرصاد؛ مما يجعل الإيمان يتناقص في قلبه شـــيئًا فشيئًا، فتعود -بالتدريج- السيطرة للهوى؛ مما يؤثر بالسلب على اهتماماته وسلوكياته.

.. نعم، في الغالب لن يعود لســـابق عهده من الغفلة الشـــديدة والنوم العميق،

والسيطرة التامة للهوى، إلا أن أحواله الإيجابية ستقل كثيرًا عن المستوى الذي بدأ به مرحلة «بداية اليقظة»، فهو يُصلي لكنه ليس -كالسابق- حريصًا على الصلاة في أول وقتها بالمسجد وبخاصة صلاة الفجر.. وهو لا يسرق لكنه غير منضبط انضباطًا صحيحًا في معاملاته المادية... وهو لا يكذب، لكنه قد لا يقول الحقيقة كاملة تنصُّلًا من لوم الآخرين أو تحقيقًا لمصلحة يتوهم تحقيقها.

تمكُّن اليقظة

أما القسم الثاني: فهو قسم قد علِم أن ما مَنَّ الله عليه به من دخول نور الإيمان إلى قلبه ما هو إلا «بداية» رحلة سير القلب إلى الله، فشمَّر عن ساعد الجد، واجتهد في تعاهد وإمداد القلب بالإيمان.

هذا القِسم من المتوقع أن يُكرمه الله عَزَّوَجَلَّ فينتقل إلى مرحلة جديدة من مراحل النمو والارتقاء الإيماني، وهي مرحلة: «تمكُّن واستحكام اليقظة».

ومن مظاهر هذه المرحلة

- زيادة الحرص على فعل الخير أكثر وأكثر.
- زيادة الورع.
- انصراف الرغبة -بعض الشيء- عن الدنيا، وعدم الفرح الشديد بإقبالها وزيادتها، أو الحزن العميق على فواتها ونُقصانها.
- ازدياد التفكير في الموت وإمكانية لقائه في أي وقت؛ مما يدفعه إلى زيادة التشمير والسباق نحو فعل الخير.

ولقد أخبرنا رسول الله ﷺ بهذه العلامات، فعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قلنا:

يا رسول الله، قوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٢٢]. كيف انشرح الصدر؟ قال: «**إِذَا دَخَلَ النُّورُ الْقَلْبَ انْشَرَحَ وَانْفَتَحَ**»، قلنا: يا رسول الله، وما علامة ذلك؟ قال: «**الْإِنَابَةُ إِلَى دَارِ الْخُلُودِ، وَالتَّجَافِي عَنْ دَارِ الْغُرُورِ، وَالْاسْتِعْدَادُ لِلْمَوْتِ قَبْلَ نُزُولِهِ**»(١).

استمرار الارتقاء الحقيقي للإيمان

عندما تتمكن اليقظة من القلب ويستمر الإمداد؛ ومن ثَمَّ النمو والارتقاء الإيماني، فإن ذلك من شأنه أن ينعكس على معاملات العبد في شتى المجالات وبخاصة في تعامله مع ربه، ومع الدنيا، ومع المال، ومع الناس، ومع أحداث الحياة...

وكلما استمرت الزيادة الحقيقية للإيمان ارتقى القلب من مرحلة إلى مرحلة في رحلة سيره إلى الله، حتى يصل إلى أقرب ما يُمكن أن يصل إليه عبد في هذه الرحلة -بعد الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ- حيث الحضور القلبي الدائم مع الله، أو بمعنى آخر: القلب السليم الأبيض الذي لا تضُرُّه فتنة ما دامت السماوات والأرض كما جاء في الحديث: «**قَلْبٍ أَبْيَضَ مِثْلَ الصَّفَا لَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ**»(٢).

وفي أثناء رحلة القلب إلى الله يحدث له حدث مهم وفارق ومحوريّ ألا وهو «**الولادة الثانية**».

وإليك -أخي القارئ- بعضًا من التفصيل حول هذه النقاط التي تتناول انعكاسات الارتقاء الإيماني على الكثير من العلائق والمعاملات.

---

(١) سنن سعيد بن منصور (٥/ ٨٦ برقم: ٩١٨)، الأسماء والصفات للبيهقي (١/ ٤٠٠ برقم: ٣٢٦).
(٢) مسلم (١/ ١٢٨ برقم: ١٤٤)، حلية الأولياء (١/ ٢٧٠).

التعامل مع الدنيا مقياس الارتقاء الحقيقي للإيمان

عندما يكون الإيمان مخدرًا نائمًا منزويًا في القلب تجد صاحبه غافلًا، لا يستطيع أن يرى الدنيا على حقيقتها، بل يراها جميلة مبهرة تذهب بالأبصار، فيشتد حرصه عليها، ويزداد فكره فيها وفي كيفية تحصيلها..

فإن كان هذا الشخص طالبًا في المدرسة أو الجامعة تجده كثير الفكر في مستقبله، وكيف سيُدبِّر أمر زواجه، وعمله... إلخ.

وإن كان فقيرًا تجده يحلم بالغنى، وينظر نظرة الطامع إلى دنيا غيره.. يمُد عينيه إليها ويتمنَّاها لنفسه...

وإن كان ثريًّا تجده دائم الفكر في كيفية إنماء أمواله، ومسابقة أقرانه، واغتنام كل فرصة تلوح أمامه من شأنها أن تُزيده ثراء.

حالهم جميعًا كحال الأطفال وهم يلهون بالدُّمى.. يفرحون إذا ما حصلوا على دُمية جديدة، ويقضون معها الساعات الطوال، ويحزنون عليها إذا ما انكسرت وتعطلت، ويحلمون بشراء المزيد والمزيد منها. فإذا جلس إليهم من يكبُرُهم قليلًا في العمر وتجاوز مرحلة الطفولة، تجده غير مبالٍ بهم وبألعابهم واهتماماتهم.

كذلك حال الناس مع الدنيا، فهم يلهون بطينها ويتنافسون عليها، ويفرحون بتحصيل أي شيء منها، ويظنُّون أن هذا هو غاية السعادة، **فإذا ما استيقظ الإيمان في قلوب بعضهم، واستحكمت اليقظة منها، فإنهم -وبصورة تلقائية- لا يجدون في أنفسهم رغبة في مشاركة من حولهم اللهو بهذا الطين، وتنصرف رغبتهم -شيئًا فشيئًا- عنها.. هذا التحول ليس بأيديهم، بل هو انعكاس لطبيعة المرحلة الإيمانية التي ارتقوا إليها، كحال من انتقل إلى مرحلة البلوغ من الأطفال عندما يأتيه أبوه بالدُّمية**

التي طالما تاقت نفسه إليها في الصِّغَر، فإذا به يتعامل معها بدون لهفة ولا شغف، وسُرعان ما يتركها ولا يُبالي بها.

وليس معنى انصراف الرغبة عن الدنيا هو هجرها وتركها وعدم التعامل مع مفرداتها، بل إن الفرد في هذه المرحلة يتعامل معها على أنها مزرعة للآخرة، وأنها مُسخَّرة له لتساعده في إنجاح مهمة وجوده عليها، ولا بأس من التمتع بها بالقدر الذي لا يُنسيه تلك المهمة.

أو بمعنى آخر: تخرج الرغبة في الدنيا، والشغف بها، والحرص واللهفة عليها من قلبه، فيتعامل معها بعقله قبل مشاعره، وبما يُحقق له مصلحته الحقيقية في الدارين، ويمكِّنه من نفع نفسه وأمته فيكون ممن يترك فيها أثرًا صالحًا؛ وبذلك تُصبح الدنيا في يده، يتحكم فيها ولا تتحكم فيه.

الارتقاء الإيماني والتعامل مع المال

المال هو أهم رمز «للدنيا»، والكثير من الناس يظنُّون أنهم يستطيعون من خلال وجوده معهم أن يُحققوا جميع أمانيهم ويجلبوا لأنفسهم السعادة، ويتمتعوا بمباهج الحياة كيفما شاءوا؛ لذلك يُشكِّل المال المادة الأساسية للطمع والتنافس والحسد بين الناس.

ولأن الشيطان يعلم ذلك، ويعلم طبيعة النفس وحبها الشديد للمال، وشُحِّها به؛ فإن من مداخله الرئيسة على الناس: إزكاء هذه الطبيعة فيهم، وتخويفهم من المستقبل المجهول، ومن احتمالية حدوث الفقر: ﴿ **ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ** ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

فإذا ما استيقظ الإيمان -يقظة حقيقية متمكنة من القلب- كان من أهم علامات التغيير الذي يحدث للمرء: اختلاف طريقة تعامله مع المال.

.. نعم، في البداية لا يكون التغيير كبيرًا، فالمال من أحب الأشياء للنفس: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾ [الفجر: ٢٠].

إلا أن النهم والشغف بالمال ستقِل ثائرته -نسبيًّا- في ذات العبد، وكلَّما نَما الإيمان أكثر انعكس ذلك على طريقة تعامله معه، فيزداد إنفاقه في أوجه الخير المختلفة، ويسهل عليه اتخاذ قرار الإنفاق لاسيما في أوقات العُسر والاحتياج: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

وشيئًا فشيئًا ينقطع تعلق القلب بالمال؛ ومن ثَمَّ يصير حُرًّا منه، لا عبدًا له.

ومن مظاهر التغيير في هذا الجانب: نقص ملحوظ يشعر به المرء في فرحه عندما يُفاجأ بزيادة رصيده من المال، أو عند الفوز بصفقة رابحة، وكذلك نقص ملحوظ في حزنه عند فقده جزءًا من ماله، أو عند ضياع مصلحة دنيوية كانت في متناول يده، وليس معنى هذا أن مشاعر الفرح والحزن لا تتحرك لديه عند إقبال المال أو إدباره، ولكنه انفعال لحظي سرعان ما يزول، يضبطه ميزان الزهد الحقيقي: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣].

ومن المظاهر العملية للتغيير في هذا الجانب: السماحة في البيع والشراء، فتجده لا يُدقق في سعر الشيء ليشتريه بأرخص الأسعار، أو يُغالي فيه ليبيعه بأعلاها.

وكلما قوي الإيمان أكثر وأكثر صار الإنفاق أحب إليه من الإمساك، وهو حين يفعل ذلك يفعله بدافع الثقة العميقة بأن الآخرة هي خير وأبقى، وأن الحياة في الجنة هي الحياة الحقيقية الدائمة التي ينبغي أن يتجهز لها العبد، فيؤدي ذلك الإيمان إلى

تحيُّن أي فرصة لإرسال ما يُمكن إرساله من أموال وخلافه إلى داره الباقية «هناك»، ويجد صعوبة في إبقاء الشيء لداره الدنيوية التي يشعر أنه سيتركها بين لحظة وأخرى.

ولك أن تتأكد من هذا المعنى أكثر وأكثر إذا ما راجعت سيرة الرسول ﷺ، وكيف أنه مات ودرعه مرهونة عند يهودي، مع أنه ﷺ قد جاءته أموال كثيرة من الغنائم كغنائم خيبر والطائف، لكنه كان يُنفقها إنفاق من لا يخشى الفقر، فكما يقول أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ما سُئل رسول الله ﷺ على الإسلام شيئًا إلا أعطاه، ولقد جاءه رجل فأعطاه غنمًا بين جبلين، فرجع إلى قومه فقال: يا قوم أسلموا، فإن محمدًا يعطي عطاء من لا يخشى الفقر[١].

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنهم ذبحوا شاة، فقال النبي ﷺ: «**مَا بَقِيَ مِنْهَا؟**» قالت: ما بقي منها إلا كتفها. قال: «**بَقِيَ كُلُّهَا إِلَّا كَتِفَهَا**»[٢].

ولقد مرَّ علينا قول أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عندما عوتب في عدم وجود أغطية في بيته تقيه وتقي ضيوفه برد الشتاء؛ حيث قال: لنا دار هناك نُرسل إليها تباعًا كل ما نحصل عليها من متاع، ولو كُنَّا استبقينا في هذه الدار شيئًا منها لبعثنا بها إليكم.

وليس معنى هذا هو حب الفقر والرغبة فيه، فلقد استعاذ رسول الله ﷺ منه فقال: «**وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْكُفْرِ وَالْفَقْرِ**»[٣]، ولكننا -هنا- نتكلم عن حالة إيمانية سامقة يعيشها القلب تدفعه إلى الضن بالمال على الدنيا، والاكتفاء بأقل القليل لتيسير أموره فيها، وإرسال كل ما يُمكن إرساله إلى الدار الباقية، وحتى لو تمتع بنعمها فإنه يشكر الله عليها ولا يستعملها في معصيته.

---

(١) مسلم (٤/ ١٨٠٦ برقم: ٢٣١٢).

(٢) مسند أحمد (٤٠/ ٢٨٦ برقم: ٢٤٢٤٠)، والترمذي (٤/ ٤٤٦ برقم: ٢٤٧٠).

(٣) مسند أحمد (٣٤/ ١٧ برقم: ٢٠٣٨١)، أبو داود (٤/ ٣٢٤ برقم: ٥٠٩٠)، سنن النسائي (٣/ ٧٣ برقم: ١٣٤٧).

ولقد كان هناك أثرياء في الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ نتيجة عملهم في التجارة كعثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ولكنهم كانوا يُحبون إنفاق أموالهم أكثر من حبهم لإمساكها، بل كانوا يتحينون أي فرصة تتاح لهم لبذل تلك الأموال كما فعل عثمان بن عفان في تجهيز جيش العسرة، وشراء بئر رومة، وكما فعل عبد الرحمن بن عوف عندما أخرج كل تجارته التي جاءت من الشام لله عَزَّوَجَلَّ بعدما بلغه قول السيدة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: بارك الله فيما أعطاه في الدنيا، ولثواب الآخرة أعظم.

الارتقاء الإيماني والتعلق بالبشر

في أوقات الغفلة وقبل حدوث اليقظة الإيمانية، تكون ثقة المرء في ربه، وفي أنه مالك الكون ومدبر أموره والقائم عليه؛ محدودة، وفي المقابل تكون ثقته في الناس وفي قدراتهم الظاهرة أمامه كبيرة؛ ومن ثَمَّ يزداد إيمانه في إمكانية نفعهم أو ضرهم له، فيسعى لنيل رضاهم والاستفادة منهم؛ لذلك تجده يتزين لهم بأقواله وأفعاله.. يفرح بمدحهم، ويحزن من نقدهم.. يسعى دومًا لتحسين صورته أمامهم لعله ينال حظوتهم.

فإذا ما حدثت اليقظة وازداد الإيمان قوةً ورسوخًا في القلب ازدادت تبعًا له الثقة في الله عَزَّوَجَلَّ؛ ومن ثَمَّ تحولت هذه المشاعر تدريجيًّا نحوه سبحانه، وانصرفت عن الناس، فيقل الاهتمام بهم والتفكير فيهم، والحرص على نيل رضاهم، وإن كان رضاهم عنه سيتحقق بعد ذلك – بإذن الله – ولكن عن طريقه سبحانه؛ تبعًا لا قصدًا.

قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ أَرْضَى النَّاسَ بِسَخَطِ اللهِ وَكَّلَهُ اللهُ إِلَى النَّاسِ، وَمَنْ أَسْخَطَ النَّاسَ بِرِضَا اللهِ كَفَاهُ اللهُ مُؤنَةَ النَّاسِ**»(١).

وقال ﷺ: «**إِذَا أَحَبَّ اللهُ عَبْدًا نَادَى جِبْرِيلَ: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبَّهُ، فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، فَيُنَادِي جِبْرِيلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي أهل الْأَرْضِ**»(٢).

وكلما ازداد الإيمان أكثر نقص التعلق بالناس، والطمع فيهم حتى يصل المرء لدرجة الاستغناء القلبي عنهم، أو بمعنى آخر: ينقطع تعلق القلب بهم من حيث النفع والضر.

.. نعم هو قد يطلب مساعدتهم في بعض الأعمال، لكنه يتعامل معهم باعتبار أنهم من جملة الأسباب التي قد يأخذ بها، أما الذي يُحرك الأحداث ويُنشئ النتائج فهو الله عَزَّوَجَلَّ، وما البشر إلا ستار لإظهار قدرته وربوبيته.

وكذلك فهو قد يأخذ منهم ما يُعطونه إياه بطيب نفس، ولكن يأخذه بمشاعر من يأخذ من الله عن طريقهم، وأنهم مجرد أدوات لتوصيل رزق ربه -سبحانه- إليه.

.. وهكذا تظهر بالتدريج ثمار الاستغناء عن الناس تبعًا لنمو الإيمان الحقيقي في القلب.

الارتقاء الإيماني والتعامل مع أحداث الحياة

الحياة الدنيوية ما هي إلا مشهد عظيم تتجلى فيه مظاهر صفات الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿**أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾**﴾ [فصلت: ٥٣].

والهدف العظيم من وجود المخلوقات بهذه الكثرة على اختلاف أشكالها وألوانها

(١) أخرجه الترمذي (٤/ ٦٠٩ برقم: ٢٤١٤).

(٢) البخاري كتاب الأدب، باب المقة من الله (٨/ ١٤ برقم: ٦٠٤٠)، (٤/ ١١١ برقم: ٣٢٠٩) كتاب بدء الخلق باب: ذكر الملائكة صلوات الله عليهم، مسلم (٤/ ٢٠٣٠ برقم: ٢٦٣٧).

وأوصافها هو الدلالة على الله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [البقرة: ١٦٤].

والهدف كذلك من تقلبات أحداث الحياة من سرَّاء وضرَّاء، وعطاء ومنع، وصحة ومرض... إلخ؛ هو إظهار قدرته سبحانه وقيُّوميته، وعزته، ورحمته، وحكمته... وسائر صفاته، وأيضًا اختبار موقف الإنسان منها: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢].

والإنسان هو المخاطب بهذا كله، وعليه أن يتعرف على ربه من خلال هذه المشاهد والأحداث التي تحدث أمامه، ويُشاهدها دومًا: ﴿انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [الأنعام: ٦٥].

لكن ظلمات الهوى والانكفاء نحو طين الأرض قد تحُول بينه وبين الرؤية الصحيحة والتحليل الحقيقي لهذه المشاهد والأحداث:

﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥].

فإذا ما استيقظ الإيمان؛ فإنه في البداية يكون بمثابة بصيص من النور يظهر في القلب يجعله ينتبه -بعض الشيء- لِما يجري حوله، وبخاصة في الآيات الكبيرة التي يرسلها الله عَزَّوَجَلَّ.

فإذا ما زاد الإيمان أكثر، قوي نور البصيرة أكثر لتزداد الرؤية العامة وضوحًا، ويزداد ربط الأحداث والمشاهد بالله عَزَّوَجَلَّ.

.. نعم، من المتوقع ألا تكون هذه الرؤية حاضرة في كل الأوقات، بل ستكون نسبتها محدودة، ولكنها ستزداد مساحتها -بإذن الله- بمرور الوقت وازدياد الارتقاء الإيماني، لتسيطر على فكر العبد ومشاعره، فتجعله يعيش بكيانه في حقيقة التوحيد، فيَعْبُرُ من المشاهدة إلى شهود صفات الله عَزَّوَجَلَّ وهي تعمل، فيربط كل ما يحدث أمامه وكل ما يشاهده بالله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ [الواقعة: ٦٣، ٦٤].

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ﴾ [الأنفال: ١٧].

وكان رسول الله ﷺ يعيش بكيانه كله في هذه الحقيقة.. انظر إليه وهو يقول لأصحابه: «**إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَا يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ، وَلَكِنَّهُمَا آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللهِ، يُخَوِّفُ بِهِمَا عِبَادَهُ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ ذَلِكَ فَصَلُّوا وَادْعُوا حَتَّى يَنْكَشِفَ مَا بِكُمْ**»(١).

وكان ﷺ يقول: «**إِنَّمَا أَنَا مُبَلِّغٌ وَاللهُ يَهْدِي، وَإِنَّمَا أَنَا قَاسِمٌ وَاللهُ يُعْطِي**»(٢).

وعندما مات ابنًا لزينب ابنته قال ﷺ: «**قُولُوا لَهَا: لِلهِ مَا أَخَذَ وَلِلهِ مَا أَعْطَى...**»(٣).

ولقد كان الصحابة كذلك يعيشون في ظلال هذه الحقيقة، فهذا عبد الله بن عتيك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بعد أن قتل أبا رافع اليهودي في حصن خيبر يعود مسرعًا إلى أصحابه

(١) البخاري في الكسوف والجمعة، باب الصدقة في الكسوف (برقم: ١٠٤٤، ١٠٤٦، وبرقم: ١٠٤٧، ١٠٥٨، ١٠٦٦، ١٢١٢، ٣٢٠٣، ٤٦٢٤)، مسلم (٢/ ٦١٨ برقم: ٩٠١، ٩٠٣)، وراجع جامع الأصول بتحقيق: عبد القادر الأرناؤوط؛ حيث استوفى تخريجه وتتبع مواضعه.

(٢) أخرجه أحمد (٢٨/ ١٣٣ برقم: ١٦٩٣٦)، والطبراني في المعجم الكبير (١٩/ ٣٨٩ رقم: ٩١٤).

(٣) البخاري كتاب الجنائز، باب قول النبي ﷺ: «**يُعَذَّبُ الْمَيِّتُ بِبَعْضِ بُكَاءِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ**» (٢/ ٩٩ برقم: ١٢٨٤)، مسلم: باب البكاء على الميت، كتاب الجنائز (٢/ ٦٣٥ برقم: ٩٢٣).

يُبشرهم بقتله ويستحثهم على سرعة مغادرة المكان، ومع هذا الوضع المتوتر إلا أنه لم ينس تلك الحقيقة فقال لهم: النجاء، فقد قتل الله أبا رافع[١].

وهذا الطفيل بن عمرو الدوسي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقُصّ على من حوله قصة إسلامه فيقول: وأبى الله إلا أن يُسمعني بعض قوله[٢].

وهذا سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُرسل رسالة إلى عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُبشره فيها بنصر القادسية فيقول فيها: ولقد استشهد «الله» فلانًا وفلانًا[٣].

وعندما كان الزبير بن العوام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يوصي ابنه عبد الله بضرورة سداد دَيْنِه قال له في معرض حديثه:

يا بُني إن عجزت عن شيء منه فاستعن عليه مولاي، قال عبد الله: فوالله ما دريت ما أراد حتى قلت: يا أبه، من مولاك؟ قال: الله.

قال عبد الله: فوالله ما وقعت في كربة من دينه إلا قلت: يا مولى الزبير اقضِ عنه دينه فيقضيه[٤].

مع المنع والعطاء

ومع انعكاس زيادة منسوب الإيمان في القلب على وضوح الرؤية لآيات الله

(١) البخاري في المغازي، باب قتل أبي رافع (٥/ ٣٢ برقم: ٤٠٣٩) وفي الجهاد باب قتل النائم المشرك (٤/ ٢٩ برقم: ٣٠٢٢)، انظر السيرة النبوية لعلي الصلَّابي (٢/ ٤١٨).

(٢) معرفة الصحابة لأبي نعيم الأصبهاني (١١/ ١٧٥ برقم: ٣٥٠٠)، السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٢٢٦).

(٣) تاريخ الطبري (٣/ ٥٨٣) تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (٤/ ١٢٠)، والبداية والنهاية طبعة هجر (٩/ ٦٣٦).

(٤) البخاري كتاب فرض الخمس، باب بركة الغازي في ماله حيًّا وميتًا (٤/ ٦٣ برقم: ٣١٢٩).

المختلفة، فإنه أيضًا ينعكس على طريقة استقبال العبد لها، وتعامله معها، فتجده يربط النعم التي تَرِد عليه بالله المنعم، ويفرح بفضله -سبحانه- ويستكثر على نفسه هذا الفضل؛ ومن ثَمَّ تهيج مشاعر الامتنان لله عَزَّوَجَلَّ في قلبه ليعيش حالة القلب الشاكر.

.. وفي أوقات المحن والبلايا تجده -وإن تضايق قليلًا في البداية- إلَّا أنه سرعان ما يعود به إيمانه إلى الصبر وعدم الجزع أو التَّسخُّط، بل ومن المتوقع -مع استمرار الزيادة الإيمانية- أن يعيش المرء في حالة الرضا عن الله، فيسكن قلبه مهما تقلَّبت به الأحداث.

وباستمرار زيادة الارتقاء الإيماني يزداد فهم العبد لأحداث الحياة وتقلباتها، وبخاصة المؤلمة منها؛ لتتحول كلها في نظره إلى عطاء من الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ **قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا** ﴾ [التوبة: ٥١].

قال رسول الله ﷺ: «**عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ لَهُ خَيْرٌ وَلَا يَكُونَ هَذَا إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ**»(١).

ومما يلزم التنويه إليه أنه مهما ارتقى الإيمان في قلب العبد إلا أن بشريته -وما فيها من ضعف- لن تُفارقه؛ لذلك فمن المتوقع أن تَزِلّ الأقدام في بعض الأمور القليلة والنادرة، لكن داعي الإيمان سُرعان ما يدفع صاحبه للعودة السريعة والتوبة النصوح، واستئناف السير إلى الله: ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾** ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

(١) أخرجه مسلم (٤/ ٢٢٩٥ برقم: ٢٩٩٩).

الارتقاء الإيماني والحالة القلبية

كلما قوي الإيمان وازداد نوره في القلب أحس المرء بانشراح في صدره، وتضاءلت أوقات شعوره بالضيق، فإذا ما استمر النور في دخول القلب ازدادت مساحة الحياة فيه، وشيئًا فشيئًا تُصبح مساحة الحياة في القلب أكبر وأكثر اتساعًا من غيرها، فيحدث حدث مهم ومادي يشعر به المرء في لحظة سعيدة من لحظات عمره، ألا وهو شعوره بتحرك قلبه في صدره حركة سريعة ومضطربة، وهذا ما يُسمى بولادة القلب الحي، أو «الولادة الثانية»، والتي يصفها أحد السلف بقوله: كنت ساجدًا في صلاة فجر يوم من الأيام، وقُمت من السجود لكني شعُرت بأن قلبي لم يقُم من سجدته.. أي: حدث له خشوع وهبوط وشدة انجذاب إلى الأسفل، وعندما قام البدن من السجود ظلَّ القلب كما هو، ثم يعود بعد ذلك إلى حالته الطبيعية إلى أن تأتي لحظات أخرى في الصلاة أو الذكر أو الدعاء أو التفكر، يتكرر فيها هذا الأمر بصورة لا إرادية.

وتفسير هذا الأمر أن القلب قبل ذلك يكون متعلقًا بأشياء تَحول بينه وبين العبودية الحقَّة لله عَزَّوَجَلَّ، كالتعلق بالمال، أو الناس أو المنصب، أو العقار.. هذه الأشياء تكون بمثابة السجن الذي يعيش فيه العبد، والوثاق الذي يُقيِّده، فإذا ما نما الإيمان في قلبه ضعُفت تلك العلائق والأغلال، حتى تأتي اللحظة السعيدة عندما تنقطع وتنفصل عن القلب، فيصير حُرًّا منها، مُتعلقًا بربه، لذلك تجده يخشع ويهبط ويضطرب عند ذكر الله، ودعائه، والتضرع إليه...

وفي هذا المعنى يقول ابن القيم: فللروح في هذا العالم نشأتان؛ إحداهما: النشأة الطبيعية المشتركة، والثانية: نشأة قلبية روحانية، يُولد بها قلبه، وينفصل عن مشيمة طبعه، كما وُلد بدنه وانفصل عن مشيمة البطن.

وفي كتاب «الزهد» للإمام أحمد أن المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ قال للحواريين: إنكم لن تلِجوا ملكوت السماوات والأرض حتى تُولدوا مرتين.

ويستطرد ابن القيم قائلًا: سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- يقول: هي ولادة الأرواح والقلوب من الأبدان، وخروجها من عالم الطبيعة، كما وُلدت الأبدان من البدن، وخرجت منه[1].

وعندما تحدث -بإذن الله وفضله- تلك الولادة للقلب، فإنه ينتقل إلى مرحلة جديدة من مراحل حياته، وتظهر آثارها بوضوح في تفاعله مع الأحداث فيصبح قلبًا رقيقًا سريع التأثر بالمواعظ، سريع الوجل والاضطراب عند ذكر الله: ﴿ **ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ** ﴾ [الأنفال: ٢]، سريع الحضور والاستدعاء في الدعاء والذكر والفكر والصلاة، وبخاصة عند تكبيرة الإحرام.

يشعر صاحبه بهبوطه وخشوعه كحالة من حالات التأثر والتجاوب مع قراءة القرآن أو الدعاء أو الذكر أو المناجاة: ﴿ **وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا** ﴾ [الإسراء: ١٠٩]. وتزداد سرعة وقوة هذا التفاعل كلما زاد نور الإيمان فيه.

الارتقاء الإيماني والعلاقة مع الله عز وجل

لكل واحد منَّا علاقات مع الآخرين.. هذه العلاقات تتفاوت ما بين القوَّة والضعف، فهناك من يحتل المرتبة الأولى، وهناك من يحتل المرتبة العاشرة، وهناك من يحتل المرتبة الخمسين، مع الأخذ في الاعتبار أن هذه المراتب لا يتم ترتيبها بقرارات من الشخص، بل هي نتيجة ممارسات، ورصيد، وثقة، ومشاعر.

(١) مدارج السالكين لابن القيم (١/ ١٤٦).

ولكل مرتبة مظاهر تميزها عن غيرهـــا، فصاحب المرتبة الأولى له مكانة خاصة عند المرء تجعله يُسِرُّ له بأسراره، ويستشيره في خصوصياته... يفرح بقربه، ويشتاق إلى رؤيته، ويَتَحيَّن أي فرصة للقائه، ويســعد بصحبتــه، ولا يمل من هذه الصحبة مهما طالت المدة.

أما صاحب المرتبة الخامســة -مثــلًا- فالأمر يختلف.. نعم، هــو يفرح برؤيته ويسعد بصحبته، ولكن ليس كالأول.

أما صاحب المرتبة العاشرة فالعلاقة أقل بكثير ممن سبقه.

فإذا ما سأل الواحد منَّا نفسه عن علاقته بربِّه، وأي مرتبة تحتل؟

فإننا ســنُفاجأ بأنها ليست في المراتب الأولى، وذلك من خلال رصد مظاهر هذه العلاقة.. فلا شوق إلى لقائه، ولا أُنس بمناجاته، ولا سعادة في قربه، ولا فرح بالخلوة بــه، ولا تنعُّم بذكره، وكل هذا بســبب ضعف الإيمان، وضعف الثقة به ســبحانه، وبقدره العظيم.

> **.. فإذا ما حدثت اليقظة الإيمانية الحقيقية، وقوي الإيمان في القلب، فإن هذه العلاقة تتحســن تدريجيًّا، وتنتقل من مرتبــة إلى مرتبة أعلى منها، وتستمر في الصعود كلما زاد الإيمان حتى تحتل المرتبة الأولى؛ حيث تزداد الرغبة في الله، والرضا به، والســعادة في ذكره، والبهجة في تلاوة كلامه، والأنس في الخلوة به ومناجاته.**

.. يزداد الحضور القلبي الدائم معه -سبحانه- ليُثمر سؤاله وطلب مساعدته في أموره كلها، وإشهاده على ما يحدث له من تكذيب المكذبين، أو إعراض الـمُعرضين، بل يصل الأمر إلى الاعتذار عن جحود الناس ونســيانهم شكر الله على نعمه: «**اللَّهُمَّ مَا أَصْبَحَ بِي مِنْ نِعْمَةٍ أَوْ بِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِكَ فَمِنْكَ وَحْدَكَ لَا شَرِيكَ لَكَ، فَلَكَ الْــحَمْدُ**

وَلَكَ الشُّكْرُ»[١].

.. ينتظـــر الفرصة التي يخلو فيها المكان، وتهدأ الأصـــوات ليخلو بربه، ويبُثُّ إليه أشـــواقه، ويعرض عليه شكايته، ويطلب منه حاجته.... يُسارع في استرضائه إذا ما وقع منه تقصير أو تجاوُز.... يزداد بذله للجهد في خدمة دينه، ودعوة خلقه إليه، ونفعهم بكل ما أنعم الله عليه: «**أَحَبُّ النَّاسِ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ**... »[٢].

.. يشعر بالغنى به، ويعيش قلبه في حالة من الامتنان نحوه سبحانه.

.. يزداد ويزداد تعلقه به، واستغناؤه عن غيره.

هـــذا هو معنى الوصـــول إلى الله في الدنيا، فكما يقول ابن رجـــب: الوصول إلى الله نوعان: أحدهما في الدنيا، والثاني في الآخرة.

فأما الوصول الدنيـــوي فالمراد به: أن القلوب تصل إلى معرفتـــه، فإذا عرِفته أحبَّته وأنِســـت به، فوجدته منها قريبًا، ولدعائها مجيبًا، كما في بعض الآثـــار: «ابْنَ آدَمَ، اطْلُبْنِي تَجِدْنِي، فَإِنْ وَجَدْتَنِي وَجَدْتَ كُلَّ شَيْءٍ، وَإِنْ فُتُّكَ فَاتَكَ كُلُّ شَيْءٍ».

وأمـــا الوصول الأخروي: فدخول الجنة التي هي دار كرامة الله لأوليائه، ولكنهم في درجاتها متفاوتون في القرب بحسب تفاوت قلوبهم في القرب: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ۝١١﴾ [الواقعة: ١٠، ١١][٣].

(١) أخرجه أبو داود (٤/ ٣١٨ برقم: ٥٠٧٣)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٥ برقم: ٩٨٣٥)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤/ ٨٩، برقم: ٤٣٦٨).

(٢) رواه الطبراني في الكبير (١٢/ ٤٥٣ برقم: ١٣٦٤٦)، وفي المعجم الأوسط (برقم: ٦٠٢٣)، وفي المعجم الصغير (٢/ ٣٥).

(٣) المحجة في سير الدلجة للحافظ ابن رجب (٤/ ٤٢٩).

أهداف التربية الإيمانية

تم بفضل الله الحديث في الصفحات السابقة عن مراحل إيقاظ وتجديد الإيمان، والتي من المفترض أن يشعر بآثارها الفرد في تعامله مع ربه، ومع الدنيا، ومع الناس، ومع أحداث الحياة، ويشعر بآثارها كذلك في أحوال قلبه.

ويمكننا أن نُصيغ هذه المراحل في أهداف ثلاثة؛ نضعها أمامنا ونسعى للوصول إليها -بإذن الله-.. هذه الأهداف هي:

أولًا: الهدف القريب

وهو تمكُّن واستحكام اليقظة من القلب، فلا نريد يقظة لحظية، بل نريدها يقظة حقيقية دائمة تتمكن من القلب لتبدأ معها الحياة تدب في جنباته، ولقد أجمل آثارها رسول الله ﷺ عندما سُئل عن علامات دخول النور القلب فقال: «**الْإِنَابَةُ إِلَى دَارِ الْخُلُودِ، وَالتَّجَافِي عَنْ دَارِ الْغُرُورِ، وَالِاسْتِعْدَادُ لِلْمَوْتِ قَبْلَ نُزُولِهِ**»(١).

ثانيًا: ولادة القلب الحي

هذا الهدف لا يمكن الوصول إليه إلا باستمرار تزويد القلب بالإيمان بعد تمكُّن اليقظة منه، والمقصود بولادة القلب الحي: أي تحرره من أَسر الهوى وانفصاله عنه. أو بمعنى آخر: انقطاع الحبل الذي يجمع العلائق التي كان القلب مُتعلقًا بها من دون الله كالمال والجاه والناس، التي تحول بينه وبين التعلق التام بالله عَزَّوَجَلَّ، والالتزام به، والتوجه الدائم نحوه.

(١) سنن سعيد بن منصور (٥/ ٨٦ برقم: ٩١٨)، الأسماء والصفات للبيهقي (١/ ٤٠٠ برقم: ٣٢٦).

هذه الولادة تتـــم عندما يعلو النور في القلب على الظلمـــة بصورة كبيرة، ومن علامات حدوثها: رقة القلب وسرعة تأثره بالمواعظ، وهبوطه وخشـــوعه وسجوده لله، وســـهولة اســـتدعائه إذا أراد صاحبه اســـتحضاره، ومن آثارها كذلك: تحسن ملحـــوظ في علاقات المرء المختلفة، فيزداد قربه من ربه، وتعلقه به، وتنقص رغبته في الدنيا بصورة ملحوظة، ويقل طمعه في الناس، ويزداد تشميره نحو الجنة...

ومن آثارها كذلك: راحة البال والشعور بالسكينة والطمأنينة والسلام الداخلي.

الهدف الثالث: الحضور القلبي الدائم مع الله

والتعلق الشـــديد به -سبحانه- أو بمعنى آخر: تحقيق قوله ﷺ عندما سُئل عن الإحسان فقال: «**أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ**»(١)، وهذا يحدث إذا ما استمر الإمداد الإيماني للقلب، فيزداد فيه النور، حتى يصير قلبًا سليمًا أبيضَ، ومن آثار ذلك:

خضوع المشاعر والسلوك في مجمله لله عَزَّوَجَلَّ كما قال رسول الله ﷺ:

«**مَنْ أَحَبَّ للهِ، وَأَبْغَضَ للهِ، وَأَعْطَى للهِ، وَمَنَعَ للهِ، فَقَدِ اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ**»(٢).

وقال ﷺ: «**لَا يَبْلُغُ الْعَبْدُ حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ حَتَّـــى يَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ**»(٣).

ومـــن آثارها كذلك: التعامل مع أحداث الحياة وتقلباتها المختلفة تعاملًا إيمانيًّا كما قال رسول الله ﷺ: «**عَجَبًا لِأَمْرِ الْـــمُؤْمِنِ! إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ لَهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا**

(١) مسلم (١/ ٣٩ برقم: ٨) كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان، الترمذي (٥/ ٦٠ برقم: ٢٦١٠) كتاب الإيمان، باب ما جاء في وصف جبريل للنبي ﷺ الإيمان والإسلام.

(٢) أخرجه أبو داود في السنة، باب الدليل على زيادة الإيمان (٥/ ٦٠ برقم: ٤٦٨١).

(٣) مسند البزار (١٠/ ٤٥ برقم: ٤١٠٧) ابن أبي عاصم في السنة (١/ ١١٠ برقم: ٢٤٦).

لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَــكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَــهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»[1].

> **والقلب في هذه المرحلة العظيمة يعيش في ســعادة عظيمة وعلاقة متينة مع ربه.. فهو شــاكرٌ لأنعمه، صابرٌ على بلائه، راضٍ بقضائه، مطمئنٌّ بذكره، في شوق دائم إليه وتوجه مستمر نحوه.**

نســأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يشــملنا بعظيم فضله، وأن يجعلنا مــن أصحاب القلوب الســليمة المطمئنة، وأن ينورها بنور الإيمان بــه، ويخرجها من ظلمات الجهل والغفلة والهوى.

• • •

(١) أخرجه مسلم (٤/ ٢٢٩٥ برقم: ٢٩٩٩) في الزهد، باب المؤمن أمره كله خير.

الفصل الرابع

حقيقـــة الإيمـــان

الهدف الذي ترمي إليه صفحات هذا الفصل هو وضوح الرؤية حول حقيقة الإيمان، والفـــارق بين الإيمان والعمل الصالـــح (عبادات القلوب، وعبادات الجوارح)، وكيف نعرف أن إيماننا قد ازداد مع الطاعة أم لم يزدد؟

وتُجيب هذه الصفحات عن السؤال الذي يشغل بال الكثيرين:

لماذا لا نرى آثارًا سلوكية إيجابية للأعمال الصالحة التي نؤديها؟!

.. وإن كان الحديث في هذا الفصل يغلب عليه الجانب العقلي، إلا أن له أهمية كبيرة في الفهم المتكامل لحقيقة الإيمان.. هذا الفهم ســـيكون له – بإذن الله – انعكاس إيجابي على طريقة التعامل مع العبادات والأعمال الصالحة.

لذلك أطلب من نفسي ومنك – أخي القارئ – أن نقرأ هذه الصفحات بهدوء وتركيز شديدين، وأن تكون قراءة متصلة غير منقطعة؛ لأنها تتضمن أفكارًا وعناصر متسلسلة، ينبني كل واحد منها على الآخر، والله المستعان.

حقيقة الإيمان

رأينا فيما ســبق كيف أن للإيمان آثارًا عظيمة تنال الفرد والأمة، كما تم -بفضل الله- الحديث عن مراحل النمو الإيماني، وأهداف التربية الإيمانية ليبقى السؤال:

وكيف لنا أن نُحقق هذه الأهداف ونرى هذه الآثار؟

هــل المطلوب لكي نتمتع بثمار الإيمان أن نؤدي الصــلاة على وقتها، وأن نُطيل المكث في المسجد، ونُكثر من القيام بالأعمال الصالحة المختلفة؟

.. مع الأهمية القصوى لهذه الأعمال إلا أننا نُشــاهد من يقوم بها أو ببعضها، ولا نــرى آثارًا مثل التي ذُكرت ســابقًا أو حتى قريبة منها، بل قــد نجد العكس -والله أعلم- فقد نجد شخصًا يحافظ على أداء الصلوات في المسجد، ويُصلي النوافل، ويُكثر من ذكر الله بلسانه، ومع ذلك تجده شــديد الحرص على ماله، يحسب كل شيء بأدق تفاصيله.. يُفكر دومًا في تحصيل حقِّه أولًا قبل حقوق الآخرين، شــديد التركيز مع الدنيا، إذا ذهب لشراء شيء ما تجــده -في الغالب- ينتقل بين الحوانيت للبحث عن الأرخــص ثمنًا، فإذا ما اســتقر على حانوت مــا، تجده يدخــل في صراع مع البائع لتخفيض الثمن إلى أقصى ما يُمكن تخفيضه.

وإذا ما كان صاحــب عقار تجده يتعامل مع المســتأجرين معاملة جافة غليظة، ويجتهد في التنصل من حقوقهم عليه.

قد يُعامل زوجته وأولاده معاملة حادَّة وجافة، فيُحاسبهم على كل شيء، ويُدقق معهم في كل صغيرة وكبيرة.

يُصاب بالفزع والهلع إذا ما أُصيب ماله بخسارة ولو طفيفة، أو ضاعت من بين يديه صفقة رابحة.. يحسد الآخرين على فضل الله عليهم، وفي المقابل تجده يخاف من الحسد خوفًا شديدًا، فلا يكاد يُظهر فضل ربه عليه وإن اضطره ذلك للكذب.

وليس هذا خاصًّا بالأغنياء فقط، فالفقراء ومتوسطو الحال كذلك قد تجد فيهم بعض التناقض بين عباداتهم الظاهرة وبين سلوكياتهم ومعاملاتهم، ومن ذلك: شدة حرصهم على الدنيا، والحزن على فوات شيء يسير منها، والتلهُّف عليها، وكثرة التفكير في المستقبل.

وينكشف حجم الإيمان الضعيف أكثر وأكثر عند المساس بمصالحهم الدنيوية، فلا غضاضة من الكذب، وعدم الوفاء بالعهود والوعود إذا كان هذا سيحقق لهم نفعًا أو يصرف عنهم ضرًّا.

الدنيا والمال

مما لا شك فيه أن المحافظة على أداء الصلوات من مظاهر الإيمان، ولكن عندما لا تتواكب هذه المظاهر مع هوان الدنيا في عين صاحبها، وضآلة حجمها في قلبه، فإن ذلك يُعد بمثابة مؤشر خطير لعدم تمكُّن الإيمان من قلبه، وعدم وصوله لمرحلة «استحكام اليقظة».

فإن قلت: أليس الإيمان هو الذي دفعه للصلاة؟!

.. نعم، الذي دفعه لأداء الصلاة -بجوارحه- هو القدر المحدود من الإيمان في قلبه، وفي المقابل فإن الذي يمنعه من التفاعل معها والتأثر بها هو محدودية هذا الإيمان وعدم يقظته، والدليل على ذلك هو عدم ظهور آثار أدائه للصلاة على سلوكه بصورة ملحوظة.

ونفس الكلام ينطبق على الأخلاق والمعاملات، فإن لم يحدث تحسن فيها فإن ذلك يعني أن الإيمان لم يتحسن، وإن قام المرء بأداء الكثير من صور العبادات والأعمال الصالحة.

فأين تكمن المشكلة؟ أين أثر العبادة؟

.. الإجابة عن هذه الأسئلة تدعونا لأن نتعرف أكثر على القلب وعلى الإيمان وحقيقته...

القلب والمشاعر

الإيمان مكانه القلب وليس العقل: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ﴾ [الحجرات: ١٤].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ﴾ [المائدة: ٤١].

والقلب هو مركز الإرادة داخل الإنسان، وهو الملك على الجسد كله، وما من فعل أو سلوك إرادي نقوم به إلا ويأخذ الأمر بالتنفيذ من القلب: «**أَلَا إِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ.. أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ**»(١).

ومن أهم خصائص القلب أنه مَجمع المشاعر داخل الإنسان.. مشاعر الحب والشوق، والرغبة والرهبة، والطمأنينة، والاشمئزاز، والجزع والهلع، والرعب،

(١) جزء من حديث متفق عليه: أخرجه البخاري (١/ ٢٢ برقم: ٥٢) كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، ومسلم (٣/ ١٢١٩ برقم: ١٥٩٩).

والغيظ، والرأفة والرحمة، والوجل والسكينة...

﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾ [الأنفال: ١٢].

﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد: ٢٨].

﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ [الزمر: ٤٥].

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفتح: ٤].

﴿وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ [الحديد: ٢٧].

﴿لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٥٦].

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢].

﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة: ١٥].

معنى ذلك أن الدافع والمُحرك للسلوك الإرادي هي المشاعر.

الإيمان والمشاعر

ولأن الإيمان محله القلب، والقلب هو مجمع المشاعر داخل الإنسان، فالإيمان -إذن- محله المشاعر:

- ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [الفتح: ٤].
- ﴿فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج: ٥٤].
- ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ٧].

ومن أحاديث الرسول ﷺ التي تؤكد هذا المعنى:

«ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا للهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَهُ اللهُ مِنْهُ، كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ»(١).

وقوله ﷺ: «إِنَّ أَوْثَقَ عُرَى الْإِيمَانِ أَنْ تُحِبَّ فِي اللهِ وَتُبْغِضَ فِي اللهِ»(٢).

فالإيمان -إذن- هو الذي يوجه المشاعر؛ ومن ثَمَّ السلوك، مع الأخذ في الاعتبار أن الهوى أيضًا له دور بارز في توجيه المشاعر، ولكن ما هو الهوى؟

الهوى والمشاعر

من تعريفات النفس أنها مَجمع الشهوات والغرائز داخل الإنسان، والهوى هو ما تميل إليه النفس. والنفس تهوى الراحة وتكره التكليف، تُحب الظهور والمدح، وتكره النقد والذم، تُحب الاستمتاع بالشهوات، وتضيق بمنعها، ترغب في الانتصار لرأيها، وتنفر ممن يُخالفها.

هذه الأهواء لا يُمكن التعبير عنها على أرض الواقع إلا من خلال القلب؛ لأنه هو مركز الإرادة، لذلك فهي تعمل على السيطرة عليه، والتمكُّن من المشاعر لتستطيع من خلالها تنفيذ ما تُريده وتهواه.

الصراع بين الإيمان والهوى

الإيمان محله المشاعر، والهوى كذلك. والمشاعر هي الدافع الأساسي للسلوك

(١) البخاري كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان (١/ ١١ برقم: ١٦، ٥٦٩٤، ٦٥٤٢)، ومسلم (١/ ٦٦ برقم: ٤٣).

(٢) مسند الإمام أحمد (٣٠/ ٤٨٨ برقم: ١٨٥٢٤)، البغوي في شرح السنة (١٣/ ٥٣ برقم: ٣٤٦٨)، البيهقي في شعب الإيمان (١/ ٣٩ برقم: ١٣).

الإرادي، فلمن تكون الغلبة على المشـــاعر؟ ومن الذي يستطيع الاستئثار بها: الإيمان أم الهوى؟

الإجابة عن هذا الســـؤال يُحددها قوة أحدهما عند القيـــام بالأعمال المختلفة، فعلى ســـبيل المثال: عندما يســـتيقظ المرء وقت أذان الفجر يحدث صراع داخلي بين إيمانه بالله الذي يُملي عليه الامتثال لأوامره بالقيام للصلاة، وبين هوى نفسه وحبها للراحة والنوم، فإن كان الإيـــمان وقتها أقوى من الهوى فمن المتوقع أن يقوم المرء من فراشـــه، وينطلق للصلاة، وإن كان الهوى هو الأقوى كان الإخلاد إلى النوم هو القرار النهائي، ويؤكد هذا قوله تعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ ﴾ [القصص: ٥٠].

هل الإيمان هو المعرفة؟

يُعرِّف البعض الإيمان بأنه هو المعرفة، معرفة أن الله عَزَّوَجَلَّ هو رب كل شيء، وأنه هو الخالق، القدير، الرزاق...

ولكننا نرى أُناسا يُقرُّون بربوبية الله ولكنَّهم لا يتوجهون إليه بالعبادة، فلو كان الإيـــمان هو مجرد المعرفة لدفعتهـــم تلك المعرفة إلى التوجه بالعبادة نحوه، وخشـــيته وتقواه والتوكل عليه.

ولقد قصَّ القرآن علينا نماذج لهؤلاء: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [يونس: ٣١].

﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ

﴿لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [المؤمنون: ٨٤ - ٨٧].

فالمشركون يعرفــون أن الله هو ربُّ كل شيء، ويُقرُّون بألســنتهم بهذه الحقيقة لكنهم -مع ذلك- لا يعبدونه.. لماذا؟!

لأن هــذه المعرفة لم يصل مدلولها إلى القلب فتصبح إيمانًا، والدليل على ذلك هو عدم تنفيذهم لمقتضيات هذه المعرفة، فلو كانت معرفة إيمانية لدفعتهم إلى التوجه إلى الله بالعبادة، أما المعرفة العقلية البحتة فلن تكون دافعًا للســلوك إلا إذا انتقل مدلولها إلى القلب، وامتزجت بالمشاعر، وأصبحت إيمانًا راسخًا فيها.

فإن كان الأمر كذلك، فما هو الإيمان؟

الإيمان بالشيء هو التصديق به: ﴿وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [المعارج: ٢٦].

والإيمان محله القلب... فكيف يكون تصديق القلب للشيء؟

تصديق القلب للشيء هو اطمئنانه له، وثقته فيه، وعدم الارتياب أو الشك فيه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾ [الحجرات: ١٥].

انظر إلى قول اليهود كما أخبرنا القرآن:

﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ [آل عمران: ٧٣]. أي: لا تثقوا ولا تطمئنوا ولا تُصدِّقوا إلا من تبع دينكم.

وعدم الإيمان بالشيء هو رفضه وإنكاره والتشــكيك فيه: ﴿فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [النحل: ٢٢].

﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [التوبة: ٤٥].

فأول وأهم مرحلة للانقياد للشيء هي الإيمان به (أو الاطمئنان له، والثقة فيه)، فالذي يأخذ دواء ما لا بد وأن يكون قد اطمأن له بقلبه، وألَّا يكون شاكًّا ولا مُرتابًا فيه.

والذي يجد أمامه عدة طرق، ولا يدري أيها يوصله إلى مقصوده فإنه يظل يسأل ويتقصى حتى تزول حيرته، ويطمئن إلى الطريق الصحيح، فيتوجه إليه، فإن لم يترجح لديه طريق، وسار في أحدها من باب التجربة، تجده شاكًّا مرتابًا متحيرًا أثناء سيره، ويظل كذلك حتى يجد علامة أو آية تُذهب حيرته، وتبعث الإيمان والاطمئنان إلى قلبه بأن ما يسير فيه هو الطريق الصحيح.. تأمل قول الحواريين وهم يطلبون من عيسى ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ نزول مائدة من السماء عليهم: ﴿ **قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا** ﴾ [المائدة: ١١٣].

> **من هنا نقول بأن الإيمان هو تصديق القلب واطمئنانه وثقته في الفكرة التي تُطرح على العقل، هذه الثقة تبدأ صغيرة وتنمو إذا ما تم تغذيتها حتى تصل إلى ثقة مطلقة بلا أدنى ريب أو شك.**

الفارق بين القناعة العقلية بالفكرة وبين الإيمان بها

قد تُناقش شخصًا ما في أمر من الأمور فيقتنع أمامك بما تقول، لكنه لا يفعل مقتضيات هذا الاقتناع، كأن تُناقشه -مثلًا- في ضرورة وأهمية مقاطعة منتجات الدول التي أساءت إلى الرسول ﷺ، وتعرفه كيف يُمكن لهذه المقاطعة أن تؤثر على هذه الدول، فيُبدي أمامك اقتناعه بما تقول بعد سلسلة من الاعتراضات والمناقشات، وبعد ذلك تجده لا يُقاطع تلك المنتجات، فما السبب في ذلك؟

السبب أنه وإن كان قد اقتنع بعقله إلَّا أن قلبه لم يطمئن اطمئنانًا كاملًا لما تقول،

أي أنه لم يؤمن بما تقول: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡ﴾ [المائدة: ٤١].

ومما لا شك فيه أن بداية الإيمان بالشيء هو الإقرار العقلي به، ولكن إن توقف هذا الإقرار عند حدود العقل، ولم يمتزج بالمشاعر، ولم تحدث الطمأنينة والثقة فيه، فقد ابتعد عن مفهوم الإيمان؛ ومن ثَمَّ فلن تظهر له ثمرة في السلوك، وهناك أمثلة كثيرة تؤكد هذا المعنى:

فدراسة أبحاث القضاء والقدر من كتب العقيدة وعلم الكلام، قد تصل بالمرء إلى الاقتناع بحقيقة القضاء والقدر، إلا أنها -في الغالب- لا تُنشئ إيمانًا حقيقيًّا به، بحيث تظهر آثاره عند مواجهة الأقدار المؤلمة، وسبب ذلك أن أغلب هذه الكتب تُخاطب الفكر فقط، ولا تؤثر في المشاعر، وفي المقابل لك أن تقرأ القرآن وتنظر إلى طريقته في إقناع العقل وإلهاب المشاعر فيمتزج الفكر بالعاطفة وينشأ الإيمان -إن انتفت الموانع-[1].

ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٢٣﴾ [البقرة: ٢٣].

فهذا خطاب يُناقش العقل بالحجة ويتحدَّاه حتى يُقر بالعجز فيقتنع بصدق الرسالة وأنها من عند الله، لكن الأمر لا يتوقف عند ذلك، بل نجد الآيات التي

(١) هناك موانع للإيمان تندرج جميعها تحت سببين اثنين: الجهل والهوى، فالجهل بالحق وعدم معرفته وعدم وصوله للفرد بطريقة صحيحة هو السبب الأول، أما السبب الثاني وهو الهوى: فهو إما أن يكون بسبب الكبر واستعظام النفس أن تسمع من غيرها، وإما بسبب حُبّ الدنيا والرغبة في الاستمتاع بها دون ضوابط أو تكاليف، أو خوفًا على النفس من تبعات الإيمان بالحق: ﴿فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡۚ﴾ [القصص: ٥٠].

تتلوها تُخاطب المشاعر حتى يحدث المزج بين الفكر والعاطفة:

﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [البقرة: ٢٤، ٢٥].

وخلاصة القول في هذه المسألة بأنه ليست العبرة فقط بتصديق العقل واقتناعه بالشيء الذي يراه أو يسمع عنه، بل لا بد من أن يُصاحب ذلك تصديق قلبي، أي: اطمئنان وثقة ورضا بهذه المعلومة.

انظر إلى هذا التسلسل الواضح للسلوك الإرادي (إصغاء من العقل للمعلومة، ثم تصديق واقتناع بها ثم طمأنينة ورضى قلبي يدفع للسلوك).

وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾ [الأنعام: ١١٢، ١١٣].

شمول معنى الإيمان

والجدير بالذكر أن الإيمان كلمة عامة تشمل كل تصديق واطمئنان وثقة قلبية بأي شيء يقتنع به العقل وإن كان باطلًا: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ ﴾ [النساء: ٥١]، ﴿ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾[النحل: ٧٢].

لذلك نجد تضحيات عظيمة من بعض أصحاب الأفكار الباطلة في ســبيل نشر دعوتهم وإعلاء رايتهم، فهم يفعلون ذلك بدافع إيمانهم القوي بهذه الأفكار.

بل إن هذا الأمر يشمل أمور الدنيا كذلك، فالذي يذهب لطبيب ما ويُفضّله على غيره، فإنــه يفعل ذلك بدافع ثقته فيه أو بمعنى آخر: إيمانــه به، وكذلك الذي يقوم بإصلاح سيارته عند شخص ما دونًا عن غيره، و... إلخ.

مفهوم الإيمان بالله

فإن أردنــا أن نُخصص مفهوم الإيمان العام عــلى «الإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ»، فيكون الإيمان بالله هو الثقة والطمأنينة فيه ســبحانه.. في قدرتــه المطلقة، وقيُّوميِّته الدائمة، وقوته غير الــمُتناهية، وعلمــه الذي أحاط بكل شيء، وحكمته العظيمة، وســعة حلمه، وكرمه، و....

وكلما ازداد الإيمان بصفاته ســبحانه، أو بمعنى آخر: كلما ازدادت الثقة في هذه الأسماء والصفات؛ انعكس ذلك على تعامل العبد معه، بمعنى أنه كلَّما ازدادت الثقة في الله «الحكيــم» ازدادت حالة الرضا عند العبد، وكلَّــما ازدادت الثقة في قيُّوميِّة الله وإحاطته بكل شيء ازدادت حالة التقوى والتوكل على الله.

وهكذا يكون انعكاس زيادة الثقة (الإيمان) بالله وبأسمائه وصفاته على القلب هو مزيد من العبودية له مــن تقوى، وحب، وتوكل، ورغبة ورهبــة، وإنابة، وتعظيم، ومهابة.

ونفس المعنى ينطبق على جميع أركان الإيمان، فكلَّما ازداد الإيمان بالبعث (الثقة في حدوثه) زاد تشمير العبد في الاستعداد له... وهكذا.

الإيمان محض فضل من الله عز وجل

مع كل ما قيل وسيقال -بإذن الله- في هذه الصفحات عن الإيمان وحقيقته وموانعه، إلا أنه لا بد من التذكير والإقرار بالأمر الأساسي في هذه القضية ألا وهو: أن الإيمان محض فضل من الله عَزَّوَجَلَّ، حتى لا تُنسى هذه الحقيقة في خضم هذا الحديث.

فإن كانت البداية هي اقتناع العقل بالحق، فإن انتقال هذه القناعة إلى المشاعر واطمئنانها بها، وثقتها فيها محض فضل من الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿**فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ**﴾ [الأنعام: ١٢٥].

ومع ذلك فإن هذا الفضل يمنحه الله عَزَّوَجَلَّ **لمن يجد لديه رغبة، واستعدادًا لذلك،** تأمل قول الله تعالى: ﴿**وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ۝٨**﴾ [الحجرات: ٧، ٨]. فالآية الأولى تنتهي بقوله تعالى: ﴿**أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧**﴾ أي: الذين استخدموا عقولهم استخدامًا صحيحًا في البحث عن الحق، والآية الثانية تنتهي بقوله تعالى: ﴿**وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ۝٦**﴾، أي: يعلم -سبحانه- من يستحق هذا الفضل، وحكيم في منحه إياه عندما يجده مهيأ له: ﴿**وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٢١**﴾ [النور: ٢١].

فالإيمان محض فضل من الله لا يمكن لأحد أن يصل إليه بنفسه: ﴿**وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ**﴾ [الأنفال: ٢٤]، ﴿**وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تُؤۡمِنَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ**﴾ [يونس: ١٠٠].

ومع ذلك فلقد جعل الله عَزَّوَجَلَّ أهم شرط لاستجلابه هو: وجود الرغبة والاستعداد لتلقيه، ففي الحديث القدسي: «**يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ**»[1] أي: ارغبوا في الهداية، واطلبوها مني أمنحكم إياها.

ونجد آيات كثيرة في القرآن تؤكد هذا المعنى كقوله تعالى: ﴿**وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ**﴾ [الأنعام: ٥٣].

فالقلب «المتواضع» الذي من عادته استقبال العطايا بالامتنان والشكر هو القلب المؤهل لتلقي فضل الله عليه بالهداية عندما يُعرَض الحق على عقله ويقتنع به، على العكس تمامًا من القلب الجاحد المتكبر: ﴿**سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًاۚ**﴾ [الأعراف: ١٤٦].

• • •

(١) أخرجه مسلم (٤/ ١٩٩٤ برقم: ٢٥٧٧).

الحالة الإيمانية (متى يزداد الإيمان)؟

نستمع في خطب الجمعة ودروس العلم في المساجد، ومن خلال وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية إلى كلام كثير يتناول جوانب الدين المختلفة من عقيدة وأخلاق وعبادات ومعاملات من علماء ودعاة أفاضل، فهل يزداد إيماننا باستماعنا لحديثهم؟!

الإجابة عن هذا السؤال تستدعي تذكُّر ما قيل في الصفحات السابقة حول الفارق بين القناعة العقلية -فقط- بالفكرة، وبين الإيمان بها، فالإيمان بالفكرة يعني: قناعة عقلية يُصاحبها انفعال وجداني.

فعندما أستمع إلى خطيب الجمعة وهو يطرح قضية مهمة، فأنتبه إلى كلامه، وأقتنع به، ثم لا أجد مشاعري تتجاوب معه، فإن هذا معناه أن كلامه وقف عند حدود العقل، ولم يصل إلى القلب؛ ومن ثَمَّ لم يُنشئ إيمانًا..

فإن انفعلت معه وتأثرت بحديثه عندما قصَّ قصة مؤثرة تؤكد المعنى الذي يطرحه كان وقت التأثر هو الوقت الذي زاد فيه الإيمان.

والمقصود بالانفعال والتأثر هو حركة المشاعر بأنواعها المختلفة من فرح واستبشار ورغبة ورهبة وشوق وإجلال وسكينة، ... إلخ.

أي أن مشعر الخوف أو الفرح أو الشوق أو الاستبشار قد استثير. فالتأثر هو عنوان لتفاعل مشعر أو أكثر مع ما يُطرح على العقل من أفكار.

معنى ذلك أننا يُمكننا معرفة الوقت الذي يزداد فيه الإيمان في قلوبنا، وذلك حين تتجاوب مشاعرنا مع ما نسمعه من معانٍ دينية، أو مع العمل الذي نقوم به.

فحين يدخل المرء إلى الصلاة ولا تتجاوب مشاعره فيها (مشاعر الخضوع والخشوع، ...) لله عَزَّوَجَلَّ، فهذا معناه أن صلاته لم تقم بزيادة الإيمان في قلبه، أما إذا تأثر وانفعل مع دعائه في سجود الركعة الثانية -مثلًا- فإن هذا هو القدر الذي زاد فيه الإيمان -بإذن الله-.. وهكذا.

من هنا نقول بأنه ليست العبرة بكثرة الأعمال التي يقوم بها المرء، بل العبرة بمقدار تجاوب القلب معها وتأثره بها، وانفعال مشاعره معها..

فوجود القلب مع العمل، أو حضوره، أو جمعه، أو تجاوبه، أو مواطأته للسان في الذكر.. كلها معانٍ مترادفة «للتأثر» بصوره المختلفة.

الإيمان والطاعة

الإيمان يزداد بالطاعة.. نعم، ولكن شريطة أن يتحرك القلب معها -أي يتأثر- فإن لم تتحرك المشاعر لن يزداد الإيمان؛ ومن ثَمَّ فلن يظهر أثر الطاعة على السلوك، فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر عندما يتحرك القلب، وتنفعل المشاعر معها، فيؤدي ذلك إلى زيادة الإيمان لينتج عنه زيادة الورع والدافع الداخلي لفعل الخيرات وترك المنكرات.

> **فإن لم يتحرك القلب ويخشع في الصلاة، أصبحت تلك الصلاة حركة بالعضلات فقط؛ ومن ثَمَّ لا يظهر لها أثر إيجابي في السلوك، وهذا يُفسر لنا ظاهرة عدم وجود أثر للعبادات الكثيرة التي نؤديها على سلوكنا ومعاملاتنا.**

لذلك كان من دعاء رسول الله ﷺ: «**وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ صَلَاةٍ لَا تَنْفَعُ**»(١).

وقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «ركعتان مقتصدتان في تفكُّر خير من قيام ليلة والقلب ساهٍ»(٢).

فإحسان العمل -إذن- مقدم على الإكثار منه بالجوارح فقط.

وإحسان العمل يعني الاجتهاد في حضور القلب وتوجه مشاعره نحو الله عَزَّوَجَلَّ، وتستدعي كذلك موافقته للسنة.

فالعمل القليل مع حضور المشاعر أفضل من العمل الكثير بدون حضورها، أو حضورها بصورة قليلة محدودة.

بل إن الثواب المترتب على العمل يختلف من شخص لآخر حسب حركة مشاعره مع العمل؛ فلو أن رجلين يسيران في الطريق معًا وعُرض عليهما عمل خيري يستوجب منهما بذل ما يُمكنهما بذله من مال، وكان الأول فقيرًا، وكل ما يملكه عشرة دراهم وعليه أعباء معيشية لا تغطيها هذه الدراهم المعدودة، لكنه تجاوب مع العمل الخيري وشعر بأهميته، فدفعه حبه لله وطمعه في مثوبته إلى إخراج ثمانية دراهم من العشرة.. بَذَلها وهو يُدرك قدر العنت الذي قد يواجهه لتدبير نفقاته ونفقات عياله، وأما الرجل الآخر فهو موسر، عنده بضعة آلاف من الدراهم، فأخرج ألف درهم طمعًا في المثوبة، وحبًّا لله، لكنه لم يشعر بما شعر به الأول، لأن الألف درهم لا يُشكل إخراجها عنده مشكلة كبيرة، فهل يستوي الاثنان في درجتهما عند الله؟

---

(١) أبو داود كتاب الصلاة، باب في الاستعاذة (٢/ ١٩٢ برقم: ١٥٤٩) ابن حبان (٣٠/ ٢٩٤ برقم: ١٠١٥) كتاب الرقاق، باب ذكر ما يستحب للمرء أن يتعوذ بالله جل وعلا من الصلاة التي لا تنفع، والنسائي: كتاب الاستعاذة، باب الاستعاذة من الشقاق والنفاق وسوء الأخلاق (٨/ ٢٦٣-٢٦٤) السنن الصغرى (المجتبى).

(٢) كتاب الزهد لابن المبارك (١/ ٩٧ برقم: ٢٨٨).

لو كانت العبرة بالعدد والكم، لكان الثاني أفضل؛ لأن ما أخرجه أكثر بكثير من الأول، ولكن لأن العبرة بحركة المشاعر، وحضور القلب مع العمل كان الأول هو الأفضل عند الله، كما قال رسول الله ﷺ: «**سَبَقَ دِرْهَمٌ مِائَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ**، فقال رجل: وكيف ذاك يا رسول الله؟ قال: **كَانَ لِرَجُلٍ دِرْهَمَانِ أَخَذَ أَحَدَهُمَا فَتَصَدَّقَ بِهِ وَرَجُلٌ لَهُ مَالٌ كَثِيرٌ فَأَخَذَ مِنْ عُرْضِهِ مِائَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ فَتَصَدَّقَ بِهَا**»[(١)]، ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿**لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ**﴾ [الحديد: ١٠].

فالذي أنفق قبل الفتح -في أوقات الضيق والحصار والمستقبل المجهول وقلة الموارد- أعظم درجة من الذي أنفق بعد الفتح في أوقات الرخاء والأمان والسعة، فحركة المشاعر مع الإنفاق قبل الفتح أشد منها بعد الفتح.

ونفس الأمر ينطبق على الصلاة وقراءة القرآن وغيرهما من الأعمال:

﴿**لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ**﴾ [الحج: ٣٧].

وفي هذا المعنى يقول ابن رجب: كان السلف يوصون بإتقان العمل وتحسينه دون الإكثار منه، فإن العمل القليل مع التحسين والإتقان، أفضل بكثير من الغفلة وعدم الإتقان.

قال بعض السلف: إن الرجلين ليقومان في الصف، وما بين صلاتهما كما بين السماء والأرض[(٢)].

---

(١) النسائي (٥/ ٥٩) كتاب الزكاة، باب جهد المقل، ابن حبان (٨/ ١٣٥ برقم: ٣٣٤٧) كتاب الزكاة، ابن خزيمة (٢/ ١١٧٠ برقم: ٢٤٤٣) باب صدقة المقل إذا أبقى لنفسه قدر حاجته.

(٢) مجموع رسائل ابن رجب (١/ ٣٥٢).

ابن القيم يؤكد

ويؤكد ابن القيم هذا المعنى فيقول:

العمل اليسير الموافق لمرضاة الرب وسنة رسوله ﷺ أحب إلى الله تعالى من العمل الكثير إذا خلا عن ذلك أو عن بعضه؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]، وقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧﴾ [الكهف: ٧].

فهو سبحانه وتعالى إنما خلق السماوات والأرض، والموت والحياة، وزيَّن الأرض بما عليها، ليبلو عباده أيهم أحسن عملًا، لا أكثر عملًا.

والأحسن: هو الأخلص والأصوب، وهو الموافق لمرضاته ومحبته، دون الأكثر الخالي من ذلك، فهو سبحانه وتعالى يحب أن يُتعبد له بالأرضَى له، وإن كان قليلًا، دون الأكثر الذي لا يُرضيه، والأكثر الذي غيره أرضى له منه.

ولهذا يكون العملان في الصورة متماثلين، وبينهما في الفضل -بل بين قليل أحدهما وكثير الآخر- أعظم مما بين السماء والأرض.

وهذا الفضل يكون بحسب رضا الرب سبحانه بالعمل، وقبوله له، ومحبته له، وفرحه به سبحانه وتعالى، كما يفرح بتوبة التائب أعظم فرح، ولا ريب أن تلك التوبة الصادقة أفضل وأحب إلى الله تعالى من أعمال كثيرة من التطوعات وإن زادت في الكثرة عن التوبة.

ولهذا كان القبول يختلف ويتفاوت بحسب رضا الرب سبحانه وتعالى بالعمل، فقبول يُوجِب رضا الله سبحانه وتعالى بالعمل، ومباهاة الملائكة به، وتقريب عبده

منه، وقبول يترتب عليه كثرة الثواب والعطاء فقط.

كمـــن تصدق بألف دينار من جملة ماله -مثـــلًا- بحيث لا يكترث بها..، وآخر عنده رغيف واحد هو قوته، لا يملك غيره، فآثر به على نفسه من هو أحوج إليه منه، محبة لله، وتقربًا إليه وتوددًا، ورغبة في مرضاته، وإيثارًا على نفسه[١].

قال رجل لعثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ذهبتم يا أصحاب الأموال بالخير: تتصدقون وتعتقون وتحجون وتنفقون. فقال عثمان: وإنكم لتغبطوننا وإنا لنغبطكم. قال: فوالله لدرهم ينفقه أحد من جهد خير من عشرة آلاف درهم غيض من فيض.

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: يا رســـول الله، أي الصدقة أفضل؟ قال: «**جُهْدُ الْـمُقِلِّ، وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ**»[٢].

وعن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قلت: يا رســـول الله، أي الصدقة أفضل؟ قال: «**جُهْدٌ مِنْ مُقِلٍّ**»[٣].

وهذه الأحاديث كلها تدل على أن صدقة جهد الـــمُقِل أفضل من صدقة كثير المال ببعض ماله الذي لا يتبين أثر نقصانه عليه وإن كان كثيرًا؛ لأن الأعمال تتفاضل عند الله بتفاضل ما في القلوب لا بكثرتها وصورها، بل بقوة الداعي وصدق الفاعل وإخلاصه وإيثاره الله على نفسه، فأين صدقة من آثر الله على نفسه برغيف هو قوته إلى صدقة من أخرج مائة ألف درهم من بعض ماله غيضًا من فيض، فرغيف هذا درهمه

(١) المنار المنيف لابن القيم (ص: ٣١) بتحقيق العلامة عبد الفتاح أبو غدة.

(٢) أبو داود: كتاب الزكاة (برقم: ١٦٧٧) باب الرخصة في ذلك، ابن خزيمة (٢/ ١١٧١ برقم: ٢٤٤٤)، ابن حبان (٨/ ١٣٤ برقم: ٣٣٤٦) كتاب الزكاة باب البيان بأن أفضل الصدقة إخراج المقل بعض ما عنده.

(٣) صحيح ابن حبان (٢/ ٧٧).

في الميزان أثقل من مائة ألف هذا، والله المستعان[١].

فيالله كم بعد ما بين الصدقتين في الفضل ومحبة الله وقبوله ورضاه!!

> **والأعمال تتفاضل بتفاضل ما في القلوب من الإيمان والمحبة، والتعظيم والإجلال، وقصد وجه المعبود وحده دون شيء من الحظوظ سواه، حتى تكون صورة العملين واحدة، وبينهما في الفضل ما لا يُحصيه إلا الله تعالى.**

وتتفاضل أيضًا بتجريد المتابعة، فبين العملين من الفضل بحسب ما يتفاضلان به في المتابعة، فتتفاضل الأعمال بحسب تجريد الإخلاص والمتابعة تفاضلًا لا يحصيه إلا الله تعالى[٢].

إنما الأعمال بالنيات

فالعبرة بما في القلوب من معاني العبودية لله، والعبرة كذلك باستحضارها مع العمل، وكلما كان توجه المشاعر لله -قَبل العمل وفي أثنائه- أشد، كانت درجته ومثوبته عند الله أكبر؛ لذلك قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ**»[٣].

فالنية: هي القصد والتوجه، وعلى قدر توجه القلب نحو العمل حبًّا لله، وابتغاء مرضاته، وطمعًا في مثوبته يكون الفضل والأجر منه سبحانه: ﴿**وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ كَمَثَلِ جَنَّةِۭ بِرَبۡوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٞ فَـَٔاتَتۡ أُكُلَهَا ضِعۡفَيۡنِ فَإِن لَّمۡ يُصِبۡهَا وَابِلٞ فَطَلّٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ**

(١) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين باختصار (ص: ١٧٨).
(٢) المنار المنيف لابن القيم (١/ ٣٣).
(٣) أخرجه البخاري (١/ ٣ برقم: ١)، ومسلم (٣/ ١٥١٥ برقم: ١٩٠٧).

﴿بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾﴾ [البقرة: ٢٦٥]. فالوابل: هو المطر الشديد، والطَّل: هو الرذاذ الخفيف، والفارق بينهما في الأثر كبير على الزرع، كالفارق بين من يشتد إخلاصه وتوجهه لله وابتغاء مرضاته عند الإنفاق وبين من لم يشتد ذلك عنده..

.. فالعبرة -إذن- بالنيات لا بصور الأعمال.

لذلك نجد رسول الله ﷺ يحث أصحابه على إخلاص الدعاء عند صلاة الجنازة؛ حتى يكون هذا أنفع لصاحبه في الفضل والمثوبة: «**إِذَا صَلَّيْتُمْ عَلَى الْمَيِّتِ فَأَخْلِصُوا لَهُ الدُّعَاءَ**»(١).

وإليك -أخي القارئ- هذا التحذير النبوي الشديد من حضور البدن للعمل مع عدم حضور القلب فيه.. قال رسول الله ﷺ: «**مَا بَالُ أَقْوَامٍ، يُتْلَى عَلَيْهِمْ كِتَابُ اللهِ فَلَا يَدْرُونَ مَا يُتْلَى مِنْهُ مِمَّا تُرِكَ، هَكَذَا خَرَجَتْ عَظَمَةُ اللهِ مِنْ قُلُوبِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَشَهِدَتْ أَبْدَانُهُمْ وَغَابَتْ قُلُوبُهُمْ، وَلَا يَقْبَلُ اللهُ مِنْ عَبْدٍ عَمَلًا حَتَّى يَشْهَدَ بِقَلْبِهِ مَعَ بَدَنِهِ**»(٢).

السباق سباق قلوب

عندما نقرأ في سيرة التابعين وتابعيهم من سلف هذه الأمة نجد أن منهم من كان يُصلي الفجر بوضوء العشاء سنوات وسنوات، ويظل طيلة الليل في صلاة، ومنهم

(١) أبوداود كتاب الجنائز، باب ما يقول المصلي على الجنازة (برقم: ٣١٩٩)، ابن ماجه (برقم: ١٤٩٧) الجنائز باب -ما جاء في الدعاء على الجنازة- ابن حبان: الجنائز، باب الإيذان بالميت والصلاة عليه (برقم: ٧٥٤).

(٢) أورده ابن الأثير في جامع الأصول (٥/ ٦٤٨)، ورواه المروزي في تعظيم قدر الصلاة (١/ ١٩٨ برقم: ١٥٧).

من كان يصوم صيام داود عَلَيْهِ السَّلَامُ، ومنهم، ومنهم..، فإذا ما نظرنا لسيرة السابقين الأولين من جيل الصحابة -رضوان الله عليهم- نجد أنهم من الناحية الكَمِّية أقل منهم عبادة، ومع ذلك فقد فاقوهم في الرتبة والمنزلة.

قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لأصحابه: أنتم أكثر صومًا وصلاة من أصحاب محمد ﷺ، وهم كانوا خيرًا منكم، قالوا: وبم ذاك؟ قال: كانوا أزهد منكم في الدنيا وأرغب في الآخرة[١].

بل إن أبا بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لم يسبق الصحابة بكثرة العمل، بل بما في قلبه من إيمان.

قال أبو بكر المزني: ما سبقهم أبو بكر بكثرة صيام ولا صلاة ولكن بشيء وقر في صدره[٢].

ولأن العبرة بحال القلب قبل وأثناء العمل، فإن المتأمل لتوجيهات الشرع يجد أنها تحُثُّنا على تهيئة الأجواء المناسبة لاستجاشة المشاعر وحضور القلب قبل العمل.

فعلى سبيل المثال: الصلاة

نجد أن الشرع يحثنا على تفريغ الذهن من الشواغل، وعدم تعلق القلب بشيء من شأنه أن يمنعنا من التركيز فيها، فإذا حضر الطعام مع دخول وقت الصلاة يُفضَّل البدء بالطعام حتى يدخل المرء إلى الصلاة وذهنه غير مشغول به.

وكذلك عند مدافعة الأخبثين.. قال رسول الله ﷺ: «**لَا صَلَاةَ بِحَضْرَةِ طَعَامٍ،**

(١) رواه الحاكم في المستدرك (٤/ ٣٥٠ برقم: ٧٨٨٠) وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، والبيهقي في الشُعب (١٣/ ١٨٤ برقم: ١٠١٥٢).

(٢) لطائف المعارف لابن رجب (١/ ٢٥٤).

وَلَا وَهُوَ يُدَافِعُهُ الْأَخْبَثَانِ»[١].

ولا ينبغي للمرء أن يُسرع في خطواته إلى المسجد ليدرك الصلاة، بل عليه أن يمشي في سكينة وهدوء، فالإسراع من شأنه أن يجعله يدخل إلى الصلاة وهو مضطرب فيصعُب عليه جمع قلبه.

قال رسول الله ﷺ: «**إِذَا أُقِيمَتِ الصَّلَاةُ فَلَا تَأْتُوهَا تَسْعَوْنَ، وَأْتُوهَا تَمْشُونَ عَلَيْكُمُ السَّكِينَةُ، فَمَا أَدْرَكْتُمْ فَصَلُّوا وَمَا فَاتَكُمْ فَأَتِمُّوا**»[٢].

والحث على التبكير في الذهاب إلى المسجد قبل إقامة الصلاة له وظيفة مهمة في صرف شواغل الدنيا عن الذهن.

وكذلك فإن الحث على تذكُّر الموت قبل الصلاة من شأنه أن يستجيش المشاعر نحو الرجاء والطمع في عفو الله، والخوف والرهبة من عقوبته، فيزداد الحضور القلبي والخشوع فيها.

.. قال رسول الله ﷺ: «**اذْكُرِ الْمَوْتَ فِي صَلَاتِكَ، فَإِنَّ الرَّجُلَ إِذَا ذَكَرَ الْمَوْتَ فِي صَلَاتِهِ لَحَرِيٌّ أَنْ يُحْسِنَ صَلَاتَهُ، وَصَلِّ صَلَاةَ رَجُلٍ لَا يَظُنُّ أَنَّهُ يُصَلِّي صَلَاةً غَيْرَهَا..**»[٣].

الإيمان ما وقر في القلب

كان (عمرو) يسير في الطريق فرأى أمامه حادث سيارة، وشاهد دماء المصابين

(١) مسلم (١/ ٣٩٣ برقم: ٥٦٠).

(٢) البخاري كتاب الأذان، باب: لا يسعى إلى الصلاة وليأت بالسكينة والوقار (١/ ١٧٧ برقم: ٦٣٦)، مسلم كتاب المساجد، باب: استحباب إتيان الصلاة بسكينة ووقار (١/ ٤٢١ برقم: ٦٠٢).

(٣) أخرجه الديلمي في مسند الفردوس (١/ ٤٣١ برقم: ١٧٥٥).

متناثرة على الطريق، والكل يتسابق لإنقاذ ما يُمكن إنقاذه فتأثر تأثرًا بالغًا، وذهب إلى عمله وهو واجم، مذهول، فلا حديث مع الزملاء كسابق عهده، ولا ضحك، ولا غيبة، أو سخرية من الآخرين.. وظل طيلة يومه على هذا الحال، وبعد بضعة أيام بدأ يعود تدريجيًّا إلى سيرته الأولى.

فما الذي حدث حتى يتغير هذا التغيير؟ وما الذي حدث حتى يعود ثانية لسابق حاله؟!

الذي حدث أنه عندما شاهد ما شاهده في الطريق تأثر بما رآه، وطَفَتْ حقيقة الموت وإمكانية وقوعه في أي وقت على ساحة فكره، واستثيرت معها مشاعر الرهبة والخشية، فانتعش داخله الإيمان بحتمية الموت، فأثمر هذا الإيمان: يقظة جعلته ينتبه لأحواله، ويُفكر في أموره، ويُدقق في كلامه وأفعاله.. وشيئًا فشيئًا ذهبت تلك الحالة، وهدأت المشاعر، فعاد مرة ثانية إلى غفلته، ليُمارس حياته كما كان يُمارسها من قبل.

ويتكرر الأمر مع آخر سمع خطبة حارَّة تحُث على الإنفاق في سبيل الله، أو شاهد مناظر مؤثرة في التلفاز تُبيِّن حال المُشَرَّدين والبائسين والمنكوبين في بلدان المسلمين، فإذا به يُبادر بإخراج جزء من ماله في سبيل الله، بل ويدعو مَن حوله من أهله وجيرانه لذلك، وبعد بضعة أيام يعود إلى سابق عهده، وتفتُر همته عن الإنفاق وعن دعوة الناس إليه.

وسبب ذلك أنه قد حدثت استثارة واستجاشة قوية ومؤثرة للمشاعر أثمرت هذا الإنفاق، وبعد ذلك هدأت المشاعر فتوقف الإنفاق.

فإن قلت: وما الحل لكي نستمر في اليقظة والقيام بالأعمال الصالحة بدوافع إيمانية؟

الحل يكمُن في القيام بالتربية الإيمانية الصحيحة التي تجعل القلب في حالة دائمة من اليقظة.

أو بمعنى آخر: **لا ينبغي علينا أن نجعل أعمالنا الإيمانية رهن المؤثرات القوية التي تستثير المشـــاعر بصورة مؤقتة، ثم يختفي أثرها بمرور الوقت، وهذا لن يكون إلا إذا أصبح الإيمان مســـتقرًّا في القلب، وأصبحت المشاعر في حالة من التأهب للتأثر بأدنى مؤثر وبأقل تذكرة.**

> **فكلما قوي الإيمان في القلب واســـتقر فيه كانت استثارته أسرع وأدوَم، بعكس الإيمان الضعيف الذي يحتاج -لكي يُعبر عن نفسه- لمؤثر قوي، يدفع صاحبه للعمل الصالح بصورة مؤقتة.**

ولأن الحياة كثيرة الأحداث والتقلبات، فإنها تحتاج منَّا إلى إيمان قوي مســـتقر في القلب يدفعنا دومًـــا إلى فعل الخيرات وترك المنكرات في كل وقت وتحت أي ظرف، وليس إيمانًا ضعيفًا يحتاج لكي يظهر إلى مؤثر ضخم وحدث جلل، وفي الوقت نفسه؛ فإن هذا الإيـــمان الضعيف سرعان ما يزول أثره الإيجابي على الســـلوك بزوال المؤثر الذي اســـتثاره، ومثال ذلك: البيت الذي لا ســـقف له فإن أهله يتعرضون بصورة دائمة لحر الشمس ولهيبها؛ لذلك فأسعد أوقاتهم تلك التي تأتي فيها سحابة فتظللهم، وتحُول بينهم وبين الشـــمس، ولكن -من المعتاد- ألا يســـتمر ظل السحابة طويلًا، فسرعان ما يزول بتحركها وابتعادها عنهم، لتعود الشمس بحرارتها ولهيبها إليهم.. ومن البدهي أنهم إذا رغبوا في ظل دائم، ووقاية مســـتمرة من الشـــمس، فعليهم أن يُشيِّـــدوا ســـقفًا للبيت بدلًا من أن ينتظروا ظهور السُّحب، فظل السحاب عارض سرعان ما يزول أثره، أما ظل السقف فهو دائم لأنه مستقر فوقهم.

كذلك حال الإيمان الناشـــئ عن أمور عارضة، وحاله الناشئ عن استقراره في القلب.

لماذا لا يظهر أثر الإيمان في كل الأوقات والأحوال؟

كان (زيد) في المسجد يســـتمع إلى موعظة، وكانت الموعظة مؤثرة، وَجِلَت منها القلوب، وذرفت منها العيون، وتلا الموعظة صلاة العشـــاء، وفيها قرأ الإمام بآيات من سورة (ق) تتحدث عن الموت وما بعده من أحداث، فعلا نحيب المصلين، واشتد بكاؤهم، وانتهت الصلاة، وانطلق (زيد) خارجًا من المسجد، وذهب ليأخذ نعله فلم يجدها.. بحث عنها في كل مكان فلم يعثر لها على أثر، انتابته حالة من الجزع والضيق، وتلفَّظ بألفاظ غير لائقة، وغادر المسجد حانقًا متذمرًا..

لقد كان زيد منذ دقائق يبكي من خشية الله، فما الذي تغير حتى يظهر بهذه الحالة البعيدة عن الإيمان؟ لماذا لم تدفعه الحالة الإيمانية التي كان يعيشـــها إلى التعامل الهادئ مع المصيبة التي أصابته؟

فإن قلت: لأن الإيمان غير مســـتقر في قلبه، وأن بكاءه وتأثره بالموعظة والصلاة كان عارضًا، فلما زال أثره انكشف إيمانه..

هذا التعليل قد يكون صحيحًا لو كانت المدة الزمنية بين الصلاة وبين سرقة نعله طويلة، أمَا والأمر لم يتعد بضع دقائق لا تسمح بزوال حالته الإيمانية، فإن السبب غير ذلك.

ولعل ما يكشف لنا سبب هذا التعارض هو تذكُّر ما قيل في الصفحات السابقة بأن الإيمان يتناول جميع المشـــاعر، بمعنى أن الحالة الإيمانية التي كان يعيشها (زيد) في

الموعظة والصلاة كانت تُعبِّر عن بعض مشاعر القلب وليس عن كل مشاعره.

لقد كانت تُعبِّر عن مشاعر الخوف والرهبة، في حين ظلَّت باقي المشاعر كما هي دون استثارة؛ ومن ثَمَّ عندما تعرض لموقف السرقة، لم يتعامل معه تعاملًا إيمانيًّا مناسبًا؛ لأن الإيمان في اتجاه مشاعر الطمأنينة والسكينة ضعيف، ولم يتم استثارته، وهذا يُفسِّر لنا -إلى حد بعيد- هذا التناقض بين حالته الباكية، ورد فعله الجَزِع.

فالإيمان يتناول جميع المشاعر؛ ولكي نتعامل مع أحداث الحياة المختلفة وتقلباتها تعاملًا إيمانيًّا يتناسب مع كل حدث؛ لا بد من أن يكون هناك إيمان مستقر في كل مشعر من مشاعره، كالحب والبغض، والرغبة والرهبة، والسكينة والطمأنينة، والفرح والاستبشار، والندم، و....

فالإيمان المتكامل هو الذي يدفع صاحبه لحسن التعامل مع الأحداث المختلفة كما قال رسول الله ﷺ: «**عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ لَهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ**»(١).

والحد الأدنى المطلوب وجوده من الإيمان في جميع المشاعر -ومن ثَمَّ الانتصار في معركة ردود الأفعال مع الأحداث- هو أن تكون نسبة وجوده أعلى من نسبة وجود الهوى حتى تكون له الغلبة عليه.

فعلى سبيل المثال: لو تكلمنا عن شعور الحب كأحد المشاعر الرئيسة، فمن المتوقع أن يحتوي على حُب النفس، والوالدين، والزوجة والأولاد، والمال، و....

كل ذلك لا بأس من وجوده إذا كان حُب الله أكبر من حُبِّهم مجتمعين: ﴿**وَٱلَّذِينَ**

(١) أخرجه مسلم كتاب الزهد والرقاق، باب المؤمن أمره كله خير (٤/ ٢٢٩٥ برقم: ٢٩٩٩).

﴿ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ﴾ [البقرة: ١٦٥].

وفي الحديث: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا...»[(١)].

فإذا تعارض حب الله مع أي منهم تغلَّب حب الله عَزَّوَجَلَّ؛ ومن ثَمَّ يكون القرار لصالحه وليس العكس: ﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٤﴾ [التوبة: ٢٤].

• • •

(١) البخاري كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان (١/ ١١ برقم: ١٦، ٥٦٩٤، ٦٥٤٢)، ومسلم (١/ ٦٦ برقم: ٤٣).

جناحا التربية الإيمانية

الفـــارق بين الحالة الإيمانية وبين الاســـتقرار الإيماني هـــو أن الحالة أمر عارض يحدث للقلب عند تعرضه لمؤثر قوي يُثمر انفعالًا وقتيًّا قد يُصاحبه سلوك يُعبر عنه.

أما الاستقرار الإيماني فهو استقرار الإيمان (بالشيء) في القلب، وتمكنه منه؛ ومن ثَمَّ التعبير الدائم عنه بالسلوك المناسب له.

مع الأخذ في الاعتبار بأن الإيمان ليس له مشـــعر واحـــد فقط، بل يتناول جميع المشـــاعر، ولكي نتعامل مع أحداث الحياة وتقلباتها وأقدارها المفرحة والمؤلمة بتعامل إيماني يُناسبها لا بد من وجود إيمان مستقر في جميع المشاعر، ويُشكل جزءًا معتبرًا فيها تتجاوز نسبته كل ما تحتويه المشاعر من هوى..

ليبقى السؤال: وكيف نبني الإيمان في كل المشاعر بناءً مستقرًّا يغلب الهوى؟

هل نُكثـــر من النوافل؟ هل نطيل الـــمُكث في المســـجد؟ هل نُكثـــر من أداء العُمرات؟

كل هذا طيب وحســـن، ولكننا -كما أســـلفنا- نرى أُناسًا يفعلون ذلك، ونجد سلوكياتهم تتناقض -إلى حد كبير- مع عباداتهم، فقد نجدهم جَزِعين عند المصائب، حريصين على تحصيل أكبر قدر من الدنيا، و... إلخ.

وليس معنى هـــذا هو التقليل من شـــأن هذه الأعمال، فالعبـــادات كلها أنوار ووسائل قُرب من الله عَزَّوَجَلَّ، ولكن المقصد هو البحث عن الحلقة المفقودة في منظومة العبادات والســـلوك، والتعرف على الســـبب الذي يُقلل من أثرها في الواقع، وهذا يستدعي التعرف على عبادات القلوب وعبادات الجوارح.

الإيمان والعمل الصالح

التربيــة الإيمانية لها جناحــان لا تكتمل إلا بهما، وهما: أعــمال القلوب وأعمال الجوارح، أو بعبارة أخرى: الإيمان والعمل الصالح.

ولئن كان الإيمان محله القلب (المشاعر)، فإن العمل الصالح محله الجوارح.

ولكي يُثمر العمــل الصالح زيادة في الإيمان لا بــد وأن ينطلق من حالة إيمانية (استثارة واستجاشة لمشاعر الرغبة تجاه القيام بالعمل)، فالإيمان يُمثِّل البذرة، والعمل الصالح يُمثل الماء، وكما هو معروف أننا إذا ســقينا الأرض بالماء دون وجود بذور في تربتها فلن يُثمر هذا الماء -مهما كَثُر- أيَّ إنبات، وفي المقابل لو وضعنا البذور في باطن الأرض ثم لم نسقها ونتعاهدها فلن تُنبت أيضًا.

كذلك الإيمان والعمل الصالح؛ فهما جناحا التربية الإيمانية.. الإيمان هو البذرة، والعمل الصالح هو الماء.. الإيمان هو الأساس والعمل الصالح هو البناء.

فلو انصب اهتمامنا على أعمال القلوب، ولم نهتم بالعمل الصالح سيكون الإيمان محدودًا، ولن نستفيد بوجوده الاســتفادة الحقيقية: ﴿**يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا**﴾ [الأنعام: ١٥٨].

وفي المقابل، لو قفزنا على العمل الصالح دون وجود الإيمان في المشــاعر، ودون استثارة هذا الإيمان قبل العمل، فسيكون الناتج ضعيفًا، إن لم يكُن معدومًا.

وإليك -أخي القارئ- نسوق بعض الأمثلة التي تؤكد هذا المعنى:

المثال الأول

■ الاســتغفار في حقيقتــه هو طلب العفو من الله عَزَّوَجَلَّ، ويعنــي أننا قد قصَّرنا

وأخطأنا في حقه سبحانه؛ لذلك فنحن نطلب منه العفو، وأهم ما يُعبر عن هذا الطلب هو شعورنا بالندم على ما فعلنا، فإن حدث وقفزنا على الاستغفار باللسان دون استثارة لمشاعر الندم، فإننا مهما استغفرنا باللسان فلن يؤدي هذا إلى زيادة إيماننا بالتقصير نحوه سبحانه؛ ومن ثَمَّ لن يزداد الإيمان باستغفار اللسان فقط، بل هو في الحقيقة استغفار يحتاج إلى استغفار؛ لأننا حين نفعل ذلك نكون كالولد الذي أخطأ خطأ كبيرًا في حق أبويه، ثم ذهب يعتذر لهما بلسانه وهو يضحك وكأنه لم يفعل شيئًا!! ألا يجعل ذلك أبويه يزدادان ضيقًا منه؛ لأنه لم يعتذر اعتذارًا حقيقيًّا، ولم يستشعر حجم خطئه؟

وإذا بدأنا بتذكر أوجه تقصيرنا في جنب الله، وظللنا نتذكر ونتذكر حتى استُجيشت مشاعر الندم في قلوبنا، وتوقفنا عند ذلك ولم نستغفر باللسان فإن الإيمان سيزداد بهذا الندم، ولكن زيادة محدودة.

أما إذا أتبعنا هذه الاستجاشة بالاستغفار وطلب العفو من الله عَزَّوَجَلَّ، فإن ذلك من شأنه أن يزيد الإيمان بصورة كبيرة بإذن الله، فالشعور بالندم هو عمل إيماني قلبي، واستغفار اللسان عمل صالح بالجوارح.

المثال الثاني

■ التواضع له جناحان؛ الأول: شعور ينبغي ترسيخه في القلب بأنك صغير، وأنك لا شيء، ولا قيمة لك بدون الله عَزَّوَجَلَّ، والثاني: القيام بأعمال تؤكد هذه الحقيقة، كالسعي في قضاء حوائج الناس، والجلوس مع المساكين وإعزازهم، والقيام على خدمة الآخرين، و... إلخ.

فإن قفزنا على أعمال التواضع دون وجود معناه في القلب، فإن هذه الأعمال لن

تزيد المرء تواضعًا، بل قد يكون لها تأثير سلبي على الفرد، بأن يرى نفسه أفضل من غيره بتواضعه وخفض جناحه.

وإن اجتهدنا في تنمية الشعور الداخلي بأننا لا شيء بدون الله عَزَّوَجَلَّ، ولم نُتبع ذلك بأعمال المتواضعين؛ فإن الإيمان بهذه الحقيقة سيظل محدودًا في قلوبنا، وقد يضعف أكثر وأكثر لأنه لم يُمارَس عمليًّا على أرض الواقع.

المثال الثالث

■ الحب في الله: له جناحان؛ الأول: شعور متبادل يجتاح اثنين من المؤمنين، يميل كل منهما نحو الآخر لِما يرى فيه من صفات يُحبها الله عَزَّوَجَلَّ، والثاني: القيام بأعمال تؤكد هذا الأمر، من الطرفين، كالتزاور، والتهادي، والسؤال، والسعي في خدمة الآخر.

فإن لم يحدث الميل القلبي والألفة والمودة في القلوب، فإن أعمال الأخوة مهما أُديت فلن تؤدي إلى الزيادة الحقيقية لمنسوب الحب في المشاعر: ﴿**لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ**﴾ [الأنفال: ٦٣].

وفي المقابل، فإذا ما أنعم الله عَزَّوَجَلَّ على قلبين مؤمنين بالحب بينهما ولم يقوما بأعمال الأخوة، فسيظل هذا الحب محدودًا في القلب، وقد يُصيبه ما يُنقص منه ويُقلله.

فلا بد من الأمرين معًا: عمل القلب، وعمل الجوارح.. الإيمان والعمل الصالح.

والقرآن مليء بالآيات التي تربط بين الاثنين لينتبه المسلم إلى أهميتهما معًا، فلا يهتم بأحدهما ويُهمل الآخر: ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾**﴾ [مريم: ٩٦].

﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾ [طه: ١١٢].

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [هود: ١١].

﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾﴾ [طه: ٧٥].

﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾﴾ [الفرقان: ٧١].

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾﴾ [النساء: ٦٦].

الإيمان أولًا

ومع أهمية ارتباط الإيمان بالعمل الصالح، والعمل الصالح بالإيمان، إلا أن الأول مقدم على الثاني، فالإيمان مقدم على العمل الصالح. فعمل القلب مقدم على عمل الجارحة.

والمقصد بأعمال القلوب هي حركة المشاعر تجاه الله عَزَّوَجَلَّ كخشيته، وحبه، وتعظيمه، ومهابته، ورجائه، والاستعانة به، والافتقار إليه، والانكسار بين يديه، والحب فيه، والغضب من أجله.

والمقصد بأعمال الجوارح: هي الأعمال التي تُؤدَّى بالجوارح ودلتنا عليها نصوص القرآن والسنة كالصلاة، والذكر، والصدقة، والسعي في قضاء حوائج الناس، كما سيأتي بيانه بإذن الله.

ولقد مرَّ علينا سابقًا كيف أن صورة العملين قد تكون واحدة، وما بينهما في الدرجة والفضل ما بين السماء والأرض؛ وذلك لتفاضل ما في القلوب، ومر علينا كذلك كيف أن زيادة أعمال القلب مع قلة أعمال الجوارح أفضل وأفضل من زيادة

أعمال الجوارح وقلة أعمال القلب، ومما يؤكد ذلك قول رسول الله ﷺ: «**سَبَقَ دِرْهَمٌ مِائَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ: رَجُلٌ لَهُ دِرْهَمَانِ أَخَذَ أَحَدَهُمَا فَتَصَدَّقَ بِهِ، وَرَجُلٌ لَهُ مَالٌ كَثِيرٌ فَأَخَذَ مِنْ عُرْضِهِ مِائَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ فَتَصَدَّقَ بِهَا**»(١)، وقوله: «**مَا تَحَابَّ اثْنَانِ فِي اللهِ تَعَالَىٰ إِلاَّ كَانَ أَفْضَلُهُمَا أَشَدَّهُمَا حُبًّا لِصَاحِبِهِ**»(٢).

ونفس الأمر ينطبق على معاصي القلوب ومعاصي الجوارح، فمعاصي القلوب من كِبر وغرور، وإعجاب بالنفس، ورياء، ونفاق، وحسد، والفرح بمصائب المسلمين، واستعظام النفس، واحتقار الآخرين وازدرائهم... أشد وأشد في العقاب من معاصي الجوارح كالكذب، والسرقة، والغيبة والنميمة و...

يقول ابن القيم

مَن تأمَّل الشريعة في مقاصدها ومواردها عَلِم ارتباط أعمال الجوارح بأعمال القلوب، وأنها لا تنفع بدونها، وأن أعمال القلوب أفرض على العبد من أعمال الجوارح، وهل يميَّز المؤمن من المنافق إلَّا بما في قلب كل واحد منهما؟!

وعبودية القلب أعظم من عبودية الجوارح وأكثر وأدوم، فهي واجبة في كل وقت؛ ولهذا كان الإيمان واجب القلب على الدوام، والإسلام واجب الجوارح في بعض الأحيان(٣).

---

(١) النسائي (٥/ ٥٩) كتاب الزكاة، باب جهد المقل، ابن حبان (٨/ ١٣٥ برقم: ٣٣٤٧) كتاب الزكاة، ابن خزيمة (٢/ ١١٧٠ برقم: ٢٤٤٣)، باب صدقة المقل إذا أبقى لنفسه قدر حاجته.

(٢) ابن حبان (برقم: ٥٦٦)، البزار (١٣/ ٢٩١ برقم: ٦٨٦٩)، مسند أبي داود الطيالسي (برقم: ٢٠٥٣)، البخاري في الأدب المفرد (برقم: ٥٤٤)، الحاكم في المستدرك (٤/ ١٨٩)، البيهقي في شعب الإيمان (برقم: ٩٠٤٩).

(٣) بدائع الفوائد لابن القيم (٤/ ٢٨٧).

الإسلام بدأ مشاعر ثم شعائر ثم شرائع[١]

من هنا يتضـــح لنا أهمية الاهتمام ببناء الإيمان الحقيقي الذي يتناول جميع المشـــاعر، على ألا يُهمل العمل الصالح، بل يُقـــرن دائمًا بأعمال القلب، ويجتهد المرء في تحسينه وحضور المشاعر معه، فمن فعل ذلك فهو السابق حقًّا.

فالإيـــمان أولًا والعمل الصالح ثانيًا، لتكون النتيجة: تحسُّـــنًا ملحوظًا في الخُلق والســـلوك، والمتأمل في التربية الربانية للجيل الأول يجـــد أنها كانت تُركز على أعمال القلوب، وزيادة الإيمان في القلب قبل تشريع العبادة، فكما قيل بأن الإســـلام قد بدأ «مشاعر، ثم شعائر، ثم شرائع».

إنه لأمر عجيب أن تُفرض الصلاة في رحلة الإسراء والمعراج، ويُفرض الصيام وسائر التشريعات في المدينة، وتُفرض الحدود في السنوات الأخيرة من حياة الرسول ﷺ.. فما الذي كان يفعله المسلمون الأوائل في مكة إذن؟!

ماذا كان يفعل الواحد منهم عندما يستيقظ من نومه ولم يكن عليه وقتها تكاليف يؤديها أو محظورات يجتنبها؟

تصوَّر وضع امرأة مسلمة في السنوات الأولى للبعثة في شهر «رمضان»، تستيقظ من النوم في الصباح فتشرب بعضًا من الخمر، وتخرج لحاجتها وهي مكشوفة الشعر.

ومع ذلك فلم يكن عليها أي حرج شرعـــي؛ لأن الصيام والحجاب لم يُفرضا، والخمر لم يُحرَّم.

.. نعم، كان هذا هو الواقع الذي عاشـــه المســـلمون الأوائل.. فمع عدم وجود

(١) هذه الفقرة تم نقل أغلبها من كتاب «حقيقة العبودية» للمؤلف ببعض التصرف.

تكاليف إلا أنــه كان يتم في هذه الفترة أخطر مرحلة من مراحل بناء الفرد المســلم، وهي مرحلة تأسيس القاعدة الإيمانية، وتعبيد المشاعر لله سبحانه، لتأتي الشعائر بعد ذلك فتُحسِن التعبير عن هذه المشاعر.

تقول السيدة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أول ما نزل من القرآن سورة من المفصل، فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإســلام نزل الحــلال والحرام، ولو نزل أول الأمر: لا تزنوا، لقالــوا: لا ندع الزنى أبدًا، ولو نــزل أول الأمر: لا تشربوا الخمر، لقالوا: لا نترك الخمر أبدًا.. أُنزل على النبي ﷺ وأنا جارية ألعب:

﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ [القمــر: ٤٦]، وهي من ســورة القمر، وما نزلت البقرة والنساء إلا وأنا عنده في المدينة[١].

وليــس معنى هذا أن نترك العبــادة، أو نقول: لا بد أن نفعــل مثل ما فُعل مع الصحابة؛ فلقد اكتمل التشريع كما قال تعالى:

﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

فنحــن مطالبون بأداء كل ما افترضه الله علينا، ومع ذلك فلا بد من التركيز على القلب، وعلى زيادة الإيمان وتعبيد المشاعر لله، وأن نُعطي هذا الأمر القدر الكافي من الاهتمام، وبخاصة في بداية تكوين الفرد المسلم لتُصبح العبادة مؤثرة تزيد الإيمان في القلب؛ ومن ثَمَّ تُقرب صاحبها إلى الله أكثر وأكثر، ويظهر أثرها في السلوك.

ولعلنا من ذلك أيضًا نســتخلص طريقة تربوية نســلكها مع أبنائنا قبل ســن

(١) البخاري كتاب فضائل القرآن، باب تأليف القرآن (٤/ ١٢٢ برقم: ٤٩٩٣).

التكليف، فمع تعويدهم على أداء عبادات الجوارح المختلفة، إلا أن الجهد الأكبر ينبغي أن ينصب على تعريفهم بالله عَزَّوَجَلَّ، وتحبيبهم فيه، وتعظيم قدره في قلوبهم، وتعريفهم بأنفسهم، وأنهم لا شيء بدون ربهم.. انظر إلى رسول الله ﷺ وهو يوجِّه عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ويغرس فيه هذه المعاني فيقول له: «**يَا غُلَامُ، إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ؛ احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ، وَجَفَّتِ الصُّحُفُ**»(١).

الخلاصة

> **وخلاصة القول في هذا الفصل أن التربية الإيمانية الصحيحة التي تُقرب العبد من ربه، وتُثمر سلوكًا صحيحًا في حياة الفرد لها جناحان: أعمال القلوب، وأعمال الجوارح.. الإيمان، والعمل الصالح.**

مع التأكيد على أن أعمال القلوب تسبق أعمال الجوارح في الأهمية والترتيب، شريطة ألا يُهمل العمل الصالح فهو بمثابة الماء للبذرة: ﴿ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴾ [الفرقان: ٧١].

.. وفي الصفحات القادمة -بإذن الله- سيتم إفراد الحديث عن كيفية بناء القاعدة الإيمانية باتساعها في القلب، وحديث آخر عن كيفية الانتفاع بالعمل الصالح في زيادة الإيمان، والله المُوفق.

• • •

(١) الترمذي (٤/ ٦٦٧ برقم: ٢٥١٦) كتاب صفة القيامة، باب: (٦٠).

الفصل الخامس

تأسيس القاعدة الإيمانية
من خلال القرآن

الهــدف الذي ترمي هذه الصفحات إلى تحقيقــه - بإذن الله - هو زيادة الثقــة في القرآن، كمصدر متفرِّد لتحصيل العلــم النَّافع والإيمان الحي، مع تنمية الشعور بالاحتياج إليه في تأسيس القاعدة الإيمانية وتحقيق الربانية.

تأسيس القاعدة الإيمانية

ما المقصود بالقاعدة الإيمانية؟

بناء القاعدة الإيمانية يعني تمكين الإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ في المشـــاعر المختلفة، ليُصبح المـــرء رقيق القلب، سريع الاســـتثارة عند تعرُّضه لأدنى مؤثـــر، فينعكس ذلك على طريقة تعامله مع أحداث الحياة بتقلباتها المتغيرة.

والمقصود بتمكين وبناء الإيمان في المشـــاعر المختلفة هو بناء الثقة في الله عَزَّوَجَلَّ، وفي أسمائه وصفاته، وفي اليوم الآخر، وبقية أركان الإيمان.

هذه الثقة والطمأنينة ينبغي أن تكون لها اليد الطولى في المشاعر المختلفة.

فإن تساءلت: وكيف يُمكن للإيمان أن يصل إلى هذه الدرجة؟!

قد يُجيب البعض عن هذا التســـاؤل إجابة نظرية؛ فيطرح أعمالًا ووســـائل من شـــأنها -في نظره- أن تصل بالمرء لهذا المستوى الإيماني، فمن قائل: بأن علينا الإكثار من صيام النفل وقيـــام الليل والأوراد والأذكار والتســـابيح ومكابدة ذلك وتحمله سنوات وســـنوات، إلا أن هذه الإجابة تختلف عن إجابة البعض الآخر الذي يتبنى -من الناحيـــة النظرية- القيام بأعمال أخرى كالإكثار مـــن الأعمال الاجتماعية ذات النفع الـــمُتعدِّي للآخرين..

.. مما لا شك فيه أن كل هذه الأعمال الصالحة وغيرها لها وظيفة عظيمة في زيادة الإيمان، شريطة أن تُؤدى بإحســـان -كما أســـلفنا- لكننا هنا نتحـــدث عن القاعدة

الإيمانية باتساعها في القلب، والتي تسبق الأعمال الصالحة في الترتيب والأهمية.

إن طريقة بناء تلك القاعدة في المشاعر المختلفة يحتاج إلى نوعية خاصة من الأعمال التي تُخاطب العقل وتقنعه بكل ما ينبغي الإيمان به، وتستثير في الوقت ذاته المشاعر حتى تتحول القناعة العقلية إلى حالة إيمانية يعيشها القلب.. على أن تستمر هذه المخاطبة حتى تتحول تلك الحالة إلى إيمان مستقر في القلب، وليس ذلك فحسب بل ينبغي أن يتناول ذلك جميع المشاعر المختلفة حتى تظهر ثمار الإيمان في كل الأحوال والتقلبات الحياتية التي يتعرض لها المرء.

تعرفهم بسِيماهم

لكي نتفق على الطريقة الصحيحة لتأسيس القاعدة الإيمانية، علينا أن نبحث في التاريخ عن نموذج حقيقي من البشر ظهرت عليه آثار وثمار الإيمان المتنوعة والشاملة، والتي تُعَدّ بمثابة مرآة تعكس وجود تلك القاعدة في القلب، فإن وجدناه علينا أن نتحرى عن الأسباب التي أدَّت إلى تكوينها بإذن الله.

والباحث المنصف في تاريخ الأمة لن يجد إلَّا جيلًا واحدًا ظهرت عليه تلك الثمار الشاملة، ألا وهو جيل الصحابة رضوان الله عليهم، ولعل ما قيل في الفصل الثاني (ثمار الإيمان) ما يؤكد هذا الأمر.

ليبقى السؤال عن سبب وصولهم إلى هذا المستوى الإيماني السامق حتى نحذو حذوهم، وبخاصة أنهم كانوا قبل إسلامهم في ذيل الأمم، وكانوا يغرقون في ظلمات الجاهلية، وكان حالهم أسوأ بكثير من حالنا الآن.. كانوا يعبدون الحجارة، ويأتون الفواحش، ويقطعون الأرحام، ويئدون البنات، ويأكل القوي منهم الضعيف..

فكيف حدث لهم هذا التحول العجيب؟!

كيف استطاعوا أن يصلوا إلى هذا المستوى الإيماني الفذّ؟

فإن قلت: قد يكون وجود الرسول ﷺ بينهم هو السبب في ذلك!!

فالإجابة -بفضل الله- أنه ما من شك في أن وجود الرسول ﷺ بين الصحابة كان له دور كبير في استقامتهم، فهو المعلم والمربِّي، ولكن لو كان الأمر يقف عند هذا الحد لأصبح من المستحيل الوصول إلى هذه الدرجة الإيمانية أو الاقتراب منها في ظل غياب شخص الرسول ﷺ.

.. هذه واحدة، والأخرى أنه ﷺ عندما هاجر إلى المدينة وجد مستويات إيمانية عالية من أُناس لم يسبق له أن رآهم أو تعامل معهم من قبل، فبعد بيعة العقبة أرسل الرسول ﷺ مصعب بن عمير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لأهل يثرب ليدعوهم إلى الإسلام، وقد كان، وانشرحت الصدور للدين الجديد، وامتلأت القلوب بالإيمان من قبل مجيء المهاجرين إليهم ومن بعدهم رسول الله ﷺ، ويكفي للاستدلال على قوة إيمانهم ما فعلوه مع المهاجرين من إيثار عجيب مع شدة فقرهم، والذي تم الحديث عنه في مقدمة الكتاب، وذكرته الآية الكريمة: ﴿ **وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ** ﴾ [الحشر: ٩].

والعجيب أن الكثير من شعائر الإسلام لم تكن قد فُرِضت في هذه المرحلة حتى نقول بأن التزامهم بالعبادات والأعمال الصالحة كان السبب في هذا الإيمان الفذ..

فكيف وصلوا لهذا المستوى؟!

ماذا فعل معهم مُصعب بن عمير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ؟!

كل مـــا في الأمر أن مصعبًا عندما ذهب إلى يثرب كان معه ما نزل من القرآن، أو بعبارة أخرى كانت معه المعجزة التي نزلت من الســـماء والتي من شـــأنها أن تُحدث زلزالًا رهيبًا في القلوب، فلا تســـتقر بعده على حالها الســـابق، بل تكون في حالة من الانبهار الشديد، والاستسلام لرب هذه المعجزة.

لقد كان مصعب يُدرك أن معه معجـــزة عظيمة لها آثار مزلزلة على من يتعرض لها؛ لذلك كان إذا أراد أن يدعو أحدًا إلى الإسلام؛ يقرأ عليه آيات من القرآن، فيحدث له الزلزال؛ ومن ثَمَّ التســـليم والإذعان الفوري، لدرجة أن أهل يثرب أطلقوا عليه لقب: «الـــمُقرئ»، ولك -أخي القارئ- أن تتأكد من هذا الأمر إذا ما قرأت قصة إسلام أُسيد بن حضير، وسعد بن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

فأُسيد بن حضير، وسعد بن معاذ كانا سيدي (الأوس)، وقد ضاقا ذرعًا بالدعوة الجديـــدة التي يحمل لواءها مصعب بن عمير، فعزمـــا على إخراجه من يثرب بعد أن تزايد عدد من أسلم من أهلها على يديه، وذات مرة كان مصعب في بستان من بساتين بني (عبد الأشـــهل) يدعو الناس إلى الإسلام، ويقرأ عليهم القرآن، فإذا بأُسيد يأخذ حربته ويتوجه نحو البســـتان، فلما رآه أســـعد بن زرارة مقبلًا قال لمصعب: ويحك يا مصعب، هذا سيد قومه وأرجحهم عقلًا: أسيد بن حضير، فإن يُسلم يتبعه في إسلامه خلقٌ كثير، فاصدق الله فيه..

وقف أســـيد بن حضير على الجمع، والتفت إلى مصعب وصاحبه أسعد، وقال: ما جاء بكما إلى ديارنا، وأغراكما بضعفائنا؟! اعتزلا هذا الحي إن كانت لكما بنفسيكما حاجة.

فالتفت مصعب إلى أسيد قائلًا: يا سيد قومه، هل لك في خير من ذلك؟

قال: وما هو؟

قال: تجلس إلينا، وتسمع منَّا، فإن رضيت ما قلناه قَبِلته، وإن لم ترضه تحولنا عنكم ولم نعد إليكم.

فقال أسيد: لقد أنصفت، وركز رمحه في الأرض وجلس، فأقبل عليه مصعب فكلمه عن الإسلام، وقرأ عليه شيئًا من آيات القرآن، فانبسطت أساريره، وأشرق وجهه، وقال: ما أحسن هذا الذي تقول! ما أجلَّ ذلك الذي تتلو! كيف تصنعون إذا أردتم الدخول في الإسلام؟

قال مصعب: تغتسل وتطهر ثيابك، وتشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وتصلي ركعتين ففعل، ثم قال: إن ورائي رجلًا إن تبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه، وسأرشده إليكما الآن -سعد بن معاذ- ثم أخذ حربته وانصرف إلى سعد في قومه. فقال سعد: أحلف بالله لقد جاءكم بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم.

.. ثم ذهب سعد إلى مصعب فحدث له ما حدث لأسيد.. حدث له أن مس القرآن قلبه بأثره المزلزل فأسلم واستسلم لله، وخرج مسرعًا إلى قومه يقول لهم: إن كلام رجالكم ونسائكم عليَّ حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله[1].

الجيل الرباني

من هنا نقول بأن القرآن الكريم هو الوسيلة العظيمة والمتفردة التي قامت بتغيير الصحابة.. ويؤكد د. فريد الأنصاري هذا المعنى فيقول: إن القرآن الكريم كان هو

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٢٠٧)، والرحيق المختوم للمباركفوري (١٦٣، ١٦٤).

الباب المفتوح والـــمباشر الذي ولجه الصحابة الكرام إلى ملكوت الله، حيث صُنعوا على عــين الله.. إنه الســبب الوثيق الذي تعلقت بــه قلوبهم، فأوصلهــم إلى مقام التوحيد[١]، أو كما قال الرسول ﷺ في الحديث الصحيح: «**كِتَابُ اللهِ، حَبْلٌ مَمْدُودٌ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ**»[٢].

.. (لقــد توثَّق ارتباط الصحابــة بالقرآن في العهد النبــوي، ارتباطًا عمَّق صلة القلوب بربها، إلى درجة أنهم كانوا يتتبعون الوحي تتبع الملهوف الحريص على الترقِّي في مدارج المعرفة بالله والسلوك إليه سبحانه، فهذا عمر بن الخطاب عندما كان مكلفًا، وصاحبًا له بالمرابطة في ثغر من ثغور المدينة، ترقُّبًا لغزو مُتوقَّع من ملك غســان)[٣]، كان يتناوب النزول مع صاحبه إلى الرسول ﷺ لمعرفة خبر الوحي، فيقول في ذلك:

كان لي جــار من الأنصار؛ فكنا نتناوب النزول إلى رســول الله ﷺ فينزل يومًا، وأنزل يومًا، فيأتيني بخبر الوحي وغيره، وآتيه بمثل ذلك، وكنا نتحدث أن غســان تنعل الخيول لتغزونا[٤].

لقد كان القرآن هو المنبع الأول والمنهج المؤثر الذي قام بتربية الصحابة، ورفعهم إلى أعلى الآفاق بعد أن كانوا في أسفل السفوح، وكان الرسول ﷺ يقوم بوظيفة المعلم والـــمُربي الذي يتعاهد فعل القرآن فيهم، ويُعمق معانيه في نفوسهم، ويشرح لهم ما

(١) التوحيد والوساطة في التربية الدعوية، د. فريد الأنصاري (ص: ٤٦).

(٢) الترمذي (برقم: ٣٧٨٨) كتاب المناقب (باب: ٧٧) مناقب أهل بيت النبي ﷺ، مسند الإمام أحمد (٣٥/ ٤٥٦ برقم: ٢١٥٧٨)، ابن أبي عاصم في السنة (برقم: ٧٥٤).

(٣) التوحيد والوساطة في التربية الدعوية، د. فريد الأنصاري (ص: ٤٢).

(٤) البخاري: كتاب العلم، باب: التناوب في العلم (١/ ٣٦ برقم: ٨٩)، كتاب المظالم، باب: الغرفة والعلية المشرفة والغير مشرفة في السطوح وغيرها (٣/ ١٤٢ برقم: ٢٤٦٨)، مسلم كتاب الطلاق، باب في الإيلاء ... (٢/ ١١٠٥ برقم: ١٤٧٩)، الترمذي (برقم: ٣٣١٨).

أُشــكل فهمه عليهم.. كان ﷺ هو المُبلغ عن الله، والمُربي والقدوة العملية لتمام وكمال العبودية لله عَزَّوَجَلَّ..

إنهم صُنِعوا ها هنا

عندما تحدثنا -بفضــل الله- في الفصل الثاني عن ثمار الإيمان؛ كانت الأمثلة من جيل الصحابة رضوان الله عليهم، فقد كانــوا جيلًا من الربانيين العابدين الزاهدين المجاهدين المتواضعين، ليكونوا بمثابة أعظم وأصدق شهادة لقوة تأثير القرآن، وأكبر دليل إثبات لقدرته -بإذن الله- على إعادة صياغة وتشكيل الإنسان على النحو الذي يُحبه الله ويرضاه مهما كان انحرافه وضلاله..

وفي هذا المعنى يقول سيد قطب رحمه الله:

لقد كنت وأنا أُراجع ســيرة الجماعة المسلمة الأولى أقف أمام شعور هذه الجماعة بوجود الله -سبحانه- وحضوره في قلوبهم وفي حياتهم، فلا أكاد أُدرك كيف تم هذا؟!

كنت أُدرك طبيعة وجود هذه الحقيقة وحضورها في قلوبهم وفي حياتهم، ولكني لم أكن أُدرك كيف تم هذا، حتى عُدت إلى القرآن أقرؤه على ضوء موضوعه الأصيل: تجلية حقيقة الألوهية، وتعبيد الناس لها وحدها بعد أن يعرفوها.

.. وهنا فقط أدركت كيف تم هذا كله!

أدركت -ولا أقول أحطت- سر الصنعة، عرفت أين صُنع ذلك الجيل المتفرد في تاريخ البشرية وكيف صُنع!

> **إنهــم صُنعوا ها هنا! صُنعوا بهذا القرآن! بهــذا المنهج المُتجلي فيه! بهذه الحقيقــة المتجلية في هــذا المنهج! حيث تُحيط هــذه الحقيقة بكل شيء، وتغمر كل شيء، ويصدر عنها كل شيء، ويتصل بها كل شيء، ويتكيف**

بهـا كل شيء.. بهذا كله وجـدت -في الأرض وفي دنيا الناس- حقيقة «الربانية» متمثلة في أُناس من البشر.

وُجد «الربانيون» الموصولون بالله، العائشـون بالله، ولله، الذين ليس في قلوبهم، وليس في حياتهم إلا الله..

وحينما وُجدت حقيقة «الربانية» هذه في دنيا الناس، ووُجد الربانيون الذين هم الترجمـة الحقيقية لهـذه الحقيقة.. حينئذٍ انسـاحت الحواجز الأرضيـة، والمقررات الأرضية، والمألوفات الأرضية، ودبَّت هذه الحقيقة على الأرض، وصنع الله ما صنع في الأرض وفي حياة النـاس بتلك الحفنة من العباد.. وبطلـت الحواجز التي اعتاد النـاس أن يروها تقف في وجـه الجهد البشري وتَحُدُّ مـداه، وبطلت المألوفات التي يقيس بها الناس الأحداث والأشـياء.. ووُجد الواقع الإسلامي الجديد، ووُلد معه الإنسان الحقيقي الجديد[١].

من هنا نُدرك كيف كان حزن الصحابة على انقطاع الوحي، وليس أدل على ذلك مما رواه أنس ﷺ عندما قال:

قـال أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بعد وفاة رسـول الله ﷺ لعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «انطلق بنا إلى أم أيمن نزورها كما كان رسـول الله ﷺ يزورها.. فلما انتهينا إليها، بكت، فقالا لها: ما يُبكيك؟ ما عند الله خير لرسوله ﷺ. فقالت: ما أبكي أن لا أكون أعلم أن ما عند الله خير لرسوله ﷺ، ولكن أبكي أن الوحي قد انقطع من السماء! فهيجتهما على البكاء، فجعلا يبكيان معها»[٢].

---

(١) مقومات التصور الإسلامي.

(٢) مسلم في فضائل الصحابة، باب من فضائل أم أيمن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا (٤/ ١٩٠٧ برقم: ٢٤٥٤).

تأثر الصحابة بالقرآن

ذاق الصحابة -رضوان الله عليهم- حلاوة الإيمان من خلال القرآن، وأدركوا قيمته، فأقبلوا عليه وانشغلوا به، وانجذبت مشاعرهم نحوه لدرجة الاستغراق والهيمنة:

فهذا عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يسمع رجلًا يقرأ: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ۝٨﴾ [الطور: ٧، ٨]، فجعل يبكي حتى اشتد بكاؤه، فقيل له في ذلك، فقال: دعوني، إني قد سمعت قَسَمَ حقٍّ من ربي[١].

وكان عبد الله بن عباس يُقرئ عبد الرحمن بن عوف في خلافة عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ .. قال عبد الله بن عباس: لم أر أحدًا يجد من القشعريرة ما يجد عبد الرحمن عند القراءة[٢].

وفي يوم من الأيام قال بعض الصحابة لرسول الله ﷺ: ألم تر ثابت بن قيس بن الشماس لم تزل داره البارحة تزهر مصابيح؟!

قال: «**فَلَعَلَّهُ قَرَأَ بِسُورَةِ الْبَقَرَةِ**»، فسُئل ثابت فقال: قرأت سورة البقرة[٣].

.. نزل رجل من العرب على عامر بن ربيعة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فأكرم عامر مثواه، وكلم فيه رسول الله ﷺ، فجاء الرجل إليه بعد ذلك، فقال: إني استقطعت رسول الله ﷺ واديًا ما في العرب أفضل منه، ولقد أردت أن أقطع لك منه قطعة تكون لك ولعقبك.

فقال عامر: لا حاجة لي في قطيعتك، نزلت اليوم سورة أذهلتنا عن الدنيا:

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في الرقة والبكاء (برقم:١٠٠).

(٢) الانتصار للقرآن للباقلاني (١/ ٢٠١)، ومختصر قيام الليل لمحمد بن نصر (ص: ١٤٥).

(٣) فضائل القرآن لأبي عبيد (ص: ٦٦)، وابن كثير في فضائل القرآن، وقال: إسناده جيد.

﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ ۝١﴾ [الأنبياء: ١][(١)].

المصدر المتفرد

إذن فالقرآن الكريم هو المصدر المتفرد والوسيلة العظيمة التي صنعت الجيل الأول؛ ومن ثَمَّ فهو المؤهل للقيام بهذه الوظيفة معنا إن أحسنَّا التعامل معه.

.. هذا من ناحية الواقع العملي، أما من ناحية الشروط التي تم الحديث عنها في الصفحات السابقة والخاصة بتأسيس القاعدة الإيمانية، فإن جميعها متحقق في القرآن وزيادة وزيادة، وكيف لا والذي أنزله هو رب العالمين، العالم باحتياجاتهم.. الذي يُريد لهم الخير والقرب الدائم منه: ﴿أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [الفرقان: ٦].

إن طريقة القرآن في زيادة الإيمان، وبناء قاعدته في جميع المشاعر طريقة فريدة لا يُمكن للعقل البشري القاصر أن يُحيط بها، ويكفيك في ذلك أن تتعرف على تأثير آيات القرآن عندما تُتلى على من يُحسن استقبالها: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ سُجَّدٗا ۝١٠٧ وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا ۝١٠٨ وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ يَبۡكُونَ وَيَزِيدُهُمۡ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٧ - ١٠٩].

فهؤلاء الذين أشارت إليهم الآيات عندما سمعوا القرآن خرُّوا إلى الأذقان سُجدًا من تأثيره عليهم.. اندفعوا نحو الأرض بجباههم دون أن يُطلب منهم ذلك.. دفعهم لهذا السجود قوة تأثير الآيات على قلوبهم، واستثارتها الفائقة لمشاعر الإجلال والتعظيم لله عَزَّوَجَلَّ، فلم يملكوا أنفسهم، ولم يستطيعوا السيطرة على مشاعرهم،

(١) تفسير ابن كثير (٥/ ٣٣٢)، والدر المنثور للسيوطي (٥/ ٦١٥)، وروح المعاني للألوسي (١٧/ ٢).

فاندفعوا ساجدين خاشعين باكين: ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [السجدة: ١٥].

وكأن هذا هو الحال الذي ينبغي أن يكون عليه كل من يستمع آيات القرآن؛ لِما فيها من قوة تأثير جبارة؛ لذلك ذم الله عَزَّوَجَلَّ من لا يؤمن ولا يخشع عند سماعه للقرآن: ﴿ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ﴾ [الانشقاق: ٢٠، ٢١].

فمن لم يتأثر بالقرآن ويزدد به إيمانًا، فبماذا سيتأثر ويؤمن؟! ﴿ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ ﴾ [المرسلات: ٥٠].

المعرفة الشاملة

القرآن كتاب عظيم به آلاف الآيات التي تتضمن الكثير والكثير من المعلومات عن الله عَزَّوَجَلَّ، وعن أسمائه وصفاته وآثارها في الكون، ويحتوي كذلك على كل ما ينبغي أن يؤمن به الإنسان لينجح في مهمته على الأرض.

ولئن كان يصعُب على البعض النظر الصحيح، والتفكر في الكون وآياته المشهودة فإن القرآن العظيم يختصر له الكون، بل ويرشده إلى طريقة التفكر فيه: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ﴾ [الرعد: ٢]، ﴿ خَلَقَ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَـٰنِ مِن تَفَـٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ ﴾ [الملك: ٣، ٤].

والقرآن العظيم كذلك -يحتوي بإجمال- على أهم الأحداث التي مرَّت بالبشرية ليأخذ منها المسلم العبر والعظات التي تُعينه على القيام بواجبه الصحيح على الأرض.

ولك أن تتأمل آيات سورة القمر، وكيف أنها تذكر العديد من قصص السابقين

كقوم نوح وعاد وثمود، ثم نجد كل قصة منها تنتهي بقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ ﴾ [القمر: ١٧]، أي أنك إن كنت -أيها القارئ- لم تُشاهد ما حدث لهؤلاء، وفاتك أخذ العبرة منهم، فإن القرآن يكفيك، ويُقدم لك خلاصة تلك الأحداث: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ [يوسف: ١١١].

ويؤكد: «إن القرآن الكريم وهو يتناول الحقائق والمقومات التي يقوم على أساسها التصور الإسلامي للوجود، ويُقدم على أساسها التفسير الصحيح لهذا الوجود أيضًا.. لم يدع جانبًا منها يراود الفكر البشري عنه سؤال إلا وقد أجاب عن هذا السؤال، ولم يدع انحرافًا في تصورها يخالط الفكر البشري إلا وصحح هذا الانحراف، بحيث يستقيم في القلب والعقل وفي الكينونة البشرية بجملتها تصور كامل من وراء هذا البيان الشامل، وتفسير صحيح للوجود كله وللتاريخ الإسلامي»[(١)].

المعرفة المؤثرة

.. القرآن الكريم لا يُقدم لقارئه المعلومة فقط، بل يُقدمها بطريقة تُقنع العقل، وتستثير المشاعر في آن واحد، فينشأ الإيمان -بإذن الله.

وإذا ما داوم المرء على قراءة القرآن -قراءة صحيحة- ازداد إيمانًا.. لماذا؟

لأنه ازداد معرفة نافعة ومؤثرة: ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا ﴾ [الأنفال: ٢].

(١) مقومات التصور الإسلامي (ص: ٨٠).

ويُقــارن بديع الزمان النورسي بــين المعرفة التي يُقدمها القــرآن والمعرفة التي يُقدمها علم الكلام، فيقول:

حقًّا، إن معرفة الله المســتنبطة من علم الكلام ليســت هي المعرفة الكاملة، ولا تورث الاطمئنان القلبي.

في حين أن تلــك المعرفة متى ما كانت على نهج القــرآن الكريم المعجز، تُصبح معرفة تامة، وتُسكب الاطمئنان الكامل في القلب.

إن المعرفة المُستقاة من القرآن الكريم تمنح الحضور القلبي الدائم مع الله.

ويضرب النورسي مثالًا للفرق بين الأمرين:

لأجل الحصول على الماء، هناك من يأتي به بواسطة أنابيب من مكان بعيد يَحفُر في أسفل الجبال، وآخرون يجدون الماء أينما حفروا، ويُفجِّرونه أينما كانوا.

فالأول ســير في طريق وَعر وطويل، والماء مُعرَّض فيه للانقطاع والشُّحة، بينما الذين هم أهل لحفر الآبار فإنهم يجدون الماء أينما حلُّوا دونما صعوبة ومتاعب.

.. إن كل آية من آيات القرآن الكريم كعصا موسى تُفجِّر الماء أينما ضربت..[١].

ويقول: لا حاجة إلى الاستضاءة بنور الشموع ما دامت هناك شمس ساطعة[٢].

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية:

إن اللذة والفرحة والسرور، وطيب الوقت، والنعيم الذي لا يمكن التعبير عنه، إنما هو في معرفة الله عَزَّوَجَلَّ، وتوحيده، والإيمان به، وانفتاح الحقائق الإيمانية والمعارف

(١) المكتوبات (٤٢٥، ٤٢٦) باختصار وتصرف يسير.

(٢) المصدر السابق (٤٦٣).

القرآنية[١]، وكيف لا (والقرآن يُثير العواطف، ويوقظ العقول في وقت واحد، وبعد الاقتناع يطمئن العقل ويهدأ الإحساس، ويشعر الإنسان بنشوة الفرح والارتياح)[٢].

القرآن يستثير جميع المشاعر

الذي يُقبل على القرآن إقبالًا صحيحًا فيتفكر في معانيه ويتأثر بها يجد أنه يُخاطب جميع مشاعره، فتارة يستثير فيه مشاعر الخوف والرهبة، وتارة الفرح والاستبشار، وتارة الرضا والتفويض، وتارة السكينة والطمأنينة، وتارة الحب والشوق إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

يقول ابن القيم:

«لا شيء أنفع للقلب من قراءة القرآن بالتدبر والتفكر، فإنه جامع لجميع منازل السائرين وأحوال العاملين، ومقامات العارفين، وهو الذي يورث المحبة والشوق، والخوف والرجاء، والإنابة والتوكل، والرضا والتفويض، والشكر والصبر، وسائر الأحوال التي بها حياة القلب وكماله»[٣].

(يشعر القارئ (المتدبر للقرآن) أنه يعيش حياة نابضة في عالم آخر غير الذي يعيش، يُدرك أن روحًا تسري فيه.

.. يحس من يقرأ في القرآن متنقلًا بين آياته وسوره أنه يعيش في قرية صغيرة، يجمعها مكان واحد، هي هذه المعمورة رغم اتساعها، ويكتنفها زمان واحد من لدن آدم حتى قيام الساعة.. نصوص مفتوحة أمامها الطريق، لا يحُدُّها زمان، ولا يُقيدها

(١) رسائل ابن تيمية في السجن (ص: ٣١).
(٢) التعبير القرآني والدلالة النفسية للجيوسي (ص: ١٣٦).
(٣) مفتاح دار السعادة (١/ ٥٥٣).

مكان، تلقي تعاليمها لهذا الإنسان الذي لا تتغير مشاعره وجوانبه النفسية وميوله على اختلاف الزمان.

هكذا يجد كل إنسان فيه بُغيته.. يُقبل عليه المهموم ليجد فيه بلسمه، ويُقبل عليه المحزون ليجد فيه سلوته، ويُقبل عليه العالم ليجد فيه طلبته، ويُقبل عليه الهارب من قيود الحياة الرتيبة ليجد فيه خلوته.. يُقبل عليه الضال التائه الحائر ليجد ضالته.

انظر كيف أن آيات السورة الواحدة تنتقل بك من موضوع إلى آخر، ومن وصف إلى قصص، إلى وعد ووعيد، إلى تشريع،....

.. هذا، وإن في تنوع سور القرآن طولًا وقصرًا، انسجامًا مع هذه النفس الإنسانية التي تمل الرتابة، كل سورة من سور القرآن تُضيف لبنة نفسية إلى ذلك الكيان الإنساني، حتى تجده مع آخر سورة قد اكتمل بناؤه النفسي، وتكاملت مشاعره وأحاسيسه.

.. من هنا نُدرك الحكمة من كثرة النصوص الواردة في حثِّ المسلم على الإقبال على هذا القرآن، وإشارة النصوص إلى ضرورة أن يكون لهذا الإنسان ورد يومي وزاد يتقوَّت به في يومه، وأهمية قراءة القرآن من أوله إلى آخره؛ لأنها تُمكن المرء من استثارة كامل مشاعره التي تنطوي عليها نفسه)[1].

القرآن وبناء الإيمان

وإليك -أخي القارئ- بعض اللمحات اليسيرة عن طريقة القرآن الفريدة في بناء الإيمان:

(١) التعبير القرآني والدلالة النفسية للجيوسي (ص: ٢٢٤-٢٢٦) باختصار، دار الغوثاني - دمشق.

القرآن الكريم يطرح جميع الحقائق التي ينبغي الإيمان بها طرحًا يُخاطب به العقل فيُقنعه بشتى أساليب الإقناع من خلال الحوار الذي يُشعر قارئ القرآن أنه أحد أطرافه، ويصل معه في النهاية إلى الإجابة المقنعة للقضية المثارة، وخلال هذا الحوار نجد هناك أسئلة تُطرح وأمثلة تُضرب وإجابات تُفحِم وتُدحِض أي شبهة.

فعلى سبيل المثال:

شبهة أن القرآن ليس من عند الله، وأن محمدًا ﷺ قد افتراه من عنده، نجد الرد على هذه الشبهة في أكثر من موضع في القرآن بأدلة عقلية دامغة، كقوله تعالى في سورة هود: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾ [هود: ١٣، ١٤].

.. ومع الإقناع العقلي فإن القرآن يستثير المشاعر في الوقت نفسه من خلال أساليبه المتنوعة من تشويق وترغيب وترهيب، ومن خلال القصة والموعظة، فعلى سبيل المثال: سورة النبأ تناقش قضية البعث والجزاء، وتُثبتها من الناحية العقلية من خلال حثّ القارئ على الإجابة عن أسئلة بدهية مفادها أن الذي جعل لك النوم سُباتًا، والنهار معاشًا، وأنزل المطر، وبسط الأرض، وثبَّتها بالجبال، و..، هو الذي يُخبرك أن هناك يومًا للجزاء..

ومع هذا الإقناع العقلي يأتي الترهيب بذكر هول يوم القيامة وبشاعة النار، وكذلك ذكر الجنة، وبعض ما فيها من ألوان النعيم، فتُستثار المشاعر مع تلك القناعة العقلية فينشأ الإيمان بإذن الله.

وليس ذلك فحسب... فمن أهم الوسائل التي يتفرد بها القرآن لاستثارة المشاعر

هي الطريقة التي ينبغي أن يُتلى بها؛ ألا وهي الترتيل والتغني به طبقًا لأحكام التجويد: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤﴾ [المزمل: ٤].

أهمية الترتيل

إن تحسين الصوت بالقرآن وترتيله له وظيفة عظيمة في الطرق على المشاعر لاستثارتها، فيؤدي ذلك إلى امتزاج القناعة العقلية بالعواطف المنفعلة، لذلك كان الحث على تحسين الصوت عند قراءة القرآن.

قال رسول الله ﷺ: «**زَيِّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ**»(١).

وقال ﷺ: «**لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِالْقُرْآنِ**»(٢).

وقيل لابن أبي مُليكة: «يا أبا محمد، أرأيت إذا لم يكن حسن الصوت؟ قال: يحسنه ما استطاع»(٣).

ويؤكد ابن حجر العسقلاني على هذا المعنى فيقول:والذي يتحصل من الأدلة أن حُسن الصوت بالقرآن مطلوب، فإن لم يكن حسنًا فليحسنه ما استطاع(٤).

ويقول الجيوسي في كتابه «التعبير القرآني والدلالة النفسية»:

القرآن الكريم كتابٌ لا كأي كتاب، فهو يُتلى بطريقة مرتبة، على أصول منظمة،

(١) أبو داود كتاب الصلاة، باب استحباب الترتيل في القراءة (٢/ ١٥٥ برقم: ١٤٦٨)، والنسائي في المجتبى (٢/ ١٧٩)، مسند الإمام أحمد (٣٠/ ٤٥١ برقم: ١٨٤٩٤).

(٢) البخاري كتاب فضائل القرآن، باب من لم يتغن بالقرآن (٦/ ١٣١ برقم: ٥٠٢٣-٥٠٢٤)، أبو داود (برقم: ١٤٧٣).

(٣) أبو داود (برقم: ١٤٧١).

(٤) فتح الباري (٩/ ٧٢).

يجب أن تُراعى فيه قواعد القراءة وأصول الأداء، وهذا مما اختص به القرآن الكريم على سائر الكتب، وورود الأمر بذلك في الآيات الأولى من مرحلة نزول القرآن: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ٤].

ولا شك أن هناك قواعد تتصل بالأداء القرآني لا بد من مراعاتها كأحكام التجويد، فالتجويد هو التحسين.

.. هذه الأحكام التي ينبغي لقارئ القرآن أن يُراعيها هي في حقيقة الأمر أحد أسرار ذلك الإيقاع الذي يشدُّ الأسماع إليه، لا تكاد تخلو آية من حُكم ما بين غُنّة أو مدّ أو إخفاء، أو غير ذلك من الأحكام التي تفرض على السامع لونًا معينًا لا يعهده في الكلام الاعتيادي، وإذا ما علمنا أن قراءة القرآن ينبغي أن تكون بالترتيل وبمراعاة هذه الأحكام، أدركنا أن ذلك سرٌّ كامنٌ في كتاب الله، هذا الذي يجعل النفس تنجذب إليه[١].

فإذا ما اقترن ذلك بحضور العقل وتفهُّمه للخطاب كان الأثر عظيمًا على القلب، كحال وفد نصارى نجران عندما استمعوا للقرآن: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [المائدة: ٨٣].

وجدير بالذكر أن (التغني بالقرآن هو تحسين الصوت بقراءة القرآن، بخلاف الغناء المعروف في زماننا، فالقصد من هذا الغناء أن يطرب ويُطرب غيره لا ليتعظ ويعتبر، فالتغني بالقرآن إذًا هو: **استماع المتكلم لما يُتَكلم به، مترنمًا بالنطق، مستحبًّا له، مستملحًا مستطيبًا للكلمات، ذوقًا لها ولمعانيها**)[٢].

(١) التعبير القرآني والدلالة النفسية، لعبد الله الجيوسي (ص: ١٦٤، ١٦٥) باختصار وتصرف يسير، دار الغوثاني – سوريا.

(٢) المصدر السابق (ص: ١٦٨).

ويؤكد الحافظ ابن كثير على هذا المعنى فيقول:

والغرض أن المطلوب شرعًا إنما هو التحسين بالصوت الباعث على تدبر القرآن وتفهمه، والخشوع والخضوع والانقياد للطاعة، فأما الأصوات بالنغمات المحدثة المركبة على الأوزان، والأوضاع المُلهية والقانون الموسيقائي، فالقرآن يُنزَّه عن ذلك[1].

أهمية المداومة على تلاوة القرآن

القرآن يُخاطب العقل فيُقنعه، ويضغط على المشاعر فيستثيرها، لينشأ بذلك الإيمان - بإذن الله -، فيُثمر ذلك الإيمان مزيدًا من العبودية لله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الزمر: ٢٧، ٢٨].

والقرآن يعرض جميع الحقائق التي ينبغي الإيمان بها، وعلى رأسها الإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ وبأسمائه وصفاته.

والإيمان الذي يحدثه القرآن يتناول جميع المشاعر، فإذا ما داوم المرء على تلاوته، وأعطاه وقتًا معتبرًا من يومه فإن هذا من شأنه أن يزيده إيمانًا، وهكذا تستمر زيادة الإيمان حتى تستقر وترسخ في المشاعر، وتكون له اليد الطولى بها، وباستمرار التلاوة يزداد الترقي الإيماني، ويزداد ظهور ثمار الإيمان.

من هنا كان الحث في القرآن والسنة على ضرورة المداومة على تلاوة القرآن حتى يتحقق مقصوده العظيم بتحصيل العلم والإيمان والترقي في مدارج السائرين إلى الله.

(١) فضائل القرآن لابن كثير (١/ ١٩٥).

فمن الآيات قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [فاطر: ٢٩].

وقوله: ﴿ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ [النمل: ٩١، ٩٢].

وقوله: ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

ومن الأحاديث النبوية، قول رسول الله ﷺ: «**تَعَاهَدُوا الْقُرْآنَ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَهُوَ أَشَدُّ تَفَصِّيًا مِنَ الْإِبِلِ فِي عُقُلِهَا**»(١).

وقوله ﷺ: «**اقْرَؤُوا الْقُرْآنَ، وَلَا تَغْلُوا فِيهِ، وَلَا تَجْفُوا عَنْهُ، وَلَا تَأْكُلُوا بِهِ، وَلَا تَسْتَكْثِرُوا بِهِ**»(٢).

ولمَّا جاء وفد ثقيف إلى المدينة أنزلهم رسول الله ﷺ في قبة بين المسجد، وبين أهله، فكان يأتيهم ويُحدثهم بعد العشاء، وفي ليلة من الليالي تأخر عليهم ثم أتاهم، فقالوا له: يا رسول الله، لبثت عنَّا الليلة أكثر مما كنت تلبث، فقال ﷺ: «**إِنَّهُ طَرَأَ عَلَيَّ حِزْبِي مِنَ الْقُرْآنِ فَكَرِهْتُ أَنْ أَجِيءَ حَتَّى أُتِمَّهُ**»(٣).

ولكي يقع هذا الحث النبوي مواقعه الصحيحة فلا يؤدي إلى إسراع البعض في القراءة دون تفكُّر وتفهُّم، كانت التوجيهات النبوية بضرورة التركيز وجمع العقل مع

(١) البخاري كتاب فضائل القرآن، باب استذكار القرآن وتعاهده (٦/ ١٣٣ برقم: ٥٠٣٣)، مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضائل القرآن (١/ ٥٤٥ برقم: ٧٩١).

(٢) مسند الإمام أحمد (٢٤/ ٢٨٨ برقم: ١٥٥٢٩، ١٥٥٣٥)، البزار (برقم: ٢٣٢٠)، ابن أبي شيبة (٢/ ٤٠٠-٤٠١).

(٣) أبو داود: كتاب الصلاة، باب تحزيب القرآن (٢/ ١١٤برقم: ١٣٩٣)، ابن ماجه: كتاب إقامة الصلاة باب في كم يستحب أن يختم القرآن (١/ ٤٢٧ برقم: ١٣٤٥).

التلاوة، ومن ذلك قوله ﷺ: «**إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ مِنَ اللَّيْلِ فَاسْتَعْجَمَ الْقُرْآنُ عَلَى لِسَانِهِ فَلَمْ يَدْرِ مَا يَقُولُ، فَلْيَضْطَجِعْ**»(١).

وقوله لعبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وهو يوضح له سبب نهيه عن قراءة القرآن في أقل من ثلاثة أيام: «**لَا يَفْقَهُهُ مَنْ يَقْرَؤُهُ فِي أَقَلِّ مِنْ ثَلَاثٍ**»(٢).

وعندما نزلت آيات سورة آل عمران: ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾**﴾ [آل عمران: ١٩٠]. قال ﷺ: «**لَقَدْ نَزَلَتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةَ آيَةٌ، وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأَهَا وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا**»(٣).

الإنصات التام أثناء التلاوة

أيضًا هناك وسيلة في غاية الأهمية لا بد أن تصاحبنا أثناء تلاوتنا للقرآن، وهي الإنصات التام -قدر المستطاع- لما نقرأ أو نسمع من الآيات.. فما هو المقصود بالإنصات؟

الإنصات هو أعلى درجات تركيز المرء مع الصوت، سواء أكان هذا الصوت يأتيه من مصدر خارجي، أم كان يردده بلسانه، أم يقرؤه بعينه.

فقد يحدث أن يسمع الشخص كلامًا وهو شارد الذهن يفكر في موضوع (ما)؛ مما يجعله لا يستمع لما يتلقاه بالكلية ولا يفهم المراد من الكلام.

وقد يحدث أن يسمع كلامًا وهو يريد سماعه لكنه ليس بصافي الذهن، فهو هنا

(١) أخرجه مسلم (١/ ٥٤٣ برقم: ٧٨٧).

(٢) حديث صحيح: أخرجه أحمد (١١/ ١٠٤ برقم: ٦٥٤٦)، وأبو داود كتاب الصلاة، باب تحزيب القرآن (٢/ ٥٦ برقم: ١٣٩٤)، الترمذي في كتاب القراءات، باب:١٣ (٥/ ٤٧ برقم: ٢٩٤٩)، ابن ماجه في كتاب إقامة الصلاة، باب في كم يستحب ختم القرآن (برقم: ١٣٤٧) بلفظ: «**لَمْ يَفْقَهْ مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ فِي أَقَلَّ مِنْ ثَلَاثٍ**».

(٣) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٢/ ٣٨٦ برقم: ٦٢٠).

يســتمع للكلام ويعرف محتواه، ولكنه غير مستغرق معه، كأن يفكر في موضوع آخر في الوقت ذاته، أو يســتمع إلى كلام آخر، أو يناجي من حوله، كقوله تعالى: ﴿إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ﴾ [الإسراء: ٤٧].

فإذا ما شعر المرء بأهمية ما يسمع أو يقرأ، وكان الكلام مما تشتد حاجته إليه:... تجده يُصغي سمعه وينصت، فينتقل من مرحلة الاســتماع إلى مرحلة الإنصات والإصغاء؛ حيث التركيز التام لما يتلقى لدرجة الاستغراق والتوحد مع ما يتلقاه.

وهــذا الصنف الثالث هو الذي حثنا الله جل شــأنه عــلى الاتصاف بحالهم عند التعامل مع القرآن العظيم، ســواء أتلوناه بألسنتنا أم اســتمعنا إليه من غيرنا: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

ويقص علينا القرآن المجيد قصة الجن حين اســتمعوا القــرآن للمرة الأولى، فقد أدركوا أهميته القصوى، وحاجتهم الماسة إليه فماذا قالوا؟! ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٩].

فحري بنــا أن نفعل مثل ما فعلوا حتى ننتفع بالقرآن: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

وخلاصة القول

إذا ما أردنا بناء القاعدة الإيمانية باتساعها في جميع مشاعر القلب فلا بد من العودة الصحيحــة إلى القرآن، وإعطائه وقتًا معتبرًا من يومنــا، وأن نُداوم على ذلك كل يوم.. نقرؤه بتفكر وترتيل وصوت حزين، فإن لم نفعل ذلك فلا نلومن إلا أنفسنا عندما نُفاجأ بعد الموت بأنه كان بين أيدينا كنز عظيم، فهجرناه بمحض إرادتنا، وقد كان بإمكاننا من

خلال حُسن التعامل معه أن نقترب أكثر وأكثر من الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ [الأنعام: ١٠٤].

القرآن والسنة

وغني عن البيان أن الحديث عن القرآن يشمل الحديث عن السنة بالتبعية، فكما يقول ابن رجب: فأما السُّنة فهي مفسرة للقرآن، ومُبيِّنة، وموضحة، فهي تابعة له، والمقصود الأعظم هو القرآن..[١].

وليس أدل من أهمية التمسك بالسنة مع القرآن من قول رسول الله ﷺ: «**تَرَكْتُ فِيكُمْ شَيْئَيْنِ، لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُمَا: كِتَابُ اللهِ، وَسُنَّتِي، وَلَنْ يَتَفَرَّقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ**»[٢].

ابتعاد الأمة عن الانتفاع الحقيقي بالقرآن

ومما يدعو للأسف أن جيل الصحابة لم يتكرر مرة ثانية في تاريخ الأمة حتى الآن، ومن أهم الأسباب لذلك هو هجر الانتفاع بالقرآن كمصدر متفرد لتحصيل العلم والإيمان: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠].

إن مشكلتنا الرئيسة مع القرآن والتي تمنعنا من الانتفاع الحقيقي به هي ضعف إيماننا به، وثقتنا فيه كمصدر متفرد لتحصيل العلم والإيمان؛ ومن ثَمَّ التغيير.. ولك -أخي القارئ- أن تتأكد من هذا التشخيص بإجراء اختبار لنفسك وللآخرين، بأن تتخيل بأنك يومًا ما رغبت في قراءة شيء من الرقائق والمواعظ لترقيق قلبك، فاتجهت إلى مكتبتك، ووقع بصرك على كتاب التوهم للمحاسبي، والتبصرة لابن الجوزي، ومدارج

(١) الاستغناء بالقرآن في تحصيل العلم والإيمان لابن رجب.

(٢) أخرجه الحاكم (١/ ١٧٢ برقم: ٣١٩)، والدارقطني (٤/ ٢٤٥).

السالكين لابن القيم، وإحياء علوم الدين للغزالي، ووقع بصرك -فيما وقع- على المصحف، فأي الكتب ستختار؟! وما هو ترتيب القرآن في هذا الاختيار؟!

ستُفاجأ أخي -كما حدث لي وفوجئت- بأن القرآن هو آخر كتاب ستختاره لهذه المهمة.. هذا إن كنت ستضعه في دائرة الاختيار والتفضيل.

إنه أمر يدعو إلى الحسرة.. كتاب الله أعظم وسيلة للتأثير يُصبح مهجورًا بهذه الطريقة؟!

يا حسرة على العباد

أخي: هل انطفأ نور القرآن؟

> **لا والله، فهو كما هو النور المبين، وسيظل تأثيره أقوى من تأثير أي نور آخر، ولكننا أدرنا له ظهورنا، ولم نُحسن توجيه نوره لعقولنا وقلوبنا، فلم نشعر بأثره، فهل نقول لأنفسنا: «يا حسرة على العباد؟!».**

يقول معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: سيبلى[١] القرآن في صدور أقوام كما يبلى الثوب فيتهافت[٢]، يقرؤونه لا يجدون له شهوة ولا لذة[٣].

لقد صدق معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فلقد ضعفت قيمة القرآن في قلوبنا، وأصبحنا لا نجد اشتهاء للإقبال عليه، ولا لذة حينما نتلو آياته.

.. لقد تضافرت عوامل كثيرة أدَّت إلى هذا الهجر الخطير للقرآن، ولكن حيث إنه لا بديل أمامنا سوى العودة إليه والانتفاع به لتحصيل العلم النافع لعقولنا، والإيمان

(١) بلي الثوب: من كثرة استعماله حتى صار قديمًا لا قيمة له.
(٢) التهافت: التساقط والتتابع.
(٣) أخرجه الدارمي في سننه (٢/ ٥٣١ برقم: ٣٣٤٦).

المتجدد لقلوبنا، والتزكية الصحيحة لنفوسنا، والحركة الدائبة لخدمة ديننا، فلا بد من بذل غاية الجهد، واجتياز كافة العقبات التي تحول بيننا وبينه..

أخي القارئ

لو أن رجلًا يعمل في مكان بعيد عن أهله، وعلِم أن ابنه قد مرِض مرضًا عضالًا، وأنه يحتاج إلى دواء (مـــا) وصفه له الأطباء، وأن هذا الـــدواء غير متوفر ببلد الابن، فبحث عنـــه حتى وجده، ووضعه في صندوق محكم غايـــة الإحكام، وبالغ في وضع الأغلفة على الصندوق وأرسله إلى ابنه، وعندما وصلت العلبة إليه وعلم أن فيها دواءه حاول فتحها هو ومن حوله فلم يستطيعوا، فماذا تظن أنهم سيفعلون؟

هل سييأســـون من فتحها وينصرفون عنها، أم ســـيحاولون فتحها مرات ومرات ومرات حتى ينجحوا؟

لقد أصبح بيننا وبين القرآن حجاب كثيف، يحول بيننا وبين الانتفاع به، فلا ينبغي علينـــا أن نيأس إن أقبلنا على القرآن فلم نجـــد أي تجاوب، فالأمر يحتاج إلى محاولات متكررة، وإلحاح شديد على الله عَزَّوَجَلَّ، وتَبؤُّس وانكسار حتى يفتح لنا سبحانه أبواب القرآن، وتصل أنواره إلى عقولنا وقلوبنا.

يقول المحاسبي:

فإن طلبت الفهم بصدق أقبل عليك بالمعونة..

لا يَثقُل فهم كلامه إلا على من تعطل قلبه ألا يسمع..

فإن علم -ســـبحانه- من التـــالي لكتابه صدق ضمير، وعنايـــة حتى يجمع همه للفهـــم، أفهمـــه.. ألا تســـمعه يقـــول: ﴿**إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا**﴾ [الأنفال: ٧٠].

فـإذا أقبلت على الله بصدق نية، ورغبة لفهـم كتابه بإجماع همٍّ، متوكلًا عليـه أنه هو الذي يفتح لك الفهـم: لم يخيبك من الفهم والعقل عنه إن شاء الله»[١].

ويقـول الزركشي: «إذا كان العبد مصغيًا إلى كلام ربه، مفتقرًا إلى التفهم، بدعاء وتضرع، وابتئاس وتمسكن، ومنتظرًا للفتح عليه من الفتاح العليم، وأن تكون تلاوته على معاني الكلام؛ فهذا القارئ أحسن الناس صوتًا بالقرآن، وفي مثله يقول الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ﴾ [البقرة: ١٢١].. وهذا هو الراسخ في العلم»[٢].

فمن هنا نقول -بيقين- بأننا إن اسـتطعنا أن ندخـل على القرآن دخول التلميذ المُتشـوق للمعرفة حينما يُقابل أعظم أستاذ، وداومنا على ذلك، فإن القرآن سيفتح لنا أبوابه، وسـيغزو نوره قلوبنا، لنكون من بعد ملاقاتـه قومًا صالحين بإذن الله، وأكثر إيمانًا وبهجة وسكينة.

التحدي الكبير

لا يُمكن للتربية الإيمانية أن تتم بمراحلهـا المختلفة دون التعامل الصحيح مع القـرآن، وهذا لن يحـدث إلا إذا زادت الثقة فيـه، كمصدر متفـرد لتنوير العقول والقلوب، وتزكية النفوس: ﴿ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ ﴾ [التغابن: ٨].

هذا هو التحدي الكبير الذي يواجهنا..

---

(١) فهم القرآن للمحاسبي (١/ ٣٢٤).

(٢) البرهان في علوم القرآن للزركشي (٢/ ١٨١).

فالحل بين أيدينا، ومع ذلك لن نقدر على الانتفاع به ما ضعف إيماننا به وضعفت ثقتنا فيه.

من هنا نقول: إن نقطة البداية في طريق الانتفاع بالقرآن بعد الاستعانة الصادقة والمستمرة بالله عَزَّوَجَلَّ هي تنمية الثقة فيه والإيمان به حتى تزداد رغبتنا فيه، وإقبالنا الصحيح عليه.

وتنمية هذه الثقة تحتاج منَّا إلى القيام ببعض الأمور:

أولها: التعرف على أوصاف القرآن من القرآن

فكلما تعرَّف المرء على فاعلية الدواء الذي سيستخدمه؛ ازدادت ثقته فيه، فكما يقول الحارث المحاسبي: «لقد عظم الله عَزَّوَجَلَّ القرآن وسمَّاه: برهانًا، ونورًا، ورحمة، وموعظة، ومجيدًا، وبصائر، وهدى، وفرقانًا، وشفاء لما في الصدور، وذلك ليعظم قدره عند المؤمنين، فيقبلوا عليه منبهرين ومقِّدرين، ومتدبرين، فينالوا به شفاء قلوبهم.

وأخبرنا أنه أحسن من كل حديث ومن كل قصص: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ [الزمر: ٢٣].

﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ [يوسف: ٣].

وأخبرنا أنه لا يفنى ولا ينفد: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا ١٠٩﴾ [الكهف: ١٠٩]»[1].

(١) فهم القرآن للمحاسبي (ص: ٢٨٢)، دار الكندي.

ثانيها: التعرف على النماذج القرآنية التي صنعها القرآن على مر العصور

ولعل أهم قدوة في ذلك: رسولنا محمد ﷺ، ثم صحابته الكرام الذي قال عنهم الإمام القرافي:

«لو لم يكن لرسول الله ﷺ معجزة إلا أصحابه لكفوه في إثبات نبوته»[١].

فعلينا أن نتعرف على علاقة الرسول ﷺ بالقرآن، وكيفية تعامله معه، ووصاياه نحوه.

وعلينا كذلك أن نتعرف على أثر القرآن على الصحابة، وكيفية تناولهم له، وتوجيهاتهم لمن بعدهم.

وهناك نماذج قرآنية في العصر الحديث تُعطينا الأمل في إمكانية تكرارها بيننا، فعلينا أن نتعرف عليها وعلى أثر القرآن فيها.

ومن هذه النماذج: محمد إقبال، وبديع الزمان النورسي، وعبد الحميد بن باديس، وسيد قطب، وأبو الحسن الندوي، وأبو الأعلى المودودي، وفريد الأنصاري.

ثالثها: التعرف على أهم العوائق التي تحول بيننا وبين الانتفاع بالقرآن، وأهمها بإجمال

الصورة الموروثة عنه، وطول إلف سماعه، ونسيان الهدف الذي من أجله نزل، والانشغال بفروع العلم والتبحر فيها، وغياب أثره في واقع الحياة، ورسوخ مفاهيم ساهمت في عدم الانتفاع به كالخوف من التفكر فيه، وأهمية الإسراع في حفظه، والسعي وراء تحصيل الثواب فقط من تلاوته؛ مما يؤدي إلى الإسراع في القراءة دون

(١) الفروق للقرافي (٤/ ٣٠٣).

تفهُّم ولا تفكر، وغير ذلك من المفاهيم والممارسات التي تُشكل حاجزًا نفسيًّا يمنعنا من الانتفاع الحقيقي بالقرآن.

.. وقبل ذلك كله، فإن كيد الشيطان واجتهاده في الحيلولة بين المسلمين وبين وصول القرآن إلى عقولهم وقلوبهم -لعِلمه بِعِظم أثره على دينهم ودنياهم وسلوكهم وأخلاقهم- من أهم عوائق الانتفاع بالقرآن.

ولعلك تجد -أخي القارئ- بعض التفصيل حول هذه العوائق في كتاب «تحقيق الوصال بين القلب والقرآن»[1]، وفيه كذلك العديد من النماذج العملية للأثر الإيجابي للقرآن العظيم، فاقرأه -إن شئت- على أن تكون قراءة متأنية من بدايته حتى نهايته، لعل هذه القراءة تُسهم -بإذن الله- في تحقيق الهدف الذي ترمي إليه هذه الصفحات.

التواصي والتعاهد

من أخطر العوائق التي تحول بيننا وبين الممارسة العملية المستمرة لقراءة القرآن والتفكر في معانيه والتأثر بها، هو تعودنا على طريقة شكلية لتلاوته؛ تلك التي تُركز على قراءة أكبر قدر من آياته دون التفكر في معانيها، وبخاصة في شهر رمضان، بحثًا -فقط- عن الثواب المترتب على قراءتها.

لذلك من المتوقع أن يجد المرء صعوبة بالغة في الانتقال إلى الطريقة الصحيحة في قراءة القرآن، والتي تُحقق قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص: ٢٩].

(١) بفضل الله، الكتاب موجود على موقع الإيمان أولًا: www.alemanawalan.com.

نعم، قــد ينجح في هذا الأمر يومًــا أو بضعة أيام، ولكنه سرعــان ما يعود إلى الطريقة القديمة في القراءة.

.. إن الذي تعــوَّد أن يأكل بيده اليسرى ثلاثين عامًــا يصعب عليه الأكل بيده اليمنى بمجرد أنه قد عرف أهمية ذلك، فالأمر يحتاج منه إلى عزم أكيد، وتوكل عظيم على الله عَزَّوَجَلَّ، وممارســة طويلة، ومن المتوقع أنه ســيجد معاناة شــديدة حتى يعتاد الأكل باليمنى.

ونفس الأمر بخصوص القرآن، فلقد اعتدنا قراءته والتعامل معه بشكل غير صحيح، ولكي يتم تعديل ذلك لا بد من استعانة صادقة بالله، وعزم أكيد، وممارســة، ومتابعة، وتعاهد ممن سبقونا في هذا الأمر حتى نتعود عــلى القراءة اليومية للقرآن، بتفكر وترتيل وصوت حزين، وتفاعل مع الآيات التي نتأثر بها.

وسائل عملية للانتفاع بالقرآن

ولتمام الفائدة نضع بين يديك -أخي القارئ- بعض الوســائل العملية التي من شأنها أن تضعنا -بإذن الله- على بداية طريق الدخول إلى عالم القرآن وتفتح لنا أبواب الانتفاع به، فعلينا أن نستخدمها عند تلاوتنا اليومية للقرآن، وأن تسير جنبًا إلى جنب مع وسائل تنمية الثقة في القرآن والتي ذُكرت آنفًا.

أولًا: قبــل أن نبدأ القراءة علينا بالإلحاح عــلى الله عَزَّوَجَلَّ أن يفتح قلوبنا لأنوار كتابــه، وأن يكرمنا ويعيننا على التفكر فيه والتأثر بآياته ومن ثم تدبره، ولنتذكر جميعًا بأن الإلحاح الشــديد على الله هو أهم مفتاح يفتح القلــوب للقرآن، فليكن -إذن- إلحاح ودعاء وتضرع كتضرع المضطر الذي يخرج دعاؤه من أعماق قلبه.

يقول ابن رجب: على قدر الحُرقة والفاقة تكون إجابة الدعاء[١].

ثانيًا: القراءة في مكان هادئ بعيد عن الضوضاء، حتى يتسنَّى جمع العقل والقلب مع القرآن، وكذلك اختيار الوقت المناسب الذي يكون فيه المرء بعيدًا عن الإجهاد البدني أو الذهني، ولا ننسى الوضوء والسواك.

ثالثًا: تخصيص وقت معتبر للقراءة لا يقل في البداية عما يُقارب الساعة المتصلة، وحبذا لو كان أكثر من ذلك، مع مراعاة ضرورة عدم قطع القراءة بأي أمر من الأمور -ما أمكن ذلك- حتى لا نخرج من جو القرآن، وسلطان الاستعاذة.

رابعًا: القراءة من المصحف وبصوت مسموع وبترتيل، على أن تكون القراءة هادئة حزينة لاستجلاب التأثر بإذن الله. وإذا كنت متعبًا أو مريضًا، فمن الممكن أن تستمع إلى القرآن من أحد القراء، ويُفضل أن تمسك المصحف بيديك وتنظر لما تسمع.

خامسًا: الفهم الإجمالي للآيات من خلال إعمال العقل في تفهُّم الخطاب، وهذا يستلزم منَّا التركيز التام مع القراءة.

وليس معنى إعمال العقل في تفهم الخطاب أن نقف عند كل كلمة ونتكلف في معرفة معناها وما وراءها، بل يكفي المعنى الإجمالي الذي تدل عليه الآية حتى يتسنَّى لنا الاسترسال في القراءة؛ ومن ثَمَّ التصاعد التدريجي لحركة المشاعر، فتصل إلى التأثر والانفعال في أسرع وقت[٢].

سادسًا: الاجتهاد في التعامل مع القرآن كأنه أُنزل عليك وكأنك المُخاطَب به، والتفاعل مع هذا الخطاب من خلال الرد على الأسئلة التي تطرحها الآيات، والتأمين

(١) الذل والانكسار لابن رجب (١/ ٣٠٧).

(٢) يُفضَّل القراءة في مصحف يوجد على هامشه معاني الكلمات الغريبة عن فهم القارئ، حتى يتسنَّى له معرفة معناها وقت القراءة، دون الحاجة لقطع القراءة والبحث عنها.

عند مواضع الدعاء، والاستغفار في مواضع طلب الاستغفار... وهكذا.

سابعًا: تكرار وترديد الآية أو الآيات التي يحدث معها تجاوب وتأثر مشاعري حتى يتسنى للقلب الاستزادة من النور الذي يدخل عن طريقها، والإيمان الذي ينشأ في هذه اللحظات.

ويستمر ترديد الآية أو الآيات ما دام هناك تأثر وتفاعل معها.

ثامنًا: إعادة قراءة الآيات التي يشرد عنها العقل ويتركها ويسبح في أودية الدنيا، أما الآيات التي لم نتأثر بها فليس علينا أن نُعيد قراءتها؛ لأن التأثر حالة قلبية لا نملك استدعاءها، وهي في الغالب تأتي -بإذن الله- بعد الاسترسال في القراءة بترتيل وصوت حزين وفهم إجمالي، والله الموفق.

تاسعًا: حسن الابتداء والوقف

من الأمور المعينة كذلك على فهم المعنى الإجمالي للآيات: حُسن الابتداء والوقف.

يقول النووي رحمه الله:

ويستحب للقارئ إذا ابتدأ من وسط السورة أن يبتدئ من أول الكلام المرتبط بعضه ببعض، وكذلك إذا وقف عند المرتبط وعند انتهاء الكلام، ولا يتقيد في الابتداء ولا في الوقف بالأجزاء والأحزاب والأعشار، فإن كثيرًا منها في وسط الكلام المرتبط[1].

عاشرًا: استصحاب معنى من المعاني الإيمانية

هناك وسيلة أخرى من شأنها أن تُسرع الخطى -بإذن الله- نحو الدخول إلى عالم

(١) الأذكار للنووي (ص: ١٦٣).

القرآن، ودائرة تأثيره القوية على الإنسان.

هذه الوسيلة هي استصحاب معنى من المعاني الإيمانية، والبحث عن مدلوله من خلال رحلتنا مع القرآن.

فإذا ما كانت رحلة المسلم مع كتاب ربه تبدأ من سورة الفاتحة وتنتهي بسورة الناس؛ فلتكن من سمات كل رحلة البحث عن معنى جديد من المعاني التي تؤسس القاعدة الإيمانية في القلب وتبني اليقين في العقل.

ومما لا شك فيه أن استصحاب معنى إيماني أو أكثر في كل رحلة سيكون له بعون الله وفضله أبلغ الأثر في تذوق حلاوة الإيمان، فإذا ما صاحب ذلك ربط مدلول هذا المعنى بواقع الحياة فلا تسل عما سيحدثه من قرب حقيقي، ومعرفة، وأنس بالله عَزَّوَجَلَّ، والتمتع بالحياة الطيبة التي وعد الله بها عباده وأولياءه.

ومن أمثلة تلك المعاني الإيمانية

الإيمان بالله الواحد الأحد، الإيمان بالله الودود، الإيمان باليوم الآخر، الدنيا دار امتحان، الإيمان بالله الرقيب القريب، ....[1].

ملاحظة

في حالة تولد الرغبة لمعرفة تفسير بعض الآيات المقروءة أو أسباب نزولها، فمن الأفضل الرجوع للتفاسير بعد انتهاء القراءة حتى لا نخرج من جو القرآن والانفعالات الوجدانية التي نعيش في رحابها.

وأخيرًا: علينا ألَّا نيأس إن تأخر تجاوب القلب مع القرآن، فلا بديل عنه في

(١) تم الحديث -بفضل الله- في كتاب بناء الإيمان من خلال القرآن عن هذه المعاني الإيمانية وغيرها بشيء من التفصيل.

تحقيق أهداف التربية الإيمانية، ولا حل أمامنا سوى الاستمرار في قراءته -كل يوم -بترتيل وتفكر وصوت حزين حتى يأتي الفتح من الفتاح العليم.

ولنعلم جميعًا بأن التحدي الأكبر الذي يواجهنا في طريقنا نحو تحقيق التربية الإيمانية الصحيحة، هو كيفية الاتصال بالقرآن والدخول إلى عالمه، والخطوة الأولى في هذا هي المداومة على القراءة اليومية -مهما كانت الشواغل- بتفهم وتفكر وترتيل حتى يمس قلوبنا بإذن الله.

فإن نجحنا في ذلك فلنبشر بقرب ظهور الجيل القرآني -الجيل الموعود بالنصر والتمكين-

فهل قَبِلنا التحدي؟!

هيا.. هيا.. ، فلنبدأ من الآن بأهم خطوة: العزم الأكيد والإلحاح الشديد على الله عَزَّوَجَلَّ بأن يفتح لنا أبواب القرآن، ويجعل عقولنا تفهم معانيه، وقلوبنا تتأثر بها.

• • •

الفصل السادس

العمل الصالح
وكيف ننتفع به في زيادة الإيمان؟!

الهدف الذي ترمي هذه الصفحات إلى تحقيقه –بإذن الله– هو كيفية الانتفاع الحقيقي بالعمل الصالح في زيادة الإيمان وتحسين السلوك، وذلك من خلال التعرف على الوسائل التي من شأنها تحفيز المشاعر قبل القيام به.

ولكي نكتسب مهارة التحفيز قبل القيام بالعمل علينا أن نتدرب طويلًا على استخدام الوسائل المختلفة المذكورة في تلك الصفحات وغيرها، والله الموفق.

العمل الصالح

وكيف ننتفع به في زيادة الإيمان؟!

لا يكفي ونحن نسير في طريقنا لبناء صرح الإيمان في القلب التركيز على أعمال القلوب فقط، بل لا بد من القيام بأعمال صالحة بالجوارح تُثبِّت الإيمان وترفع بنيانه.

فلو اكتفينا بعمل القلب ولم نهتم بالعمل الصالح فإن الإيمان سيظل محدودًا في القلب، ولن يظهر أثره الواضح على صاحبه، وبمرور الوقت قد ينزوي وينزوي في القلب.

يقول الإمام الغزالي:

«والعمل يؤثر في نماء الإيمان وزيادته كما يؤثر سقي الماء في نماء الأشجار»[1].

فلا بد من الاثنين معًا حتى يتم البناء الصحيح لصرح الإيمان: ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾﴾ [الفرقان: ٧١].

الانتفاع بالعمل الصالح

ولكي يتم الانتفاع بالعمل الصالح لا بد من استجاشة المشاعر قبل القيام به، ليحدث الاتصال بين المشاعر والجوارح، فيُثمر أداء العمل -بعد ذلك- زيادة الإيمان في هذه المشاعر.

(١) إحياء علوم الدين (١/ ١٢٠).

فـإن لم يحدث هذا الاتصـال قبل العمل، فلن يكون لأداء هـذا العمل أثر على المشاعر؛ ومن ثَمَّ السلوك.

وكلما قوي الاتصال بين المشـاعر والجوارح قبل وأثناء العمل، كان الأثر أشـد وأقوى، وكما قيل سـلفًا فإن الأعمال تتفاضل بتفاضل حركة القلب والمشاعر معها، وأكبر مثال لذلك الصلاة:

يقول رسول الله ﷺ: «**إِنَّ الرَّجُلَ لَيَنْصَرِفُ وَمَا كُتِبَ لَهُ إِلَّا عُشْرُ صَلَاتِهِ، تُسْعُهَا، ثُمْنُهَا، سُبْعُهَا، سُدْسُهَا، خُمْسُهَا، رُبْعُهَا، ثُلْثُهَا، نِصْفُهَا**»(١).

أهمية التذكرة قبل العمل

من هنا تبرز أهمية التذكـرة قبل القيام بأداء العمل الصالـح حتى يتم الانتفاع الحقيقي به، ومثال ذلك ما قاله رسـول الله ﷺ: « **اذْكُرِ الْـمَوْتَ فِي صَلَاتِكَ، فَإِنَّ الرَّجُلَ إِذَا ذَكَرَ الْـمَوْتَ فِي صَلَاتِهِ لَحَرِيٌّ أَنْ يُحْسِنَ صَلَاتَهُ**»(٢).

والتذكرة النافعة هي التي تستجيش وتستثير المشاعر.

ومـن الضرورة بمكان وجـود إيمان في القلب -ولـو كان ضعيفًا- ولا بد من اسـتثارة هذا الإيمان بالتذكرة حتى يحدث الوصال بين المشاعر والجوارح: ﴿ **وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [الذاريات: ٥٥].

(١) أبو داود كتاب الصلاة، باب ما جاء في نقصان الصلاة (١/ ٥٠٣ برقم: ٧٩٦)، مسند الإمام أحمد (٣١/ ١٧١ برقم: ١٨٨٧٩)، ابن حبان (٥/ ٢١٠ برقم: ١٨٨٩).

(٢) أخرجه البيهقي في الزهد الكبير (برقم: ٥٢٧)، والديلمي في الفردوس (برقم: ١٧٥٥).

وكلما كانت مساحة الإيمان في القلب كبيرة كان حجم التذكرة المطلوبة لاستثارته قليلة، أما إذا كان الإيمان محـــدودًا ومنزويًا في القلب، فإن التذكرة المطلوبة لا بد وأن تكون شديدة حتى تتمكن من إحداث هزة في المشاعر القاسية..

وكذلك فـــإن التذكرة المطلوبة للأعمال الكبيرة الشـــاقة على النفوس أعظم من غيرها، فالقتال في ســـبيل الله على ســـبيل المثال من الأعمال التي تشق على النفوس؛ لذلـــك كان التوجيه القـــرآني للرســـول ﷺ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِۚ ﴾ [الأنفال: ٦٥].

ومعنى «حرِّض»: أي بالِغ في حثِّهم وتحفيزهم.

وهدف التحفيز والتذكير هو استجاشة المشـــاعر.. مشاعر الرغبة أو الطمع أو الرهبة أو الغيرة.. إلخ.

وكلما قويت تلك الاستجاشة واستمرت أثناء القيام بالعمل كان الأثر عظيمًا في زيادة الإيمان؛ ومن ثَم تحسين السلوك.

والمتأمل للخطاب القرآني والخطاب النبوي يجد أنهما يســـتخدمان هذه الطريقة قبل التوجيه المطلوب القيام به، ومن النادر أن يخلو توجيه من تحفيز يسبقه.

من فقه التحفيز

لئن كان الجناح الثاني للتربية الإيمانية هو العمل الصالح، فإن الانتفاع به انتفاعًا حقيقيًّا في زيادة الإيمان يحتاج إلى تحفيز واستجاشة المشاعر قبل القيام به.

ولكي تكون هذه الطريقة ملازمة للعمل بصورة دائمة فإنها تحتاج إلى ممارســـة ومكابدة مرات ومرات، حتى يتعود المرء عليها، ويقوم بتنفيذها بصورة تلقائية..

ومفهوم التحفيز والتذكير قبل القيام بالعمل يشترك -إلى حد كبير- مع مفهوم استحضار النية قبل العمل، فالنية: هي القصد والتوجه، وكلما كان التوجه إلى الله عَزَّوَجَلَّ بالعمل كبيرًا وعميقًا كان العمل أنفع..

فإن قلت: كيف أقوم بتحفيز نفسي وتحفيز الآخرين قبل القيام بالعمل؟!

هناك وسائل كثيرة للتحفيز والتذكير يمكن للمرء أن يستخدمها مع نفسه ومع الآخرين، وسنذكر العديد منها -بعون الله تعالى- في الأسطر القادمة، مع العلم بأنه ليس من المطلوب استخدامها كلها قبل القيام بالعمل، بل علينا أن نأخذ منها ما يناسب العمل المراد القيام به، والوقت المتاح أمامنا لممارسة هذا التحفيز.

فالذي يجد أمامه في الطريق غصنًا أو حجرًا فإنه يحتاج إلى تحفيز نفسه سريعًا بوسيلة أو وسيلتين قبل أن يرفعه من الطريق، والذي يجد أمامه عجوزًا يريد عبور الطريق فإنه يحتاج إلى تحفيز سريع كذلك.

أما الذي يذهب للمسجد لأداء الصلاة فعنده من الوقت ما يجعله يستخدم عدة وسائل في التحفيز، وكذلك الذي يذهب لمساعدة محتاج أو زيارة مريض أو صلة رحم.. وهكذا.

المهم أن نجتهد غاية الإمكان في تحفيز أنفسنا وتذكيرها قبل القيام بالعمل، وأن نستخدم من الوسائل ما يتناسب مع الوقت والعمل، وإن كانت هناك وسائل تكاد تكون مشتركة في كل الأعمال: كالتذكير بالله وابتغاء مرضاته، وبأهمية العمل وفضله؛ ولذلك أنصح نفسي وأنصحك -أخي القارئ- باقتناء كتاب عن فضائل الأعمال[١].

● ● ●

(١) ومن هذه الكتب: رياض الصالحين للنووي، والمتجر الرابح للحافظ الدمياطي.

وسائل التحفيز

أولًا: السؤال

السؤال يستثير مشاعر الرغبة داخل الإنسان لمعرفة الإجابة، والسؤال كذلك يشغل الذهن بطلب الإجابة؛ ومن ثمَّ فهو من الوسائل المهمة لتنبيه العقل، فإذا ما انتبه العقل كان من السهل استثارة المشاعر بالوسائل الأخرى.

لذلك علينا أن نسأل أنفسنا قبل أداء العمل:

لماذا أقوم بهذا العمل؟!

ثم نبحث عن الإجابة من خلال استعراض الوسائل الأخرى التي ستأتي لاحقًا -بإذن الله- وأهمها: تذكُّر أن الله عَزَّوَجَلَّ يحب هذا العمل، وتذكُّر فضله وأهميته..

.. تأمل قوله تعالى لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾﴾ [طه: ١٧].

فالله -عَزَّوَجَلَّ- يعلم أن ما بيمينه عصا، ولكن المطلوب هو تركيز انتباه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لأقصى درجة.

والقرآن مليء بالتوجيهات والمعاني الإيمانية التي تسبقها أسئلة، كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾﴾ [الصف: ١٠].

وقوله: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾﴾ [الكهف: ١٠٣].

وقوله: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢﴾﴾ [النبأ: ١، ٢].

والسنة كذلك مليئة بتوجيهات ومعانٍ إيمانية تسبقها أسئلة:

قال رسول الله ﷺ: «**أَتَدْرُونَ مَا الْـمُفْلِسُ؟**» قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع. فقال: «**إِنَّ الْـمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ، وَصِيَامٍ، وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ، فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ**»[(١)].

وقوله ﷺ: «**أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلَ مِنْ دَرَجَةِ الصِّيَامِ وَالصَّلَاةِ وَالصَّدَقَةِ، إِصْلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ فَإِنَّ فَسَادَ ذَاتِ الْبَيْنِ هِيَ الْـحَالِقَةُ**»[(٢)].

وقوله ﷺ: «**أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى سَيِّدِ الِاسْتِغْفَارِ؟! اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، وَأَبُوءُ إِلَيْكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَعْتَرِفُ بِذُنُوبِي فَاغْفِرْ لِي ذُنُوبِي، إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، لَا يَقُولُهَا أَحَدُكُمْ حِينَ يُمْسِي فَيَأْتِي عَلَيْهِ قَدَرٌ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ إِلَّا وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ، وَلَا يَقُولُهَا حِينَ يُصْبِحُ فَيَأْتِي عَلَيْهِ قَدَرٌ قَبْلَ أَنْ يُمْسِيَ إِلَّا وَجَبَتْ لَهُ الْـجَنَّةِ**»[(٣)].

وعندما نذهب للوضوء نسأل أنفسنا: لماذا نتوضأ؟

---

(١) مسلم (برقم: ٢٥٨١) في البر، باب تحريم الظلم، الترمذي (برقم: ٢٤١٨) في صفة القيامة، باب ما جاء في شأن الحساب والقصاص.

(٢) أبو داود (برقم: ٤٩١٩) في الأدب، باب في إصلاح ذات البين، الترمذي (برقم: ٢٥٠٩) في صفة القيامة، باب سوء ذات البين هي الحالقة، ابن حبان (برقم: ٥٠٩٢).

(٣) البخاري (برقم: ٦٣٠٧) في الدعوات، باب أفضل الاستغفار، الترمذي (برقم: ٣٣٩٣) في الدعوات، باب (رقم: ١٥)، النسائي (برقم: ٥٥٢٢) في الاستعاذة، باب الاستعاذة من شر ما صنع.

وعندما نذهب للصلاة في المسجد نسأل أنفسنا: لماذا نصلي في المسجد؟

وعندما نذهب لصلة أرحامنا نسأل أنفسنا: لماذا نذهب إليهم؟

وهكذا في كل أعمالنا...

ثانيًا: تذكُّر الله عَزَّوَجَلَّ

من الوسائل المهمة التي تحفز للعمل، وتوجه النية توجيهًا صحيحًا: تذكُّر الله عَزَّوَجَلَّ في هذا العمل، وكيف أنه سبحانه وتعالى يحب من عبده القيام بهذا العمل، وأنه -سبحانه- يباهي بنا الملائكة عندما نقوم به، وأن هذا العمل وسيلة لنيل مرضاته، وأن العبودية له سبحانه تستدعي التقرب إليه بالأعمال الصالحة، فتستثير هذه المعاني -عندما نتذكرها- مشاعر الشوق والرغبة في الله عَزَّوَجَلَّ.

والآيات التي تؤكد هذا المعنى كثيرة.

منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢٢٢].

وقوله: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: ١١٠].

وقوله: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ﴾ [البقرة: ٢٦٥].

ونجد في السنة كذلك أحاديث تبدأ بالتذكير بالله عَزَّوَجَلَّ، وأنه يحب من عبده القيام بهذا العمل كقول رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلًا أَنْ يُتْقِنَهُ**»(١).

(١) البيهقي في شعب الإيمان (٤/ ١٨٦٧ برقم: ٥٣١٢، ٥٣١٤)، والطبراني في الأوسط (١/ ٤٩٢ برقم: ٩٠١)، وأبو يعلى في المسند (٧/ ٣٤٩ برقم: ٤٣٨٦).

وقوله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ يُحِبُّ سَمْحَ الْبَيْعِ، سَمْحَ الشِّرَاءِ، سَمْحَ الْقَضَاءِ**»(١).

وقوله ﷺ: «**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُحْسِنْ إِلَى جَارِهِ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَسْكُتْ**»(٢).

.. فإذا قمنا إلى الصلاة في الليل نتذكر أن الله عَزَّوَجَلَّ يحب أن يسمع صوتنا ومناجاتنا ودعاءنا له، وأن هذا العمل وسيلة من وسائل نيل مرضاته.

وإذا وجدنا أذًى في الطريق نُذكِّر أنفسنا بأن الله عَزَّوَجَلَّ يحب من عباده الرحماء الذين يشفقون على خلقه، ويحرصون على دفع الضر عنهم...

ثالثًا: التذكير بفضل العمل

النفس البشرية جُبلت على الرغبة في تحصيل أي نفع يُتاح أمامها؛ لذلك فمن أيسر وسائل استثارة المشاعر تجاه القيام بعمل ما: التذكير بالعائد الذي سيعود على المرء نظير أدائه له، ولقد حفلت نصوص القرآن والسنة بذكر الثواب المترتب على الأعمال لتكون حافزًا قويًّا للقيام بها.

فعلى سبيل المثال:

من الآيات القرآنية قوله تعالى في فضل الإنفاق: ﴿**مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن**

(١) أخرجه الترمذي كتاب البيوع، باب:٧٥ (٣/ ٦٠٩ برقم: ١٣١٩)، والحاكم (٢/ ٦٤ برقم: ٢٣٣٨).

(٢) مسلم (١/ ٦٩ برقم: ٤٨) في الإيمان، باب الحث على إكرام الجار واللفظ له، البخاري (برقم: ٦٠١٨) في الأدب، باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر (برقم: ٦١٣٦، ٦١٣٨) باب إكرام الضيف، وأبو داود (برقم: ٥١٥٤) في الأدب، باب في حق الجار.

﴿يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ [البقرة: ٢٦١].

وفي فضل الجهاد: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿١٠﴾ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾ [الصف: ١٠ - ١٢].

ومن الأحاديث النبوية في فضل ذكر الله قول رسول الله ﷺ: «**أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ وَأَرْفَعِهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ، وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ إِنْفَاقِ الذَّهَبِ وَالْوَرِقِ فِي سبيل الله، وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ ... ذِكْرُ اللهِ**»(١).

وقوله ﷺ في فضل الإنفاق: «**مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدْلِ تَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ وَلَا يَقْبَلُ اللهُ إِلَّا الطَّيِّبَ، فَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَتَقَبَّلُهَا بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يُرَبِّيهَا لِصَاحِبِهَا كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الْجَبَلِ**»(٢).

وفي فضل قيام الليل يقول ﷺ: «**عَلَيْكُمْ بِقِيَامِ اللَّيْلِ فَإِنَّهُ دَأْبُ الصَّالِحِينَ قَبْلَكُمْ، وَإِنَّ قِيَامَ اللَّيْلِ قُرْبَةٌ إِلَى اللهِ، وَمَنْهَاةٌ عَنِ الآثام ، وَتَكْفِيرٌ لِلسَّيِّئَاتِ، وَمَطْرَدَةٌ لِلدَّاءِ عَنِ الْجَسَدِ**»(٣).

---

(١) أخرجه الترمذي (٥/ ٤٥٩ برقم: ٣٣٧٧)، وابن ماجه (٢/ ١٢٤٥ برقم: ٣٧٩٠)، والحاكم (١/ ٦٧٣ برقم: ١٨٢٥)، وأحمد (٥/ ١٩٥ برقم: ٢١٧٥٠).

(٢) أخرجه البخاري (برقم: ١٤١٠) في الزكاة، باب الصدقة من كسب طيب، ومسلم (٢/ ٧٠٢ برقم: ١٠١٤)، والفلو: بفتح الفاء، وضم اللام، وتشديد الواو، هو الفرس أول ما يولد.

(٣) أخرجه الترمذي في الدعوات، باب (رقم: ١١٢) (٥/ ٥٥٢ برقم: ٣٥٤٩)، والبيهقي (٢/ ٥٠٢ برقم: ٤٤٢٥).

فعلينا إذن الاجتهاد بتذكير أنفسنا بفضل العمل قبل القيام به، وهذا يستدعي منا النظر في كتب فضائل الأعمال كالمتجر الرابح للحافظ الدمياطي وغيره.

رابعًا: التذكير بأهمية العمل

مشاعر الرغبة داخل القلب تستثار كلما أدرك المرء أهمية العمل الذي ينوي القيام به، فعلى سبيل المثال: إذا ما قام العبد بتذكير نفسه قبل قراءة القرآن بأنه سيقرأ كلام الله وما فيه من روعة وجلال، وأنه سيتناول الدواء الرباني الذي فيه شفاؤه، وأنه سيتعرض للنور المبين الذي يبدد الظلمات في عقله وقلبه، وأن الملائكة تقترب منه لتسمع قراءته و...، فإن ذلك من شأنه أن يستثير مشاعر الرغبة والشوق نحوه، فيقبل عليه إقبال الظمآن على الماء.

وإذا ما قام المرء بتذكير نفسه قبل زيارته لمريض أن هذه الزيارة سترفع معنويات المريض -بإذن الله- وتُسرّي عنه، وأنه سوف يجني منها رقة في قلبه، وامتنانًا لربه لأنها ستذكره بنعمة العافية التي يتقلب فيها، و...، فمن المتوقع أن يُقبل عليها بمشاعر متأججة.

وعند الإنفاق في سبيل الله يُذكِّر المرء نفسه بأن هذا الإنفاق قد يكون سببًا في إنقاذ مريض من الموت، وسد حاجة فقير معسر، وشكر لنعمة اليسار والغنى..

وعند قيام الليل يُذكِّر المرء نفسه بأن هذا القيام هو شرفه وعزه، وأنه من أفضل أوقات استجابة الدعاء، وأنه يعطي قوة في البدن وانشراحًا في الصدر، وبركة في اليوم.

خامسًا: الترهيب من ترك العمل

من طبيعة النفس أنها إذا ما خُوفت خافت، فإذا ما نجحنا في تذكير أنفسنا

بخطورة ترك العمل الصالح أو التهاون في أدائه، وما قد يترتب على ذلك من أضرار في الدنيا والآخرة؛ فإنها ستدفعنا للقيام به.

يقول أحد الأصدقاء: توجد لوحة إرشـــادية على أحد الجدران الخارجية لمسجد يقع على طريق سريع، مكتوب عليها: نظرًا لكثرة حوادث العبور من الطريق السريع عليك باستخدام نفق المشاة..

ويستطرد قائلًا:

كلما قرأت هذه اللوحة أجد نفسي تدفعني للعبور من النفق.

من هنا نقول: بأن من الوســـائل المهمة لاستثارة مشاعر الرهبة والشعور بالخطر الدافعـــة للعمل: التذكير بخطورة ترك العمل الصالح، أو بخطورة الإقدام على فعل المعاصي.

وهناك الكثير من الآيات والأحاديث التي تتحدث في هذا الشأن.

ومن ذلك قوله تعالى في الترهيب من ترك الإنفاق:

﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾﴾ [محمد: ٣٨].

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾﴾ [المنافقون: ٩].

وقول رســـول الله ﷺ في الترهيب من عدم إتمام الصلاة: «**أَسْـــوَأُ النَّاسِ سَرِقَةً الَّذِي يَسْرِقُ مِنْ صَلَاتِهِ**»، قالوا: يا رسول الله: وكيف يسرق من صلاته؟ قال: «**لَا يُتِمُّ**

رُكُوعَهَا وَلَا سُجُودَهَا، أَوْ قَالَ: لَا يُقِيمُ صُلْبَهُ فِي الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ»[١].

وقوله ﷺ في الترهيب من الظلم: «**اتَّقُوا دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ، فَإِنَّهَا تُحْمَلُ عَلَى الْغَمَامِ، يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: وَعِزَّتِي وَجَلَالِي لأَنْصُرَنَّكِ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ**»[٢].

سادسًا: التشجيع

من الحوافز ذات الأثر البالغ على النفس: استشعار المرء تقدير الآخرين له، فيؤدي ذلك إلى فتح منافذ الاستماع لهم، وزيادة الرغبة في القيام بما يطلبونه منه.

هذه الوسيلة ينبغي أن نستخدمها مع أنفسنا أو مع الآخرين في حدود ضيقة حتى لا تأتي بنتيجة عكسية وتتحول إلى صورة من صور المدح الذي يؤدي إلى استعظام المرء لنفسه، وشعوره بالأفضلية الذاتية على غيره.

والمتأمل في القرآن والسنة يجد مواقف عديدة استُخدمت فيها هذه الوسيلة في التحفيز للقيام بالعمل.

فعلى سبيل المثال: كثيرًا ما يتكرر في القرآن قوله تعالى: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ** ﴾ قبل التوجيه إلى العمل المطلوب.. هذا النداء فيه من التقدير والتشجيع ما يحفز النفس للقيام بالعمل.

وفي الخطاب الموجَّه لليهود نجد أن القرآن يناديهم بقوله تعالى: ﴿ **يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ** ﴾ أي: يا أبناء النبي إسرائيل، فيكون هذا النداء بمثابة استدراج لهم لكي يستمعوا لما سيُتلى عليهم.

---

(١) مسند الإمام أحمد (٣٧/ ٣١٩ برقم: ٢٢٦٤٢)، ابن أبي حاتم في العلل (١/ ١٧٠-١٧١)، وابن حبان (٥/ ٢٠٩ برقم: ١٨٨٨)، والحاكم في المستدرك (١/ ٢٢٩).

(٢) أخرجه الطبراني (٤/ ٨٤ برقم: ٣٧١٨).

وتأمل قول الملائكة لمريم الصديقة: ﴿يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [آل عمران: ٤٢]، فهذا لون من ألوان التقدير الخاص، ليأتي التوجيه في الآية التالية: ﴿يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [آل عمران: ٤٣].

وعندما أراد موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يدخل ببني إسرائيل الأرض المقدسة ظل يحفزهم بهذه الطريقة قبل أن يطلب منهم هذا الطلب: ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَعَلَ فِيكُمۡ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكٗا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمۡ يُؤۡتِ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾﴾ [المائدة: ٢٠، ٢١].

وانظر إلى رسول الله ﷺ وهو يقول لمعاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**يَا مُعَاذُ، وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ، أُوصِيكَ يَا مُعَاذُ لَا تَدَعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ تَقُولُ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ**»(١).

ولك أن تتخيل وقْع كلمة: «**يَا مُعَاذُ: وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ**» على نفس معاذ، وكيف سيستقبل الكلام بعدها؟!

سابعًا: التذكير بالمواقف الإيجابية السابقة

فمن الوسائل التي تثير الهمة، وتدفع للقيام بالعمل: تذكر المواقف الإيجابية التي مرت بالمرء في حياته ولها علاقة بالعمل المراد القيام به في الحاضر، فعندما يجد المرء في نفسه تكاسلًا عن قيام الليل يُذَكِّر نفسه بيوم كذا وكذا عندما قام نصف الليل وكيف

(١) أخرجه أبو داود (٢/ ١٨٠ برقم: ١٥٢٢) في الصلاة، باب الاستغفار، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٢ برقم: ٩٩٣٧).

كان ذلك ممتعًا وسهلًا على نفسه، وعندما يستشعر عدم جدوى القيام بعمل ما نتيجة ضيق الوقت وقلة الإمكانات فعليه أن يُذَكِّر نفسه بمواقف إيجابية تعرض لها من قبل وكانت الظروف أشد، ومع ذلك أكرمه الله بالتوفيق والنجاح.

تأمل قول الله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٦٢ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٦٣﴾ [الأنفال: ٦٢، ٦٣].

في هذه الآيات تم التذكير بمواقف سابقة تجلت فيها قدرة الله وتأييده ليأتي التوجيه بعد هذا التذكير: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٦٤ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ٦٥﴾ [الأنفال: ٦٤، ٦٥].

ثامنًا: المحاورة والإقناع والموازنة العقلية (تخيير النفس)

عندما يقتنع المرء بأهمية وقيمة العمل المطلوب قيامه به ومدى نفعه له، فإن ذلك من شأنه أن يدفعه لأدائه بمشاعر الرغبة والاحتياج، وكذلك عندما يقتنع بخطورة وضرر العمل الذي يود فعله فإنه سيتركه بإرادته..

من هنا تبرز أهمية الحوار والإقناع سواء كان بين المرء ونفسه، أو بينه وبين الآخرين.

ومن الضروري أن ينطلق الحوار من قاعدة مفادها أن «صلاحك لمصلحتك»،

وأنك المستفيد الأول من قيامك بالعمل الصالح، وأنك -أيضًا- الخاسر من عدم قيامك به.

فالنفس لا تحب أو ترضى بفوات مصلحة تنفعها، أو الوقوع في ضرر يؤذيها؛ لذلك نجد القرآن يستخدم هذه الطريقة في الإقناع:

﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ﴾ [الإسراء: ٧].

﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ؟!

ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ﴾ [فصلت: ٤٠].

﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ﴾ [الإسراء: ١٥].

﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ﴾ [الإسراء: ١٠٦، ١٠٧].

﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ﴾ [الأنعام: ١٠٤].

فهذه الآيات وغيرها تضع المرء في مواجهة مع نفسه، وتُشعره بالاحتياج الشخصي للعمل، وأنه الفائز إن عمله، والخاسر إن تركه: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الشورى: ٢٠].

وعندما طلبت زوجات النبي ﷺ التوسعة في النفقة نزل القرآن يحاورهن: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [الأحزاب: ٢٨، ٢٩].

وتأمل الحوار الذي دار بين الرسول ﷺ وبين الشاب الذي أتاه يطلب منه أن يأذن له بالزنى:

فعن أبي أمامة قال: إن فتى شابًّا أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! ائذن لي بالزنى. فأقبل القوم عليه فزجروه، وقالوا: مه، مه! فقال: «**ادْنُهْ**». فدنا منه قريبًا. قال: فجلس. قال: «**أَتُحِبُّهُ لِأُمِّكَ؟**»، قال: لا والله، جعلني الله فداك. قال: «**وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأُمَّهَاتِهِمْ**». قال: «**أَفَتُحِبُّهُ لِابْنَتِكَ؟**»، قال: لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداك. قال: «**وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِبَنَاتِهِمْ**». قال: «**أَتُحِبُّهُ لِأُخْتِكَ؟**»، قال: لا والله، جعلني الله فداك. قال: «**وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأَخَوَاتِهِمْ**». قال: «**أَتُحِبُّهُ لِعَمَّتِكَ؟**»، قال: لا والله، جعلني الله فداك. قال: «**وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِعَمَّاتِهِمْ**». قال «**أَتُحِبُّهُ لِخَالَتِكَ؟**»، قال: لا والله، جعلني الله فداك. قال: «**وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِخَالَاتِهِمْ**». قال: فوضع يده عليه وقال: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ، وَطَهِّرْ قَلْبَهُ، وَحَصِّنْ فَرْجَهُ**». فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء[(١)].

فالرسول ﷺ لم ينهره أو يُوَبخه عندما طلب منه هذا الطلب المحرم، بل حاوره، ووصل به إلى القناعة التامة بأن هذا لا يصلح.

وهذا عبد الله بن رواحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عندما وجد في نفسه بعض التردد في معركة مؤتة، ظل يُحاورها، ويقول لها:

أقسمت يا نفس لتنزلنه ... طائعة أو لتكرهنه

إن أجلب الناس وشدوا الرنة ... ما لي أراك تكرهين الجنة

(١) مسند الإمام أحمد (٣٦/ ٥٤٥ برقم: ٢٢٢١١)، والطبراني في الكبير (برقم: ٧٦٧٩، ٧٧٥٩)، وفي مسند الشاميين للطبراني (٢/ ١٣٩ برقم: ١٠٦٦)، (٢/ ٣٧٣ برقم: ١٥٢٣).

قد طالما قد كنت مطمئنة هل أنت إلا نطفة في شنة

يا نفس إلا تقتلي تموتي هذا حِمامُ الموت قد صليت

وما تمنيت فقد أعطيت إن تفعلي فعلهما هديت

وإن تأخرت فقد شقيت

فعلينا أن نستخدم هذه الطريقة في التحفيز، وبخاصة عندما نجد في أنفسنا تكاسلًا عن أداء الأعمال.. فعلى سبيل المثال: عندما نسمع أذان الفجر، ونجد في أنفسنا خمولًا وتكاسلًا عن القيام، علينا أن نُحاورها ونتحدث معها بمثل هذه الكلمات:

.. لا بأس من النوم والراحة.. ولكن من سيدفع الثمن؟ من المتضرر؟

.. من الذي سيفقد بركة هذا اليوم؟

.. من الذي سيبتعد عن ذمة الله في هذا اليوم؟

.. وعندما نجد في أنفسنا شُحًّا بالمال، وعدم رغبة في الإنفاق، علينا أن نُحاورها ونُبيِّن لها حجم الخسارة التي ستعود عليها من ترك الإنفاق، وحجم المكاسب المترتبة على الإنفاق.

وعندما نجد أولادنا يتكاسلون عن أداء الصلاة أو أي عمل آخر علينا أن نستخدم معهم هذه الطريقة.

تاسعًا: التحفيز من خلال إبراز قدوة

من طبيعة النفس أنها لا تُحب أن يسبقها أو يتميز عليها أحد؛ لذلك علينا أن

نستثير مشاعر الغيرة، ونوجهها التوجيه الصحيح نحو القيام بالعمل المطلوب من خلال التذكير بأناس قاموا به وبغيره على أحسن وجه.

فتقول لنفسك قبل الإنفاق: تذكري فلانًا الذي كان يُنفق كذا وكذا، ولم يترك لنفسه إلا القليل..

تذكري الصحابي عبد الله بن أم مكتوم الأعمى الذي لم يترك الصلاة في المسجد.

تذكري أبا بكر الصديق الذي أتى بماله كله لتجهيز جيش العسرة..

والقرآن مليء بالآيات التي تُحفِّز المسلمين للقيام بالعمل الصالح من خلال ذكر نماذج بشرية قامت به خير قيام، كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ﴾ [النحل: ١٢٠، ١٢١].

﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

والقدوة الحاضرة أقوى في التأثير في النفس من غيرها، فكما قيل: «عمل رجل في ألف رجل، أفضل من قول ألف رجل لرجل».

وأيضًا: «إذا أردت أن تكون إمامي، فكن أمامي»، و «القدوة إمامة بلا إمارة».

عاشرًا: القصة

(للقصة دور بارز في تحريك المشاعر، وإبراز العواطف، وتثبيت الأفكار في الأذهان، فهي لا تحتاج إلى جهد كبير لنقل أفكارها إلى النفس.. لأن من شأن النفس الإنسانية إذا مرَّت بحدث من الأحداث أن تتفاعل معه.

كما لا يخفى ما للقصة من دور في التأثير على نفوس المخاطبين بها؛ إذ لا تنتهي القصة إلا ويكون المستمع أو القارئ أو المشاهد قد عاش في تجربة نفسية، وقطع رحلة

طويلة بحسب طول القصة، تترك في النفس آثارًا وجدانية وروحية)[١]، وأصبح مهيئًا أكثر وأكثر للقيام بما تدل عليه القصة.

فعلى سبيل المثال

عندما نقرأ حديث: «**إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ**»، فهو بلا شك يُذكرنا بأهمية الإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ، لكننا نجد أنفسنا أكثر تأثرًا ورغبة في الإخلاص عندما نقرأ القصة التي ذكرها الرسول ﷺ عن الثلاثة الذين كانوا في سفر فدخلوا غارًا يستريحون فيه، فانطبقت عليهم صخرة، فدعوا الله بإخلاص، وتذكروا أعمالًا يظنون أنهم كانوا فيها من المخلصين حتى تزحزحت الصخرة فخرجوا من الغار سالمين[٢].

.. لذلك من المناسب تذكير أنفسنا بقصة مؤثرة لها علاقة بالعمل الصالح الذي نود القيام به، وبخاصة مع تلك الأعمال التي أَلِفْنا القيام بها فأصبحت تؤدى بلا روح.

حادي عشر: ضرب المثل

يقول بديع الزمان النورسي في فائدة ضرب الأمثال: **إنها تُظهر الحقائق البعيدة جدًّا أنها قريبة جدًّا، وتوصل إلى أسمى الحقائق وأعلاها بسهولة ويسر**[٣].

ومن فوائد المثل (إبراز صورة معنوية في صورة حسية فيتقبلها العقل؛ لأن المعاني المعقولة لا تستقر في الأذهان إلا إذا صِيغت في صورة حسية قريبة الفهم.. فيكون وقعها التأثيري أقوى وأومض في النفوس والعقول.

والأمثال تخاطب عقول الناس بما يعرفونه، وتجعل ما هو غائب ماثلًا أمامهم

(١) التعبير القرآني للجيوسي (٤٨١ ، ٤٨٢) باختصار.
(٢) الحديث في صحيح البخاري (٣/ ٧٩ برقم: ٢٢١٥).
(٣) المكتوبات (ص: ٤٨٧).

فتُقرب إليهم البعيد)[١].

ولضرب المثل وظيفة مهمة في تحفيز الإنسان للقيام بالعمل من خلال تقريب المعنى والتأثير في المشاعر، يقول الإمام محمد عبده: **واختير للمثل لفظ الضرب لأنه يأتي عند إرادة التأثير، كأن ضارب المثل يقرع به أُذن السامع قرعًا ينفذ أثره إلى قلبه، وينتهي إلى أعماق نفسه**[٢].

لذلك قيل بأن: المعلم الناجح هو الذي يُكثر من ضرب الأمثال.

فعلينا استخدام هذه الوسيلة للتأثير على المشاعر قبل القيام بالعمل، وبخاصة عند مخاطبة الآخرين.

والقرآن والسنة بهما الكثير من الأمثال التي تُقرب المعاني البعيدة في صور قريبة محسوسة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ **ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾** ﴾ [الزمر: ٢٩].

وقوله: ﴿ **لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾** ﴾ [الحشر: ٢١].

ومما جاء في السنة قول رسول الله ﷺ: «**مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ، كَمَثَلِ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى**»[٣].

---

(١) الإعجاز التأثيري في القرآن (ص: ١٨٨ - ١٩٠) د. مصطفى السعيد، باختصار - مؤسسة أجيالنا.

(٢) التعبير القرآني (ص: ٤٥٤) عن تفسير المنار لمحمد رشيد رضا (١/ ٢٣٦).

(٣) البخاري في الأدب، باب رحمة الناس والبهائم (برقم: ٦٠١١)، ومسلم في البر والصلة، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم (برقم: ٢٥٨٦).

وقوله ﷺ: «**إِنَّمَا مَثَلُ الْـجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالْـجَلِيسِ السُّوءِ كَحَامِلِ الْـمِسْكِ وَنَافِخِ الْكِيرِ، فَحَامِلُ الْـمِسْكِ إِمَّا أَنْ يَحْذِيَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَـيِّـبَـةً، وَنَافِخُ الْكِيرِ إِمَّا أَنْ يَحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً**»[١].

ثاني عشر: الصورة المؤثرة

المشاهد التي تراها العين يصل مدلولها إلى العقل والقلب بصورة سريعة، وتكون أشد تأثيرًا على المشاعر مما يُنقل عن طريق السمع..

انظر إلى موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وقد تأثر وغضب عندما أعلمه الله عَزَّوَجَلَّ بما فعله قومه من عبادة العجل، لكنه لم يلقِ الألواح التي في يديه، ولكن عندما ذهب لقومه ورآهم بعينيه اشـتد غضبه واشـتد، وألقى الألواح، وفي هذا المعنى يقول رسول الله ﷺ: «**لَيْسَ الْـخَبَرُ كَالْـمُعَـايَنَةِ، إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ أَخْبَرَ مُوسَى بِمَا صَنَعَ قَوْمُهُ فِي الْعِجْلِ، فَلَمْ يُلْقِ الْأَلْوَاحَ فَلَمَّا عَايَنَ مَا صَنَعُوا أَلْقَى الْأَلْوَاحَ فَانْكَسَرَتْ**»[٢].

لذلك من الوسائل العظيمة للتحفيز: استخدام الصورة الحية، والمشاهدة المؤثرة التي تعلق في الذهن، وتستثير المشاعر في اتجاه ما ترمي إليه الصورة..

عن جابر بن عبدالله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رسـول الله ﷺ مرَّ بالسـوق داخلًا من بعض العالية[٣] والناس كنفتيه -أي: عن جانبيه- فمر بجدي أسك[٤] ميت، فتناوله، فأخذ

(١) البخاري (برقم: ٢١٠١) في البيوع، باب في العطار وبيع المسك، ومسلم (٤/ ٢٠٢٦ برقم: ٢٦٢٨) في البر باب استحباب مجالسة الصالحين.

(٢) مسند الإمام أحمد (٤/ ٢٦٠ برقم: ٢٤٤٧)، ابن حبان (برقم: ٦٢١٣)، البزار (١١/ ٢٧٢ برقم: ٥٠٦٢)، والحاكم (٢/ ٣٢١).

(٣) العالية: أَماكنُ بأَعلى أَراضي المدينَةِ.

(٤) أسك: أي صغير الأذنين.

بأذنه، ثم قال: «**أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنَّ هَذَا لَهُ بِدِرْهَمٍ؟**» فقالوا: ما نحب أنه لنا بشيء، وما نصنع به؟ ثم قال: «**أَتُحِبُّونَ أَنَّهُ لَكُمْ؟**» قالوا: والله لو كان حيًّا كان عيبًا فيه لأنه أسك، فكيف وهو ميت! فقال: «**فَوَاللهِ لَلدُّنْيَا أَهَوَنُ عَلَى اللهِ مِنْ هَذَا عَلَيْكُمْ**»(١).

تخيل معي -أخي القارئ- مدى تأثير هذا المشهد على الحاضرين، وكيف ستكون علاقتهم بالدنيا بعد ذلك؟!

ولقد أصبح من السهل استخدام هذه الوسيلة في عصرنا هذا من خلال انتقاء المشاهد المرئية وعرضها على النفس وعلى الآخرين المراد توجيههم.

وإليك -أخي- مثالًا تطبيقيًّا لاستخدام هذه الوسيلة في المحيط الدعوي:

كان على أحد الدعاة أن يقوم بإلقاء محاضرة عن الأخوة والحب في الله وأهميتهما الشديدة بالنسبة لأصحاب الدعوات، وقبل حلول موعد المحاضرة بدأ هذا الداعية في التفكير في محتوى المحاضرة، هل سيفعل مثلما فعل في المرات السابقة فيقوم بجمع الآيات والأحاديث الدالة على فضل الأخوة في الله وحقوقها وواجباتها مع مزجها ببعض القصص والنماذج المأثورة عن تاريخ السلف وماضي رجال الدعوة؟!

في هذه المرة لم يجد في نفسه أي رغبة في تكرار ما فعله سابقًا، وبخاصة أن المحاضرة ستلقى على أناس يعرفون هذا الكلام بل يحفظونه جيدًا، ورغم هذه المعرفة فإن العلاقات الأخوية بينهم ضعيفة يكسوها الجفاء والفتور.

ظل الداعية يفكر ويفكر، ويستعين بالله حتى هُدي إلى فكرة جديدة، فأسرَّها في نفسه ولم يُبدها لأحد، وقام بتجهيز ما يتطلبه لتنفيذها، وانطلق إلى المحاضرة.

جلس هذا الداعية في المكان المخصص له، وبدأ حديثه بالثناء على الله، والصلاة

(١) أخرجه مسلم (٤/ ٢٢٧٢ برقم: ٢٩٥٧) كتاب الزهد والرقائق.

على رسـول الله، ثم أخرج من جيبه (مسبحة) طويلة، وسأل الحاضرين عن اسمها، فأجابوه، وظل يحركها يمينًا ويسـارًا أمام أعينهم طالبًا منهـم تركيز أنظارهم إليها جيدًا.

وظل صامتًا للحظات، ثم أخرج من جيبه (مقصًّا)، وعند منتصف المسبحة قام بقص الخيط الذي يجمع حباتهـا، فانفرطت الحبات وتناثرت في أرجاء المكان وتحت أقدام الحاضرين، والجميع في ذهول من ذلك المنظر المثير.

في هذه اللحظات قطع الداعية صمته قائلًا لجلسائه: إن صمام الأمان لهذه الدعوة -بعـد قوة الصلة بالله-: هو رابطة الأخوة، فالأخـوة هي الحبل الذي ينتظم قلوب أبناء الدعوة، ويربط بعضها ببعض، فإذا ما وهن ذلك الحبل أو انقطع تفرقت القلوب وابتعدت، فيكون لذلك أسوأ الأثر على الدعوة.

سـاد الصمت المكان، واستشـعر الحاضرون الخطر، وفهموا الرسالة جيدًا، ثم انكبوا يجمعون حبات المسبحة ليعيدوا وصلها من جديد بخيط متين، وانطلقوا يعانق بعضهم بعضًا ويتصافحون في حب وود، العيون دامعة، والقلوب خافقة، والصدور سليمة صافية.

ثالث عشر: الاستفادة من الأحداث غير المألوفة

يزداد إرهاف الحس، وتأجج المشـاعر، ويقظة العقل عندمـا تحدث أمام المرء أحداث غير مألوفة، ويصبح على درجة عالية من الاستعداد للتلقي..

لذلك نجد القرآن الكريم بعد الأحداث الكبيرة التي مرت بالصحابة -رضوان الله عليهم- ينزل ليعلمهم ويوجههم ويربيهم حتى يسـتفيدوا من هذه الأحداث في مزيد من الاستقامة لله عَزَّوَجَلَّ، وبخاصة أن النفوس تظل مدة من الزمن متعلقة بتلك

الأحداث، وتكون فيها على استعداد لتلقي التوجيهات المتعلقة بها، ومثال ذلك: تعقيب القرآن الطويل على حادثة الإفك وكيف يستفيدون منها بعد ذلك: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾﴾ [النور: ١٢]، ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾﴾ [النور: ١٧]، وتعقيبه على ما فعله حاطب بن أبي بلتعة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في محاولته -غير الناجحة- لإخبار أهل مكة بعزم الرسول ﷺ على السير إليهم ودخول مكة فاتحًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾﴾ [الممتحنة: ١].

وكذلك التعقيب القرآني بعد غزوة بدر، وأحد، وبني النضير، والأحزاب، وما فيها من دروس وعبر وتوجيهات نحو مزيد من الاستقامة.

ولقد كان رسول الله ﷺ يفعل ذلك مع الصحابة -رضوان الله عليهم- ويربط دومًا بين الحدث غير المألوف والمعاني الإيمانية الدالة عليه.

ففي يوم من الأيام وبينما كان الرسول ﷺ بين صحابته إذ جاءه سَبْي، وفي هذا السبي امرأة تسعى ملهوفة مضطربة قد ضاع منها رضيعها، واستمرت على هذا الحال الشديد حتى وجدته، فأخذته وضمته إلى صدرها بشدة ثم أرضعته.

هذا المنظر شاهده الصحابة فأثر فيهم غاية التأثير، فلم يتركه ﷺ يذهب سُدى، بل وجهه توجيهًا إيمانيًّا، فقال لهم: «**أَتَرَوْنَ هَذِهِ الْمَرْأَةَ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ؟!**» قالوا: لا والله. قال: «**للهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ الْمَرْأَةِ بِوَلَدِهَا**»(١).

(١) أخرجه البخاري (برقم: ٥٩٩٩) في الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته، ومسلم (٤/ ٢١٠٩ برقم: ٢٧٥٤) في الفضائل باب سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه.

.. إذن علينا أن نستفيد من الأحداث غير المألوفة التي تمر بنا في توجيه أنفسنا والآخرين نحو مزيد من الاستقامة لله عَزَّوَجَلَّ.

هل هناك مزيد من الوسائل؟

ليست الوسائل السابقة هي فقط التي تستثير المشاعر وتحفزها للقيام بالعمل الصالح، فهناك وسائل أخرى كالصوت المؤثر، والإشارة باليد، والقَسَم، والمسابقات التنافسية، ولكننا -بفضل الله- اخترنا في هذه الصفحات أكثرها تأثيرًا وأيسرها استخدامًا.

كلمة أخيرة عن وسائل التحفيز

كما ذكرنا من قبل بأن علينا الاجتهاد في استثارة مشاعرنا وتحفيز أنفسنا قبل القيام بالعمل حتى يزداد نفعه في زيادة الإيمان وتحسين السلوك، ولقد تم ذِكر العديد من وسائل التحفيز..

نعم، هناك بعض الصعوبة في استخدام كل هذه الوسائل للمرء مع نفسه، فبعضها يكون أكثر نفعًا عند توجيه الآخرين وتحفيزهم للقيام بعمل ما، ومع ذلك فمن الممكن استخدام الكثير منها مع أنفسنا.

فقبل القيام بالعمل أسأل نفسي: لماذا أقوم بهذا العمل؟

وأبدأ بالجواب من خلال:

- تذكير النفس بأن هذا العمل قربة إلى الله وابتغاء مرضاته.
- وتذكير النفس بفضل هذا العمل.
- وأذكرها كذلك بأهمية القيام به.

- وأخوفها من عاقبة تركه.
- وأحاورها وأعرض عليها منافع القيام به، وأضرار تركه التي قد تصيبني.
- وأذكرها بالمواقف الإيجابية السابقة التي قمت فيها -بفضل الله- بأداء هذا العمل وغيره رغم الصعوبات التي واجهتني.
- وأشجع نفسي بمثل: هيا قم إلى العمل لعل الله عَزَّوَجَلَّ يختارك لنفع الأمة، وتكون من السابقين في الدنيا والمقربين في الآخرة..
- وأحاول تذكيرها ببعض القدوات التي تعرفها والتي تقوم بهذا العمل وغيره.
- وأقرأ قصة لها ارتباط بالعمل.

أما في حالة توجيه الآخرين فعلينا إضافة بقية الوسائل الأخرى.

الوصول للهدف هو الغاية

الهدف الذي نريده من طرح هذا الموضوع هو الاجتهاد في استثارة مشاعر الرغبة للقيام بالعمل، فإن تحققت هذه الاستثارة بوسيلة أو اثنتين فبها ونعمت، وإن لم تحدث فعلينا استخدام المزيد من الوسائل حتى نصل للهدف..

وكما قيل سابقًا بأنه كلما كان العمل المراد القيام به كبيرًا وشاقًّا على النفس، كان من المناسب استخدام العديد من الوسائل.

أهمية التدريب على تحفيز المشاعر قبل القيام بالعمل

لكي نكتسب هذه المهارة بإذن الله، ولكي يتم تحفيز واستثارة المشاعر قبل القيام بالعمل بصورة تلقائية فإن الأمر يحتاج إلى تدريب طويل، بأن يتخيل المرء أنه سيبدأ

عملًا ما، فكيف يُحفِّز نفسه للقيام به؟! وحبذا لو تم القيام بجزء من هذا التدريب أمام الآخرين -كالزوجة أو الأصدقاء- حتى يقوموا بتقييم طريقتنا في التحفيز.

ومن أمثلة الأعمال التي يمكن للفرد التدريب عليها:

التبكير للصلاة - قراءة القرآن بتفكر وترتيل - صلاة الفجر - قيام الليل - الإنفاق - الدعوة إلى الله - صلة الأرحام - العفو والصفح - الإصلاح بين متخاصمين - مساعدة محتاج.

وإليك -أخي القارئ- مثالًا عمليًّا لتحفيز المشاعر لأحد هذه الأعمال وهو قراءة القرآن بتفكر وتأثر، فقبل شروعي في القراءة عليَّ أن أسأل نفسي: لماذا تريد قراءة القرآن؟

وأجيب عليها بأن القرآن كلام الله، وأنه من أعظم السبل لنيل مرضاته، وأن هذا القرآن فيه شفاء لأمراض قلبي، وهو من أهم أسباب زيادة الإيمان، والقرب من الله عَزَّوَجَلَّ، وهو أيضًا له مثوبة عظيمة.

وأن هذا القرآن هو حبل الله الممدود من السماء إلى الأرض، مَن تمسَّك به نجا -بإذن الله- من الفتن، وعاش سعيدًا في الدارين.

وأخوِّفها من هجر القرآن، وأن من أهم صور هجره: ترك التفكر فيه وتفهّم آياته.

وأذكرِّها بأوقات سابقة ترنمت بالقرآن واستخرجت منه معاني عظيمة كان لها بالغ الأثر في التغيير الإيجابي لسلوكي.

وأقول لنفسي مشجعًا: إن جيل التمكين جيلٌ قرآنيٌّ، فهيا لنكون من أبنائه.

وأعمل على تذكيرها ببعض أحوال الصحابة مع القرآن، وكيف كانت تلاوتهم

وتجردهم للقرآن.

وأذكر نفسي بأنني المستفيد من قراءة القرآن، وأنا الخاسر من عدم قراءته... وهكذا.

تدريبات عملية من القرآن والسنة

وبالإضافة إلى هذه التدريبات علينا كذلك أن نتدرب على استخراج وسائل التحفيز من القرآن والسنة حتى نُحسن ممارستها في حياتنا العملية.. ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿١٠﴾ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ﴾ [الصف: ١٠ - ١٤].

فالتوجيه الذي تحمله الآيات: الإيمان بالله والجهاد في سبيله بالمال والنفس، ووسائل التحفيز التي استُخدمت في تلك الآيات لاستثارة المشاعر ودفعها للقيام بهذا التوجيه كثيرة، نذكر منها:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾: تشجيع واستدراج لفتح منافذ الاستماع.

﴿ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ ﴾: سؤال للفت الانتباه والتركيز فيما يُقال.

﴿ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ ﴾: ضرب المثل بالتجارة وتقريب معنى الربح من خلالها.

﴿ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴾: ترغيب وترهيب، ترغيب في النجاة بالعمل، وترهيب من العذاب بتركه.

﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾: موازنة عقلية، وإشعارك بأنك المستفيد من ذلك.

﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ﴾: استثارة مشاعر الطمع في الأجر (فضل العمل).

﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾: فضل العمل.

﴿كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾: قصة.

﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ﴾: قدوة.

﴿فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ﴾: تخيير: مع أي الفريقين تُريد أن تكون؟

﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾: فضل العمل وأهميته.

ومن السنة: قول رسول الله ﷺ: «**كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ لِلرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ**»(١).

فقبل التوجيه بالذكر كان التحفيز من خلال التذكير بالله عَزَّوَجَلَّ، وأنه يُحب هذا الذكر، والتذكير بالثواب العظيم المترتب عليه، وإشعار المستمع بأنه يتم بأقل مجهود، فكيف يتركه؟!

وإليك -أخي القارئ- أمثلة من القرآن والسنة، عليك باستخراج ما تحمله من توجيه، ووسائل التحفيز التي استُخدمت فيها:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي

(١) البخاري (برقم: ٦٤٠٦) في الدعوات فضل التسبيح، (برقم: ٦٦٨٢) في الأيمان والنذور، باب إذا قال: والله لا أتكلم اليوم، مسلم (برقم: ٢٦٩٤) في الذكر والدعاء، باب فضل التهليل والتسبيح.

ٱلْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ [التوبة: ٣٨ - ٤١].

وقوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ [الأحزاب: ٢٨ - ٣٤].

وقوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ

رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾ ﴾ [البقرة: ٢٦١- ٢٧١].

وقوله تعالى:

﴿ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا

يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾

[الحديد: ٧ - ١٢].

ومن السنة قول رسول الله ﷺ: «**أَوَلَيْسَ قَدْ جَعَلَ اللهُ لَكُمْ مَا تَصَدَّقُونَ بِهِ، إِنَّ بِكُلِّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةً، وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ**»، قالوا: يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟! قال: «**أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وِزْرٌ؟ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ**»(١).

وقول رسول الله ﷺ: «**مَثَلُ الَّذِي يُعلِّمُ النَّاسَ الْخَيْرَ وَيَنْسَى نَفْسَهُ، مَثَلُ الْفَتِيلَةِ، تُضِيءُ لِلنَّاسِ وَتَحْرِقُ نَفْسَهَا**»(٢).

• • •

(١) أخرجه مسلم (٢/ ٦٩٧ برقم: ١٠٠٦) في الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف.

(٢) راجع مجمع الزوائد ومنبع الفوائد طبعة دار المنهاج، تحقيق: حسين سليم أسد (٢/ ٣١٢ برقم: ٨٨٠).

الفصل السابع

الهزة الإيمانية
وبداية الارتقاء الإيماني

هدف هذه الصفحات هــو التعرف على طريق إحداث الشرارة الأولى -بإذن الله- لانطلاق رحلة الإيمان، وسير القلب إلى الله، والاجتهاد في تحقيق ذلك من خلال استثارة وإلهاب مشاعر المحبة والشوق إلى الله.

الهزَّة الإيمانية وبداية الارتقاء الإيماني

الحلقة المفقودة

بعد الحديث عن أهمية الإيمان وثماره، ومراتب الارتقاء الإيماني، وجناحي التربية الإيمانية، يبقى السؤال: هل ما قيل يكفي لبدء الرحلة الإيمانية والسير إلى الله؟

بلا شك أن حُسن التعامل مع القرآن والتفكر فيه، ومداومة قراءته بتفكر وترتيل وصوت حزين، مع العمل – قدر المستطاع – على الاستفادة من القرآن في التفكر في الكون وأحداث الحياة وربطها بالله عَزَّوَجَلَّ.. بلا شك أن هذه الأعمال القلبية ستقوم -بإذن الله- بزيادة عظيمة وملحوظة للإيمان، فإن صَاحَبها أعمال صالحة فإن الأثر سيكون أشد وأشد، شريطة أن يسبق تلك الأعمال تحفيز للمشاعر كما أسلفنا.

ولكن تبقى حلقة مفقودة في هذه المنظومة، ألا وهي الشرارة الأولى والشحنة القوية التي تهز القلب، وتوقظ الإيمان لتأتي بعد ذلك تلك الوسائل فتعمل عملها.

والشحنة القوية التي نحتاجها في البداية لكي توقظنا من سُباتنا وتجعلنا -بإذن الله- نبدأ رحلة الارتقاء الإيماني والسير إلى الله لها طريقتان: إما شُحنة تخويف وترهيب، وإما شُحنة تشويق وترغيب، كما قال بعض السلف: «**لا يُخرِجُ الشهوة من القلب إلا خوف مزعج أو شوق مقلق**»[1].

(١) الحكم العطائية.

هيا بنا نزدد حُبًّا لله وشوقًا إليه

بفضل الله تم الحديث في موضع سابق عن الخوف من الله وكيف نستخدمه ونجلب به الشرارة الأولى والشحنة القوية الدافعة للعمل[١]، ومع ذلك فهناك عدة أسباب تدفعنا لتفضيل طريق التشويق والترغيب في الله عَزَّوَجَلَّ.

ومن هذه الأسباب: أن الحديث عن الخوف من الله وأسباب استجلابه من تذَكُّر الموت، وعذاب القبر والقيامة والنار، قد احتل مساحات كبيرة في كتابات وأحاديث العلماء والدعاة وغيرهم؛ ومن ثَمَّ فإن تأثيره -بسبب هذا التكرار- قد لا يأتي بالأثر المطلوب، كالطبيب الذي يعتاد رؤية الإصابات والدماء والكسور فيفقد -بمرور الوقت- تأثره بها.

وعكس ذلك بخصوص طريق المحبة والتشويق إلى الله عَزَّوَجَلَّ، فالحديث عنها قليل، ولا يتوازن مع الحديث عن الخوف من الله عَزَّوَجَلَّ.

ومن هذه الأسباب: أن الشحنة الإيمانية والشرارة الأولى الناتجة عن طريق التشويق والترغيب لها صدى طيب في النفس، فمن شأنها أن تجعل المرء يستيقظ من سُباته وهو باسم.. يهرع إلى الله وهو فرِح.. يُسارع في القيام بالعبادات المختلفة، وهو في حالة من الرضا عن الله والشوق إليه والحب له....

ومنها كذلك: أن الغافل يحتاج إلى مَن يُوقظه بحنان ورفق حتى يستوعب تلك اليقظة، أما المُستيقظ فهو يحتاج إلى بعض التخويف حتى لا يُعجب بنفسه، ويغتر بعلمه، فالترغيب يُفضل البدء به مع أمثالي من الغافلين، أما الترهيب فيكون مع العابدين والصالحين.

(١) وذلك في كتاب «الإيمان أولًا فكيف نبدأ به؟».

وليس معنى هذا هو ترك التخويف والترهيب، بل المقصد هو التوازن بينهما والبدء منهما بما يُناسب حالة القلب.

فإن اتفقت معي -أخي القارئ- على البدء بشحنة التشويق والترغيب في الله عَزَّوَجَلَّ، فلتكن إذن شُحنة قوية حتى تظهر الثمرة وتؤدي إلى اليقظة بإذن الله.

مع ملاحظة ضرورة الاستمرار -بعد حدوث اليقظة- في القيام بأعمال القلوب (التفكر في القرآن والاجتهاد في التأثر به وتفاعل المشاعر معه، والتفكر في الكون وأحداث الحياة والاعتبار بها وربطها بالله عَزَّوَجَلَّ)، وكذلك الأعمال الصالحة المؤثرة التي يسبقها تذكير وتحفيز حتى يستمر الارتقاء الإيماني.

أما إذا حدثت اليقظة، ورضي المرء بها واطمأن لها ولم يُتبعها بأعمال الإيمان فسيعود -في الغالب- كما كان قبل اليقظة.

ومما يُساعد العبد على الاستمرار في الارتقاء الإيماني -بإذن الله- هو انتقاله بهذه المعاني -بعد استيقاظه- إلى محيط الدعوة، فعمله في إصلاح الإيمان وإيقاظ القلوب -بمثل ما حدث له- له وظيفة كبيرة في تثبيت المعاني في قلبه، وتجديدها؛ ومن ثَمَّ دفعه أكثر وأكثر للتزود والارتقاء[1].

(١) من المناسب أن يتم انتقال المرء بهذه المعاني إلى محيط الدعوة والبلاغ بعد قطعه شوطًا معتبرًا في تزكية نفسه، وممارسة أعمالها حتى لا يشعر أن عنده شيئًا ليس عند غيره، فيُعجب بنفسه، فيكون ذلك سببًا في بُعده عن الله، ولعلك تجد أخي القارئ في كتاب (حطِّم صنمك وكن عند نفسك صغيرًا)، وكتاب (تزكية النفس التربية المنسية) ما يُعينك ويعينني -بإذن الله- على تخطي هذه العقبة التي تقف أمامنا جميعًا كحائل يحول بيننا وبين التقدم نحو الله، والكتاب الأول موجود بفضل الله على موقع الإيمان أولًا.

مفتاح الدخول لباب المحبة

كما قيل سابقًا: إن المعاملة على قدر المعرفة، فإن معاملة الله بحب واشتياق ستكون -بإذن الله- نتيجة طبيعية لمعرفة وُدِّه وحُبِّه لنا، ونعمه الكثيرة التي يغمرنا بها..

وأدعوك -أخي القارئ- إلى التعرف على الله الودود -بصورة إجمالية- من خلال قراءة الصفحات القادمة، على أن تجعل عقلك بين مشاعرك، ثم سل نفسك بعدها: هل ازددت رغبة في الله وحُبًّا له؟

• • •

.. هذه الأسطر بعنوان:

أقبل ولا تخف، فربك ينتظرك

كان في بلد من البلدان في زمن بني إسرائيل رجل يُدعى « الكفل »، وكان يفعل مـــا يُريد، ولا يُبالي بحلال أو حرام، وكان أهل بلدتـــه يعرفون عنه هذا، وإذا ما جاء اسمه على لسان بعضهم لا تجد أحدًا منهم يذكره بخير أبدًا.

وفي ليلة من الليالي، وبعد أن دخل كل واحد بيته، وأغلق بابه، إذا بالكفل يسمع طرقًـــا على بابه، فقام ليفتـــح فإذا به يُفاجأ بامرأة يقطر منهـــا الحياء، ويذوب وجهها خجلًا، فســـألها عن سر مجيئها، فأخبرته أنها تمُر بضائقة مالية شـــديدة، ولم تجد أمامها أحدًا ســـواه لتقترض منه.. وجد الكفل الفرصة سانحة أمامه.. امرأة جاءت إلى داره بمحض إرادتها، وفي سكون الليل، ولا يراها أحد من الناس، فتلطف معها وأدخلها داره، وأخبرها بأنه لا مانع لديه من إقراضها ولكن لديه شرط.. أن تُمكِّنه من نفسها.

ألحت المرأة عليه ألَّا يفعل، فلم يلتفت إلى إلحاحها وتوسلاتها، فوافقت مرغمة وهي تتقطع مـــن داخلها، وعندما اقـــترب منها وجد فرائصها ترتعد، فســـألها عن الســـبب، فأخبرته بأنها لم تفعـــل هذا الفعل من قبل، وأنها تخاف الله عَزَّوَجَلَّ وتخشـــى عقوبتـــه وغضبه.. هنا توقف الكفل، وابتعد عنها، فقد وقعت تلك الكلمات موقعها في نفســـه، ولبث هُنيهة، ثم قال لها: أنت تقولين هذا القول مع أنك مضطرة لذلك، فماذا عليَّ إذن أن أقول؟! ألســـت أنا أحق بالخوف من الله منك؟! ثم تركها تنصرف بعد أن أعطاها ما طلبته من المال.

تركها لتذهب وهو يعيش في لحظات من الذهول.. الألم يعتصره، والندم على ما فعله في حياته يُسيطر عليه، لقد كانت كلمات المرأة عن الله كالزلزال الذي هزَّ كيانه، واستخرج من ذاكرته شريط أحداث ماضيه الأسود، وما فيه من أفعال، نسي فيها الله، ولم يَخَف مقامه سبحانه، وكلما تذكر موقفًا من مواقفه المخزية ازداد ندمه، واشتد ألمه، وعلا بكاؤه.

في هذه الأثناء، وبينما هو في هذه الحالة، حدث أمر لم يكن في الحسبان.. لقد زار الكفل ضيف آخر.. لم يكن ذاك الضيف من بني البشر، لقد زاره ملك الموت ليقبض روحه، وهو في أشد لحظات الندم والتوبة.

.. جاءه ملك الموت ومعه ملائكة الرحمة يزُفُّون إليه بشرى مغفرة الله له ورضاه عنه.

لقد قبِل الله ندمه وعفا عنه، وفوق هذا الجُود لم يتركه ليعيش بعد ذلك، فقد يعود إلى سابق عهده من الظلم والطغيان، فقبض روحه في هذا الوقت لتكون النهاية السعيدة.

نعم -أخي- حدث هذا، فربك رؤوف رحيم، يُريد أن يعفو عنَّا جميعًا: ﴿**وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ**﴾ [النساء: ٢٧].. يُريد أن يُدخل الجميع الجنة: ﴿**وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ وَٱلۡمَغۡفِرَةِ بِإِذۡنِهِۦۖ**﴾ [البقرة: ٢٢١].

> **.. لا تتعجب أخي مما حدث مع الكفل، فالله عَزَّوَجَلَّ ينتظر من جميع عباده أية التفاتة صادقة إليه؛ ليُقبل عليهم ويعفو عنهم ويُدخلهم الجنة.**

ولكن، هل انتهت قصة الكفل عند ذلك؟ لا، لقد حدث أمر عجيب، لقد استيقظ الناس في الصباح، وخرجوا من بيوتهم كعادتهم يلتمسون معايشهم

وأرزاقهم، فمرَّ بعضهم بجوار بيت الكفل، فلفت نظرهم كلامٌ مكتوب بخط واضح على بابه، فاقتربوا منه ليقرؤوه، فعقدت الدهشة ألسنتهم، وفغروا أفواههم، ووقفوا مشدوهين لا يكادون يُصدقون ما يرونه..

لقد وجدوا عبارة تقول: «**إِنَّ اللهَ قَدْ غَفَرَ لِلْكِفْلِ**».

تجمَّع الناس وقرؤوا العبارة وهم غير مُصدقين.. طرقوا الباب فلم يفتح لهم أحد، ففتحوه عُنوَة ليجدوا الكفل قد مات، فازداد عجبهم وحيرتهم، فهرعوا إلى نبيِّهم ليسألوه عن أمر الكفل، فأوحى الله إليه بما حدث، فاشتد بكاء الناس، وازداد حُبُّهم لله، وتعلقهم برحمته، وسارعوا إلى التوبة إليه.

كان من الممكن أن تمر هذه الحادثة ولا يعلم بها أحد، فالناس يموتون ولا يدري أحد بماذا خُتِم لهم، ولكن الرب الودود الذي يُريد أن يُطمئن الجميع ويدفعهم للفرار إليه أنزل هذه الآية لينتفع بها الناس ويتفكروا في مغزاها، وما تدل عليه من سعة رحمة الله، ومدى حُبِّه لعباده، وأنه سبحانه ينتظر منهم أية بادرة صادقة للتوبة، فيُقبل عليهم ويقبلهم ويمحو كل سيئ فعلوه.

نعم -أخي- هذا هو ربنا: ﴿**وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ**﴾ [النساء:٢٧].

ألم تر إلى ربك كيف يُحبُّك؟

إننا جميعًا نتمنى محبة الله عَزَّوَجَلَّ لنا، ولو تفكَّرنا وتأملنا في طريقة معاملة الله لنا لتأكدنا أنه سبحانه يُريد لنا وللناس جميعًا الخير، وأن محبته لنا سبقت وجودنا، وأن مُراده دخول الجميع جنته: ﴿**وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ**﴾ [يونس: ٢٥].

وكلما تفكَّرنا في جوانب حُب الله لعباده ازددنا حُبًّا له، وحياءً منه سبحانه،

وأصبحت أُمنيتنا هي: كيف نُحب الله كما يُحبنا، وكيف نتودد إليه كما يتودد إلينا؟

خلقنا في أحسن تقويم

الله عَزَّوَجَلَّ هو الذي خلقنا من العدم، ولم نكن قبل ذلك شيئًا مذكورًا، وقد أوجَدنا سبحانه في أحسن صورة: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [غافر: ٦٤].

كرَّمنا على جميع خلقه، ونفخ فينا من روحه، وأسجد لأبينا ملائكته، وهيأ الكون كله لخدمتنا بلا مقابل، فالأرض تُخرج لنا الطعام، والسماء تُنزل الماء، والشمس تمدنا بالدفء والضياء، والقمر يُعرفنا الأيام والشهور.. الدواب تحملنا، والنحل يمدنا بالعسل، والأنعام تُخرج لنا اللبن، والأزهار تُشعرنا بالبهجة: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۗ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾ [النحل: ١٠ - ١٣].

إلهٌ قيُّوم

الله عَزَّوَجَلَّ يقوم على شؤون عباده جميعًا، يرعانا بالليل والنهار.. يقبض أرواحنا فننام ونرتاح، ثم يُعيدها لنا فنستيقظ ونستأنف حركتنا في الحياة.. هكذا كل يوم: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ [الروم: ٢٣].

يمدنا بمقوِّمات الحياة مع كل طرفة عين.. يمد أجهزة الجسم المختلفة بالقدرة على القيام بوظائفها.. يمد اللسان بالقدرة على الكلام، والعين بالقدرة على الرؤية،

والأنف بالقدرة على الشـــم، والأذن بالقدرة على السمع، واليد بالقدرة على الحركة والبطش، والرجل على المشي وحمل الجســـم، والقلـــب بالقدرة على ضخ الدم حوالي ســـبعين مرة في الدقيقة الواحدة.. يمد كل خلية في الجسم -كل طرفة عين- بأسباب حياتها: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ [يونس: ٢٢].

فنحـــن جميعًا من الله خَلقًا وإيجادًا، وبالله رعاية وإمدادًا، فلا حول ولا قوة إلا به سبحانه: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ [النحل: ٥٣].

حليم ستير

ربنا حليم ســـتير، يرانا نعصيه مرات ومرات فلا يفضحنا، ولا يهتك سترنا، بل يسترنا ويحلم علينا، ويُمهلنا علَّنا نتوب: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ [فاطر: ٤٥].

رب صبـــور.. يصبر على أذى عبـــاده وكفرهم وجحودهم مـــع قدرته المطلقة عليهم.. يقول رســـول الله ﷺ: «**لَا أَحَدَ أَصْبَرُ عَلَى أَذًى سَمِعَهُ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، إِنَّهُ لَيُشْرَكُ بِهِ، وَيُجْعَلُ لَهُ الْوَلَد، ثُمَّ يُعَافِيهِمْ وَيَرْزُقُهُمْ**»(١).

ربٌّ رحيم

رحمته وسعت كل شيء، حتى العاصين له، المنكرين لوجوده، يُطعمهم ويسقيهم ولا يمنع رزقه عنهم.

.. أنزل في الأرض جزءًا مـــن مائة جزء من رحمته يتراحم بها خلقه، واختزن لنا

(١) أخرجه البخاري (برقم: ٦٩٢٩) في الأدب، باب: الصبر على الأذى، ومسلم (٤/ ٢١٦٠ برقم: ٢٨٠٤) كتاب صفات المنافقين، باب لا أحد أصبر على أذى من الله عَزَّوَجَلَّ.

عنده تسعة وتسعين جزءًا لوقت سنكون فيه أحوج ما نكون إلى تلك الرحمات.

قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ رَبَّكُمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَى رَحِيمٌ؛ مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةً، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ عَشْرًا، إِلَى سَبْعِمِائَةٍ، إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةً، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ وَاحِدَةً، أَوْ يَمْحُوهَا اللهُ، وَلَا يَهْلَكُ عَلَى اللهِ إِلَّا هَالِكٌ**»(١).

إلهٌ رؤوف

ربنا رب رؤوف، حنان.. أحن علينا من آبائنا وأمهاتنا وأزواجنا وأبنائنا.. إذا ابتلانا بمرض فإنه لا يحرمنا معه الأجر.. قال رسول الله ﷺ: «**مَا أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يُبْتَلَى بِبَلَاءٍ فِي جَسَدِهِ إِلَّا أَمَرَ اللهُ الْحَفَظَةَ الَّذِينَ يَحْفَظُونَهُ: اكْتُبُوا لِعَبْدِي هَذَا مَا كَانَ يَعْمَلُ وَهُوَ صَحِيحٌ مَا دَامَ مَحْبُوسًا فِي وَثَاقِي**»(٢).

.. نعم -أخي- هذا هو ربنا الرؤوف: «**إِنَّ الْمَعُونَةَ تَأْتِي مِنَ اللهِ عَلَى قَدْرِ الْمَؤُونَةِ، وَإِنَّ الصَّبْرَ يَأْتِي مِنَ اللهِ عَلَى قَدْرِ الْبَلَاءِ**»(٣).

لا يُريدنا أن ندخل النار، فيظل يُخوفنا ويُخوفنا منها، ويُظهرها لنا بصورة بشعة مؤلمة قاسية، حتى نعمل على الهرب منها: ﴿**لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾**﴾ [الزمر: ١٦].

(١) مسند الإمام أحمد (٤/ ٣١٥ برقم: ٢٥١٩)، مسلم كتاب الإيمان، باب إذا هم العبد بحسنة كتبت وإذا هم بسيئة لم تكتب (١/ ١١٨ برقم: ١٣١).

(٢) مسند الإمام أحمد (١١/ ٤٢٢ برقم: ٦٨٢٥)، ابن أبي شيبة (٣/ ٢٣٠).

(٣) أخرجه البزار، كما في كشف الأستار (٢/ ١٩٥ برقم: ١٥٠٦)، ومسند البزار (١٥/ ٣٢٧ برقم: ٨٨٧٨)، وابن لال في مكارم الأخلاق.

ويعرض -سبحانه- لنا الجنة بصورة جميلة مبهرة تفوق الوصف، حتى نسعى حثيثًا للوصول إليها: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ ﴾ [الإنسان: ٢٠].

لعلهم يرجعون

مُراده -سبحانه- دخول الجميع الجنة، لكنه لا يُكره أحدًا على الإيمان به، وإلا انتفت الحكمة من خلق الإنسان وتمتعه بحرية الاختيار، ولصار كسائر المخلوقات.

ولأنه سبحانه يُريد لعباده دخول جنته، ولكنهم في غفلة معرضون؛ لذلك فهو يبتليهم بألوان شتى من الابتلاءات حتى يفيقوا من غفلتهم ويعودوا إليه.

فكل ما يَرِد على الإنسان من أشكال المنع كالمرض والنقص في الرزق والأمن، فإن الحكمة الأساسية منه هو إخراجه من حالة الغفلة إلى اليقظة، ورجوعه إلى الله.. تأمل معي هذه الآيات التي تؤكد هذا المعنى:

﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [الروم: ٤١].

﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [السجدة: ٢١].

﴿ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ ﴾ [الأعراف: ١٦٨].

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾ ﴾ [الأعراف: ١٧٤].

﴿ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الزخرف: ٤٨].

بل إن الهموم التي تهجم على العبد صورة من صور التنبيه وتكفير الذنوب،

يقول رسول الله ﷺ: «**إِذَا كَثُرَتْ ذُنُوبُ الْعَبْدِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ مَا يُكَفِّرُهَا مِنَ الْعَمَلِ ابْتَلَاهُ اللهُ بِالْحُزْنِ لِيُكَفِّرَهَا عَنْهُ**»(١).

ربٌّ شكور

ربنا ربٌّ شكور.. يشكر عمل عبده -مع قلته- ويعظم له به الأجر..

.. يقول رسول الله ﷺ: «**بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ وَجَدَ غُصْنَ شَوْكٍ عَلَى الطَّرِيقِ، فَأَخَّرَهُ فَشَكَرَ اللهُ لَهُ، فَغَفَرَ لَهُ**»(٢).

ويقول ﷺ: «**كَانَ تَاجِرٌ يُدَايِنُ النَّاسَ، فَإِذَا رَأَى مُعْسِرًا قَالَ لِفِتْيَانِهِ: تَجَاوَزُوا عَنْهُ، لَعَلَّ اللهَ أَنْ يَتَجَاوَزَ عَنَّا، فَتَجَاوَزَ اللهُ عَنْهُ**»(٣).

ربٌّ غفور

أتدري -أخي- ما هي دعوة الله التي يدعو عباده إليها؟

إنها المغفرة.. يدعوهم لكي يستغفروه فيغفر لهم، ويستسمحوه فيُسامحهم مهما كانت أخطاؤهم..

وهو مع غناه المطلق عنهم ينتظرهم ليُلبُّوا دعوته:

﴿**يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ**﴾ [إبراهيم: ١٠].

---

(١) مسند الإمام أحمد (٤٢/ ١٣٤ برقم: ٢٥٢٣٦)، مسند البزار (١٨/ ٢٣٥ برقم: ٢٥٥).

(٢) البخاري (برقم: ٦٥٤) في صلاة الجماعة (الأذان)، باب فضل التهجير إلى الظهر (برقم: ٢٤٧٢) في المظالم، باب من أخذ الغصن وما يؤذي الناس في الطريق فرمى به، ومسلم (٤/ ٢٠٢١ برقم: ١٩١٤) في البر والصلة، باب فضل إزالة الأذى.

(٣) البخاري البيوع باب من أنظر معسرًا (٣/ ٥٨ برقم: ٢٠٧٨).

﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ ٱلۡجَنَّةِ وَٱلۡمَغۡفِرَةِ بِإِذۡنِهِۦۖ﴾ [البقرة: ٢٢١].

﴿وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

أيُّ غفلة نحن فيها؟!

ربنـــا العظيم، مالك الملك، الغني الحميد، الـــذي لا تنفعه طاعة الطائعين، ولا تضرُّه معصية العاصين، يستحثنا لتلبية دعوته.. للعفو والصفح والمغفرة.

ينادي عـــلى العاصين الذين بارزوه بالمعـــاصي: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٥٣﴾ [الزمر: ٥٣].

لا يتعاظم لديه ذنب أن يغفره، بل يغفر ولا يُبالي..

عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: ســـمعت رســـول الله ﷺ يقول: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ أَخْطَأْتُمْ حَتَّى تَمْلَأَ خَطَايَاكُمْ مَا بَيْنَ السَّـــمَاءِ وَالْأَرْضِ، ثُمَّ اسْتَغْفَرْتُمُ اللهَ لَغَفَرَ لَكُمْ**»(١).

ومن هذا الذي تملأ خطاياه ما بين السماء والأرض؟!

لكنه خطاب تطمين وتحفيز للمسارعة إلى نيل المغفرة وانتهاز الفرصة قبل فوات الأوان: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الحديد: ٢١].

---

(١) مسند الإمام أحمد (٢/ ١٤٦ برقم: ١٣٤٩٣)، وانظر تعليق العلامة شعيب الأرناؤوط على الحديث وتتبعه لشواهده بالهامش.

بابه مفتوح للجميع

الله عَزَّوَجَلَّ لا يُغلق بابه في وجه سائل.. ينتظر توبة عبده، ويفرح بها أيما فرح، ويُكافئه عليها مكافأة فورية بأن يُبدل سيئاته حسنات، ليبدأ حياته الجديدة برصيد كبير منها: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾ [الفرقان: ٧٠].

ينتظر من عبده أية التفاتة صادقة ليُقبل عليه، وأي شعور بالندم على ما مضى منه من تفريط، ورغبة في التوبة إليه، فيغفر له ولا يُبالي.

يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، فإذا تاب عبد من عباده كان -سبحانه- أفرح بتوبته من ذاك الذي تاهت راحلته في الصحراء وعليها كل أسباب حياته.

فقل لي -بربك- لماذا يفرح كل هذا الفرح؟!

هل يُزيد هذا التائب في خزائن ربك أو ملكه شيئًا؟

هل تنقُص خزائن ربك إذا ظل ذلك العبد عاصيًا؟

كلا.. فلماذا إذن؟

هل هناك إجابة غير أنه يُحبنا ويُريد لنا الخير ودخول جنته، ولا يرضى لنا دخول النار؟

فأي رب رحيم ودود هو ربنا: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ ﴾؟ [الأحزاب: ٤٣].

.. جاء في الحديث: «مَا مِنْ يَوْمٍ إِلَّا وَالْبَحْرُ يَسْتَأْذِنُ رَبَّهُ أَنْ يُغْرِقَ ابْنَ آدَمَ،

وَالْـمَلَائِكَةُ تَسْتَأْذِنُ أَنْ تُعجلَهُ وَتَهْلِكَهُ، وَالرَّبُّ يَقُولُ: دَعُوا عَبْدِي، فَأَنَا أَعْلَمُ بِهِ إِذْ أَنْشَأْتُهُ مِنَ الْأَرْضِ، إِنْ كَانَ عَبْدَكُمْ فَشَأْنُكُمْ بِهِ، وَإِنْ كَانَ عَبْدِي فَمِنِّي إِلَى عَبْدِي، وَعِزَّتِي وَجَلَالِي إِنْ أَتَانِي لَيْلًا قَبِلْتُهُ، وَإِنْ أَتَانِي نَهَارًا قَبِلْتُهُ، وَإِنْ تَقَرَّبَ مِنِّي شِبْرًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ مِنِّي ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ بَاعًا، وَإِنْ مَشَى إِلَيَّ هَرْوَلْتُ إِلَيْهِ، وَإِنِ اسْتَغْفَرَنِي غَفَرْتُ لَهُ، وَإِنِ اسْتَقَالَنِي أَقَلْتُهُ، وَإِنْ تَابَ إِلَيَّ تُبْتُ عَلَيْهِ. مَنْ أَعْظَمُ مِنِّي جُودًا وَأَنَا الْجَوادُ الْكَرِيمُ؟ عِبادِي يَبِيتُونَ يُبَارِزُونِي بِالْعَظَائِمِ، وَأَنَا أَكْلَؤُهُمْ[1] فِي مَضَاجِعِهِمْ، وَأَحْرُسُهُمْ عَلَى فُرُشِهِمْ، مَنْ أَقْبَلَ تَلَقَّيْتُهُ مِنْ بَعِيدٍ، وَمَنْ تَرَكَ لِأَجْلِي أَعْطَيْتُهُ فَوْقَ الْمَزِيدِ، وَمَنْ تَصَرَّفَ بِحَوْلِي وَقُوَّتِي أَلَنْتُ لَهُ الْحَدِيدَ، وَمَنْ أَرَادَ مُرَادِي أَرَدْتُ مَا يُرِيدُ. أَهْلُ ذِكْرِي أَهْلُ مُجَالَسَتِي، وَأَهْلُ شُكْرِي أَهْلُ زِيَادَتِي، وَأَهْلُ طَاعَتِي أَهْلُ كَرَامَتِي، وَأَهْلُ مَعْصِيَتِي لَا أُقَنِّطُهُمْ مِنْ رَحْمَتِي، فَإِنْ تَابُوا إِلَيَّ فَأَنَا حَبِيبُهُمْ، وَإِنْ لَمْ يَتُوبُوا فَأَنَا طَبِيبُهُمْ، أَبْتَلِيهِمْ بِالْمَصَائِبِ لِأُطَهِّرَهُمْ مِنَ الْمَعَاصِي»[2].

فماذا تقول بعد ذلك؟

ألا توافقني -أخي- أن باب التشويق والترغيب في الله باب عظيم يُلهب مشاعر من يدخل منه، ويوقظ الإيمان في قلبه، ويدفعه إلى المسارعة إلى الله وطلب مغفرته ومحبته، مع أن ما ذُكر لا يُساوي قطرة في بحر وُدِّه.

---

(١) أكلؤهم: أي أحفظهم.

(٢) جاء الحديث بهذا اللفظ في مدارج السالكين (١/ ٤٣٢-٤٣٣) في آخر منزلة التوبة. والذي في مسند الإمام أحمد (١/ ٣٩٥ برقم: ٣٠٣) في مسند عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بلفظ: «**ليس من ليلة إلا والبحر يشرف فيها ثلاث مرات على الأرض يستأذن الله في أن ينفضخ عليهم فيكفه الله** عَزَّوَجَلَّ» وفي المطالب العالية لابن حجر (٢/ ١٧٦ برقم: ١٩٨٨) في قصة طويلة ونسبه إلى إسحاق بن راهويه في مسنده.

فإن كان الأمر كذلك؛ فعلينا أن نُحسن الدخول من هذا الباب، وبخاصة ونحن في بداية رحلتنا الإيمانية وسيرنا نحو الله عَزَّوَجَلَّ، وهذا يحتاج منا إلى تفكُّر في مظاهر أسمائه وصفاته التي لها علاقة بهذا الأمر، كالوهاب، والرزاق، والمُنعم، والودود، والرحيم، والحليم، والصبور، والغفور، واللطيف.. (أو بإجمال: التفكر في آثار الود والإنعام؛ فالود يشتمل على الرحمة، والحلم، والصبر، والمغفرة، ... والإنعام يشتمل على الهبة، والرزق، وجميع أبواب النعم،..)

هذا التفكُّر يشمل القرآن والكون، أما القرآن فالمتفكر فيه يرى مظاهر حب الله لعباده تقطر من آياته، فخطاب الترغيب في الله والتشويق إليه هو الغالب عليه، ويكفيك في هذا أن سُوَره تبدأ بـ: «بسم الله الرحمن الرحيم».. ولا تبدأ بأسماء أخرى من أسمائه سبحانه، وكأن هذه البداية تحمل رسالة تطمين للجميع، وتقول له: أقبل ولا تخف، فربك «رحمن رحيم».

من هنا نقول بأن القرآن هو أعظم وسيلة للتعرف على الله وتنمية حبِّه والشوق إليه في القلب، فعلينا لزوم هذا الكتاب والمداومة على قراءته والبحث من خلاله على هذه المعاني.

وأما الكون فالمتفكر فيه يرى الكثير والكثير من آثار حب الله لعباده كمظاهر حلمه وستره وطول إمهاله لهم، وتوالي نِعَمه عليهم.

ومع التفكر في القرآن والكون تأتي أهمية القيام بأعمال صالحة لها علاقة وثيقة بتثبيت عُرى المحبة لله في القلب كإحصاء النعم، ومُناجاة الله بها، وسجود الشكر عند ورود النعم الكبيرة، والقيام برحلات الاعتبار ورؤية أهل البلاء، والقيام كذلك بتحبيب الناس في الله عَزَّوَجَلَّ.

هذه المعاني المُشوِّقة لحُب الله، والأعمال التي تُثبِّتها في القلوب تمَّ الحديث عنها بشيء من التفصيل في كتاب «كيف نُحب الله ونشتاق إليه؟»[1]، فلك أن تقرأه -إن شئت- لعلك تجد فيه ما يستثير مشاعرك، ويُنمي حب الله في قلبك، ويقدح شرارة الانطلاق نحوه سبحانه، على أن تقرأه من بدايته لنهايته، وتقوم بتطبيق ما دل عليه من أعمال حتى تتم الفائدة بإذن الله.

• • •

(١) يُمكنك -أخي القارئ- قراءة الكتاب وتحميله من موقع «الإيمان أولًا».

كلمة أخيرة

وبعد:

أخي القارئ: إن كل ما قيل في الصفحات السابقة سيبقى حِبْرًا على ورق إن لم نقرأه بهدف العمل والتنفيذ، ولا ينقصنا لتحقيق ذلك إلا العزم الأكيد، والاستعانة الصادقة بالله عَزَّوَجَلَّ.

فهيَّا لنبدأ من الآن قبل فوات الأوان.. قبل أن يأتي الموت ويحول بيننا وبين العمل فنكون من النادمين..

.. إن الموت لا يستأذن أحدًا قبل مجيئه، والأيام تُسرع بنا نحوه، والراحة والسعادة بعده طويلة لمن أحسن العمل..

فلنبادر ولنشمر للِّحاق بركب السائرين إلى الله..

﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

والحمد لله الذي هدانا لهذا، وما كُنَّا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

وصلِّ اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

• • •

الفهرس

العنوان **الصفحة**

المقدمة..... ٥

الفصل الأول
ضرورة التكامل التربوي عند المسلم
ومكانة التربية الإيمانية منه

ضرورة التكامل التربوي عند المسلم، ومكانة التربية الإيمانية منه..... ١١
المكونات الأربعة ١١
ضوابط التربية ١٢
بأي الجوانب نبدأ؟ ١٧
من فوائد البدء بالتربية الإيمانية ١٨

الفصل الثاني
ثمار الإيمان

من ثمار الإيمان في جيل الصحابة..... ٢٣
الثمار العشر ٢٥
أولًا: المبادرة والمسارعة لفعل الخير..... ٢٧
التنافس في الخير..... ٢٩

شدة الحرص على دعوة الخلق إلى الله ٣٠
ثانيًا: تقوية الوازع الداخلي ٣٢
شدة الورع ٣٤
ثالثًا: الزهد في الدنيا..... ٣٧
هكذا كانوا ٣٨
رابعًا: التأييد الإلهي..... ٤٤
الأمة والإيمان..... ٤٥
الوعد الحق ٤٦
نماذج للولاية والتأييد الإلهي..... ٤٨
التأييد الإلهي للفئة المؤمنة ٥٠
خامسًا: إيقاظ القوى الخفية ٥٨
أعمى يحمل الراية..... ٦١
سادسًا: الرغبة في الله ٦٢
الراغبون في الله ٦٢
سابعًا: اختفاء الظواهر السلبية ٦٥
غنائم حنين والطائف..... ٦٩
ثامنًا: التأثير الإيجابي في الناس ٧٢
القلوب بيد الله ٧٣
أصلح نفسك تُصلَح لك رعيتك..... ٧٤
تاسعًا: اتخاذ القرارات الصعبة..... ٧٥
نماذج مشرقة..... ٧٥

إسداء النصيحة ٧٧
الانتصاف من النفس ٧٧
عاشرًا: الشعور بالسكينة والطمأنينة ٨١
طمأنينة القلب ٨٣
موقف جامع ٨٥

الفصل الثالث
مراحل الارتقاء الإيماني وأهداف التربية الإيمانية

مراحل الارتقاء الإيماني وأهداف التربية الإيمانية ٩٣
نور القلب ٩٣
يقظة القلب هي البداية ٩٤
إياك والاغترار ببدايات اليقظة ٩٥
تمكُّن اليقظة ٩٦
استمرار الارتقاء الحقيقي للإيمان ٩٧
التعامل مع الدنيا مقياس الارتقاء الحقيقي للإيمان ٩٨
الارتقاء الإيماني والتعامل مع المال ٩٩
الارتقاء الإيماني والتعلق بالبشر ١٠٢
الارتقاء الإيماني والتعامل مع أحداث الحياة ١٠٣
مع المنع والعطاء ١٠٦
الارتقاء الإيماني والحالة القلبية ١٠٨
الارتقاء الإيماني والعلاقة مع الله عَزَّوَجَلَّ ١٠٩

أهداف التربية الإيمانية..... ١١٢

الفصل الرابع
حقيقة الإيمان

حقيقة الإيمان ١١٧
الدنيا والمال..... ١١٨
القلب والمشاعر..... ١١٩
الإيمان والمشاعر ١٢٠
الهوى والمشاعر ١٢١
الصراع بين الإيمان والهوى ١٢١
هل الإيمان هو المعرفة؟ ١٢٢
فإن كان الأمر كذلك، فما هو الإيمان؟ ١٢٣
الفارق بين القناعة العقلية بالفكرة وبين الإيمان بها ١٢٤
شمول معنى الإيمان..... ١٢٦
مفهوم الإيمان بالله..... ١٢٧
الإيمان محض فضل من الله عَزَّوَجَلَّ..... ١٢٨
الحالة الإيمانية (متى يزداد الإيمان)؟..... ١٣٠
الإيمان والطاعة ١٣١
ابن القيم يؤكد..... ١٣٤
إنما الأعمال بالنيات..... ١٣٦

السباق سباق قلوب..... ١٣٧
الإيمان ما وقر في القلب ١٣٩
لماذا لا يظهر أثر الإيمان في كل الأوقات والأحوال؟ ١٤٢
جناحا التربية الإيمانية ١٤٥
الإيمان والعمل الصالح ١٤٦
المثال الأول..... ١٤٦
المثال الثاني..... ١٤٧
المثال الثالث ١٤٨
الإيمان أولًا ١٤٩
الإسلام بدأ مشاعر ثم شعائر ثم شرائع ١٥١
الخلاصة ١٥٣

الفصل الخامس
تأسيس القاعدة الإيمانية من خلال القرآن

تأسيس القاعدة الإيمانية..... ١٥٧
ما المقصود بالقاعدة الإيمانية؟ ١٥٧
تعرفهم بسيماهم..... ١٥٨
الجيل الرباني..... ١٦١
إنهم صُنِعوا ها هنا ١٦٣
تأثر الصحابة بالقرآن..... ١٦٥

المصدر المتفرد ١٦٦
المعرفة الشاملة..... ١٦٧
المعرفة المؤثرة..... ١٦٨
القرآن يستثير جميع المشاعر ١٧٠
القرآن وبناء الإيمان..... ١٧١
أهمية الترتيل ١٧٣
أهمية المداومة على تلاوة القرآن ١٧٥
الإنصات التام أثناء التلاوة..... ١٧٧
القرآن والسنة..... ١٧٩
ابتعاد الأمة عن الانتفاع الحقيقي بالقرآن..... ١٧٩
يا حسرة على العباد..... ١٨٠
التحدي الكبير..... ١٨٢
التواصي والتعاهد ١٨٥
وسائل عملية للانتفاع بالقرآن..... ١٨٦

الفصل السادس

العمل الصالح وكيف ننتفع به في زيادة الإيمان؟!

العمل الصالح وكيف ننتفع به في زيادة الإيمان؟! ١٩٣
الانتفاع بالعمل الصالح..... ١٩٣
أهمية التذكرة قبل العمل..... ١٩٤

من فقه التحفيز ١٩٥
وسائل التحفيز..... ١٩٧
أولًا: السؤال..... ١٩٧
ثانيًا: تذكُّر الله عَزَّوَجَلَّ ١٩٩
ثالثًا: التذكير بفضل العمل..... ٢٠٠
رابعًا: التذكير بأهمية العمل..... ٢٠٢
خامسًا: الترهيب من ترك العمل ٢٠٢
سادسًا: التشجيع..... ٢٠٤
سابعًا: التذكير بالمواقف الإيجابية السابقة ٢٠٥
ثامنًا: المحاورة والإقناع والموازنة العقلية (تخيير النفس) ٢٠٦
تاسعًا: التحفيز من خلال إبراز قدوة ٢٠٩
عاشرًا: القصة ٢١٠
حادي عشر: ضرب المثل ٢١١
ثاني عشر: الصورة المؤثرة ٢١٣
ثالث عشر: الاستفادة من الأحداث غير المألوفة ٢١٥
هل هناك مزيد من الوسائل؟..... ٢١٧
كلمة أخيرة عن وسائل التحفيز ٢١٧
الوصول للهدف هو الغاية ٢١٨
أهمية التدريب على تحفيز المشاعر قبل القيام بالعمل ٢١٨
تدريبات عملية من القرآن والسنة ٢٢٠

الفصل السابع
الهزَّة الإيمانية وبداية الارتقاء الإيماني

الهزَّة الإيمانية وبداية الارتقاء الإيماني..... ٢٢٧
الحلقة المفقودة ٢٢٧
هيا بنا نزدد حُبًّا لله وشوقًا إليه..... ٢٢٨
مفتاح الدخول لباب المحبة ٢٣٠
أقبل ولا تخف، فربك ينتظرك ٢٣١
ألم تر إلى ربك كيف يُحبُّك؟..... ٢٣٣
خلقنا في أحسن تقويم..... ٢٣٤
إلهٌ قيُّوم..... ٢٣٤
حليم ستير..... ٢٣٥
ربٌّ رحيم ٢٣٥
إلهٌ رؤوف ٢٣٦
لعلهم يرجعون ٢٣٧
ربٌّ شكور..... ٢٣٨
ربٌّ غفور ٢٣٨
أيُّ غفلة نحن فيها؟!..... ٢٣٩
بابه مفتوح للجميع ٢٤٠
فماذا تقول بعد ذلك؟ ٢٤١

كلمة أخيرة ٢٤٤

الفهرس ٢٤٥

• • •